الجنرالات آخرُ من يعلم

THE GENERALES ARE THE LAST TO KNOW
By: SAAD ALBAZZAZ
First Arabic Edition 1996 - 1997

الكتاب : العـــــراق الســـــري (الجزء الأول) – الجنرالات آخـر من يعـــلـــــم

المؤلف : ســـــــعـد البـــــزاز

ميدان البحث : الخليج. الحرب. العراق. المستقبل .

الغلاف : زهير أبو شايب

التنضيد والتصميم الداخلي : ندى القدومي – فريال الشلبي

الطبعة الأولى : سبتمبر "أيلول" 1996

الناشر : الدار الأهلية للنشر والتوزيع – عمـــان

إهـــــــــداء

أدوا التحيـــة لجنـــــود العـــــراق الذين ظلمتهم معركة خطـــــأ في الـــزمن الخطـــأ والمكان الخطـــــــــــــأ...
وأنحنـــــوا لأطفاله المحرومين من الألوان والأدوية والحليب واللعُب في بـــــلاد كان المال الذي أُنفـــق فيه على أجهزة التنـصت وحامض السـيانيد كافياً لتشييـــد جنـــة للطفـــــولة فوق الأرض.

المقـدمـــــــــــة

لـمـاذا أُوقظت الحروب من سُباتها ؟

حتى لا يأتي يوم أسود آخر يغزو فيه الفقراء والمعوزون والمحاصرون
مدائن الصحراء ويصنعون من حلي نسائها تعويذات لطرد الأرواح الشريرة ..
يوم دا مْ آخر لا يتردد فيه أحد عن
الالتحاق بموكب غزو الكويت ثانيـــــــــــةً ..

(1)

ما أقرب صورة يمكن رسمها للكارثة التي حلّت بالعــراق .. وما الجزء المقتطـــــــــع من الأحداث .. وماذا كان ينبغي أن يقـــــع ولم يقــع.. ولماذا لم يقع ؟ وهل كان يمكن أو ينبغي تحاشـــي الذهاب إلى الكويت وبالتالي تحاشي الخوض في الحرب ومواجهة العالم ؟ وعلى ماذا اعتمدت القيادة العراقية ؟ .. وهل هناك من ضللهـــا أم أنها هي التي ضللت حلفـــــاءها المباشرين واستدرجتهم إلى مأزق تاريخي كبير .. ؟

على الدوام .. ثمة أسئلة بلا أجوبة .. أو أن أجوبتها ستظل ناقصةً تنتظر تفاصيل أخرى قد تضاف إليها بعد عقدٍ آخر من الزمان أو أكثر..لقد أجبـــتُ في كتـــب ســـــابقة عن بعض هذه الأســـئلة، لكن الذي كتبتُــه من قبل لم يـــروه بعد ظمأ الأسئلـــة كلها..

تخرج المعلومات هنا من أطراف ألسنة الشـــــهود والمخططين والمنفذين ومن صفحات الوثائق التي يحرص واضعوهـــــــا على إبقائها طيّ الكتمـــان لعقدين أو ثلاثة عقود من الزمان على الأقل، ولا شك أن أخطر ما يتصدى له الكاتب هو التعامل مع معلومات ما زال الشهود عليها والمعنيون بها قادرين على منع ظهورها و ملاحقة ناشريها وإيذائهـم، لذلك فإننا ملْزَقيـــون في أُتـــون لعبـــةٌ خطرة وعالية الكلفة.. وفي جانب آخر لا أجد نفسي مستاءً من أن كتبي ما تزال تُمنع في معظم الدول المعنية بموضوعاتها، ربما لأن أحداً لا يريد أن يرى الحقيقة كلها، ويفضل الإنتفاع من جزءْ منها فقط ولذلك فإنه يتعامل مع المعلومات والوثائق بأسلوب الإنتقاء ويرفض إلتقاء الأضداد في موضع واحد من الزمان و المكان.. إن كل طرف معني بجزء من الحقيقة ولا يحتمل أن تُقدم روايتها كاملة، حتى ليبدو أن الجميع مشتركون في الإثـم بدرجات تتفاوت على حسب حجومهم وقدراتهم..

..بعد ذلك وقبله فإن هذا الكتاب يستغرق في وقائعية شبه مطلقة، يبتعد عن التنظير حتى ليبدو أشـــبه بمحاولة لـملء الفراغات وتعبئة الفجوات التي تخلّفت عن كارثة الدخول إلى الكويت بأعلى قدرْ من المعلومـــــــــات أمكن التحقق منها بعد ست سنوات من وقوعهـــا..

(2)

لطالما قبلتُ الفكرة التي تبناها المتفائلون بأن الواجب الأخلاقـــــي للكتّاب والدعاة هو بث الآمال وإنعاشـــــــها في مراحل الإحباط وتحت ظلال الكوارث، غير أن ذلك لا يبرر محاولات تجميل الفجيعــة وإحالة الهزائم على الأرض إلى إنتصارات على الورق لأن ذلك سيغدو تسطيحاً للوعي العام وسيوصد الأبواب أمام محاولة تقديم وصفْ صحيح لما حلّ بالعــــــراق والبلدان العربية الأخرى من جراء قرار دخول الكويت بالأسلوب و التوقيت الذي جرى به ، ومن غير هذا التوصيف لما حدث لن يُتاح إنقاذ ما تبقى مما يمكن إنقاذه.

جيلٌ يخرج من حربين خلال عقدْ واحد من الزمان ليتحمل تبعات الفواجع وتفتت البنية النفسية والأخلاقية والإجتماعية لعوامل كثيرة كان في مقدمتها أنّ غزو الكويت بحد ذاته قد صدم المجتمع لأنه بدا صراعاً بلا مسوغات فكرية ولا دوافع عصبية، فالعـــــراق والكويت ينتميان إلى حاضنة واحدة في نشوئهما العصبي والمعنوي وكانا على الدوام أقرب إلى الإلتحام منه إلى التنازع، كما أن هذا الحدث قد صدّع جزءً من الموانع الأخلاقية والنفسية السائدة .. إذْ ما معنى أن يُرغم المجتمع كله على تقفي خطوات أولئك المتريفين الذين جاء في بالهم يوماً أن يقرروا دخول مدن الآخرين ويستبيحوا أمنهم ليجعلوا من طبائع حياتهم البدائية المتخلفة قاعدة في تأسيس علاقة المجتمع العراقي كله بالعالم الخارجي .. ؟ .. أي أنهم نقلوا نمط علاقات السطو المباحة في المتخلف من قراهم ليصبح قاعدة في علاقة دولة متحضرة كالعــراق مع العالم الخارجي .. ثم حصل في أثناء ذلك ومن بعده تصدّعٌ وتخلخلٌ قيمي رافقته ونشأت عنه شبكة معقدة من الظواهر النشاز بدءً من تداخل المال العام والخاص، وغياب الـمُثل العليا، وإستسهال اللجوء إلى العنف، والرغبة في السطو على حقوق الآخرين، وسيادة القيم المادية، وتخلخل الثقة بالنفس والعالم الخارجي، وارتضاء الجلد الجماعي للذات، وحلول حكم العائلة بدل حكم الدولة، واستلاب المجتمع لمؤسسة أمنية طاغية، وغياب الدور المركزي للدولة وفقدانه في الريف وفي جنوب البلاد وشمالها، وتسلل الفساد إلى القضاء والشرطة والجهاز الإداري

والتعليم، وإنهيار الأمن الإجتماعي، وتراجع التأهيل الصحي وتلوث البيئة ونشوء جيل ناقص التغذية، وهجرة النخبة، وتراجع التعليم وغياب المعلومات وطغيان خطاب سياسي وإعلامي ساذج.. وإنهيار الإقتصاد إلى الحد الذي سيتحمل نتائجه جيلان آخران على الأقل.

إن الذاكرة الشعبية التي ظلت تستذكر واقعة (الفرهـــود) التي جرى فيها نهـــبٌ وســـلب على نطاق واسع قبل أربعة عقـــود من الزمان، باتت تترقب قدوم (فرهود) جديد اعتقد الجمهور أنه اندثـــــــــر إلى الأبـد ليبقى مجرد ظل قاتم من حكاية شعبية موروثة ومندرســـــــة وأنه لن يعود ليمثل حيـــاً مرة أخرى كما هو الحال بعد إنهيارات الحرب حين غدا المجتمع كله في إنتظار ملاقاة (فـرهـــــــود) كان المقصود من إستذكاره ، من قبل ، حض النـــاس على التكتل والتضامن لئلا يصبحوا ضحية ذلك الوحش الإجتماعي البغيض ، غيرأن هاجس انتظار هذا الوحش بات يأكل من بنية ما تبقى من الاطمئنان الاجتماعي بسبب فقدان الكوابح المعنوية التي تقاوم الخطأ و الخطيئة.

فمنذ ذهب أولاد العائلة والوزراء ووكلاؤهم والمديرون العامون يبحثون عن ما يختطفونه من أملاك الآخرين في الكويت أُجيز للفرهود أن يعود ثانيـــــــة إلى مجتمع لم يعد يرى مثلاً أعلـــــــى يحتذي أثره ويتخذه قياساً في السلوك.

أليســت هذه هي الفجيعـــــــة بعينـــها ؟ ...

فهل يظل الواجب الأخلاقي بعدئذْ هو بثّ الآمال وإنعاشها وتجميل الفجيعة بدلاً من وصفها وتحديد المتسببين في وقوعها ؟

الواجب الأخلاقي هنا، إذن، هو أن نمضي في رواية ما حدث وصفاً للفجيعة .. وحصراً للمسؤولية التاريخية عنها دفاعاً عن حق العراق في أن يكون قوياً وموحداً ولتبرئة شعبه من الأخطاء التي ارتكبتها قيادته السياسية في إحدى مراحل الصراع على المنطقة ..

(3)

– " عندما لا يبدو أن أمامنا معارك معلنة اليوم .. فإن هناك معارك محتمة ستقع غداً."

بهذه الكلمات أجاب السيد صدام حسين عن سؤال وجهته إليه سنة 1976 حول جدوى إرسال أعضاء حزب البعث وموظفي الدولة إلى مهمات عسكرية في المناطق الحدودية يوم لم يكن العراق منغمراً في أية معركة بعد أن هدأ القتال في شمال البلاد إثر إتفاقية لتنظيم العلاقات العراقية الإيرانية وقعها السيد صدام نفسه مع شاه إيران الراحل محمد رضا بهلوي في الجزائر (شهر آذار من عام 1975) وبعد أن مرت ثلاث سنوات على حرب تشرين أول "أكتوبر" 1973 بين العرب وإسرائيل .. والأهم من ذلك فإن السؤال كان موجهاً إلى رجل لم يكن يومها رئيساً للدولة بل كان الشخص الثاني فيها بصفته نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة لكنه من الناحية الفعلية كان الشخص الأول الذي يقف خلف السياسات الأساسية في العراق بما فيها رسم خطط التعبئة العامة والتجنيد العسكري.

يومها شرح بإسهاب معنى إرسال المدنيين إلى مهمات عسكرية في زمن لم تكن فيه ثمة حروب قائمة أو محتملة فقال : الحروب الآتية ليست محتملة .. بل إنها محتمة .. فمنذ علّمنا الأستاذ ميشيل عفلق (مؤسس حزب البعث) السير على هذا الطريق في العمل السياسي لم نعد نعرف العيش بدون صراعات .. وإذا كنتَ لا ترى من جانبك معركة قادمة .. فإنني أراها من المكان الذي أتطلع منه إلى أنفسنا والعالم .. لكنني لا أستطيع أن أحدد من أي اتجاه ستكون هذه الحرب الآتية .. أو ضد من ستقع.

بعد أربع ســـنوات من ذلك اللقاء انفجرت الحرب مع إيران لتخلّف وراءها مليون ضحية خلال ثماني سنوات من القتال ..

لقد جرى إرسال الجنرالات مع جنودهم إلى إيران مستخدمين خرائط سياحية لتدلهم على أهدافهم بعد أن ارتضى الرئيس صدام خيار الحرب من بين سلسلة خيارات أخرى للتعامل مع التحديات والاخطار التي أثارتها إيران ضد العراق منذ سقوط الشاه سنة 1979 .

والغريب في الأمر، أنّ الحرب كخيار بديل عن الدبلوماسية في الصراع مع العالم الخارجي، لم يكن موجوداً في إرث الفكر الإجتماعي المعاصر في العراق كما تدل عليه أفكار رواد هذا الفكر من أمثال ساطع الحصري وعلي الوردي، بل على العكس فقد نحا المفكرون الإجتماعيون إلى رد

السلوك العنيف إلى مصادره في المتخلف من القيم السائدة ورفضوا قبوله كنمط في العلاقات داخل المجتمع العراقي ودعوا إلى إحلال السلم الإجتماعي لكي ينتج تلقائياً سلاماً مع العالم الخارجي، لكن المشكلة هي أن السياسيين من صانعي الحروب لم يخرجوا من جبة هذا الإرث، بل جاءوا من حاضنة المتخلف من القيم الإجتماعية التي قاومها دعاة التنوير والإجتماعيون العراقيون ..

(4)

حاولتُ جاهداً بعد إنتهاء حرب الخليج إستنطاق الأشخاص الذين كانوا حول الرئيس خلال اتخاذ قرار الذهاب إلى الكويت ثم أداروا معه الصفحات التالية من الصراع، إذ لا يعقل أن يتحمل شعب كامل تبعات سياسات هشـــة صنعها أولئك الذين دفعت بهم صدفة تاريخية إلى الخط الأمامي من العمل السياسي مستخدمين سلاحين لفرض أدوارهم على الآخرين .. الأول : القوة والقســر .. والثاني : تغييب المعلومات عن الجمهور.

ووجدتُ في ردود أفعال أولئك الذين كان ينبغي عليهم أن يعترفوا بأدوارهم ما يثير الدهشة، إذ تهرب بعضهم من المواجهة في حين تهافت آخرون على معالجة المعضلات الفنية واستغرقوا في بحث التفاصيل لإلقاء تبعات الكارثة على أسباب بعيدة عن أصل القرارات التي اتخذوها وأعنى بذلك ابتداع معركة غير مسوّغة باتخاذ قرار الدخول إلى الكويت وفتح المواجهة على مصاريعها مع العالم الخارجي، ومن أمثلة ما حصلت عليه خلال رحلة (حصر المسؤولية) أن السيد عزة إبراهيم الذي يُفترض أنه الشخص الثاني في سلُم المسؤولية، تهرّب من الإجابة عن أسئلة مكتوبة، وأبلغني عن طريق مساعديه (أن المعركة لم تنتهِ وعندما نحقق النصر الكامل سنكشف عن الحقائق كاملة) بعد أن وجد أنه ملزم ببيان ما ترتب عن دوره في ثلاث مهمات كرست فشل السياسة العراقية .. المهمة الأولى عندما زار السعودية في 30 تموز "يوليو" 1990 للقاء الشيخ سعد العبدالله ولي العهد الكويتي في مدينة جدة .. والثانية يوم الرابع من آب "أغسطس" عندما ذهب إلى السعودية ومصر كحامل رسائل أصم ولم يكن ليقول سوى أنه غير مخول بالبحث في مسألة الكويت و انه مجرد ساعي بريد، والثالثة عندما عاد من طهران مستبشراً بعقد تحالف أوهمه أعداء الأمس أنه بات ممكناً ومتاحاً بين العراق و إيران.

في حين قال لي السيد طارق عزيز (لقد كنّا نعوّل على أمور كثيرة بما فيها الوعود التي أعطتها لنا بعض المنظمات الفلسطينية والعالمية لملاحقة الأهداف الأمريكيةوربما كان الإعتماد على تلك الوعود في غير محله).

أما السيد طه ياسين رمضان فقال (إن إطلاق سراح الرهائن الغربيين كان قراراً خاطئاً وإنني أشعر بالأسف لأننا اتخذنا ذلك القرار، إذْ أن بقاءهم لدينا كان سيمنع الرئيس بوش من مهاجمة العراق).

غير أن الدكتور سعدون حمادي ذهب إلى تفسير آخر للواقعة عندما رأى (أن فرض الوحدة مع بلد عربي آخر بالقوة والقسر هو أمر مشروع وأن اللجوء إلى هذا الخيار في العمل الوحدوي قد تأخر كثيراً عن موعده من تاريخ العلاقة بين العراق والكويت) كما رفض حمادي الإعتراف بأن الوفد الذي ذهب إلى (جدة) أقام طروحاته مع الوفد الكويتي على طلب عشرة مليارات دولار غير قابلة للنقصان.

بكثير من البساطة .. كان الدكتور حمادي يبشر بعودة (البسماركية) بعد قرنين من سقوط شرعيتها في التاريخ، لأنه وجد أن العودة إلى شعارات الوحدة يقتضي إستخدام القوة لفرض نموذج جديد لعلاقات الوحدة بين العرب.

أما الرئيس صدام، الذي أُتيح لي أن أستمع إلى آرائه مباشرة في مناسبات متفرقة خلال الأزمة وبعد الحرب، فقد طلب مني التريث وعدم النشر ووعد بالكشف عن أسرار كبيرة في يوم من الأيام .. وأتهمني بعد مباشرتي عرض أسرار إدارة الحرب من جانب القيادة العراقية بأنني (متعجّل ... و .. وربما إستدرجتني قوى دولية لأفعل ذلك .. و ..).

والمثير حقاً أن الرئيس وعدداً من أعضاء القيادة العراقية ما زالوا يعتقدون حتى بعد ست سنوات من الخوض في المواجهة مع العالم الخارجي أن ما يحدث في إطار الحملة ضد الحكومة العراقية هو مجرد نتاج حرب إعلامية ونفسية هائلة إلى الحد الذي أطلق فيه الرئيس

وصف (الجهجهون) على الضخ الإعلامي الذي سلُط على الجمهور العراقي .. والجهجهون كلمة لا معنى لها في القاموس وهي ليست من المفردات المتداولة في اللهجة المحلية إلا بمعنى الإشارة إلى السلوك والكلام غير المنطقيين أو المألوفين، ولعلها نمط من كلمات تصف حالة تتجاوز القياسات التي يكون في المقدور التعامل معها، ويجمع مستخدموها حروفاً من كلمات عدة للخروج بمفردة مهّجنة وغير مألوفة .. مثل الجهجهون.

إنّ كلمةً أخطبوطيةً من هذا النوع هي أشبه ما تكون بوصف لحيوان أسطوري بات العراقيون يقابلونه من حيثما استداروا، فهو غول إجتماعي يفتح شدقية لإبتلاعهم في الداخل، وهو الغول نفسه الذي يتشهى إذابتهم في أحواض (السيانيد) ويلقى بهم إلى أفواه الكلاب لتنهش أجسادهم وهم أحياء عندما يكونون خصوماً سياسيين.. وهو أيضاً العتمة من خارج الوطن حيث يلقون عقاباً جماعياً يطبق السقوف على قاماتهم ويعاقبهم على هوية إنتمائهم للنوع العراقي..

فالكلمـــــــة التي لا قاعدة لها هي نتـــــاج زمن يخلو السلوك السياسي فيه من المنطـــــــق والحكمة .. والتسامح ..

لكـــن الـــذي نضعه اليوم من تاريخ العراق ليس جزءً من هـــذا (الجهجهون) .. بل هو شهادة على زمن أصبحت فيه هذه المفردة مقبولة ومتداولة مع أنها لم تلد من رحم اللغة وقانونها .. لكن ما الذي كان يمكن إنتظاره في دولة يحرم فيها تدفق المعلومات، لأن البوح بها يعادل فيها إثم التمتع بالحرية في العمل السياسي .. ولا يقتصـــر حجب المعلومات عن الشـــعب .. بل حتى عن أكبر المسؤولين في أجهزة الدولة .. بل وعن الجنرالات الذين يكلفون بخوض الحروب ..

أهي دولـــــــةُ اللا يعلــــم .. ؟

.. دولة يستمع فيها وزير الدفاع خبر دخول القوات المسلحة إلى الكويت عبر الإذاعة .. ويُستدعى رئيس الأركان بعد سبع ساعات من بدء العمليات ليأخذ علماً بما وقع .. ولا يعلم مدير طيران الجيش بالحدث إلا بعد وقوعه .. ويُعتقل مدير التوجيه المعنوي لسخريته من طلب قيادته العامة رفع معنويات الجنود ..

دولة لا يعلم فيها نائب الرئيس متى بدأت الحرب .. ولا يدري رئيس الأركان ما الذي كان يجري على الخطوط الأمامية خلال الحرب .. ولا يعرف قائد القوة الجوية أن الطائرات ستُحطم على الأرض في حين كان يتعهد بأن ذبابــة لن تخترق أجواء العـــراق ..

دولة يؤدي فيها وزير الإعلام صلاة الشكر قبل اثنتي عشرة ساعة من بدء الحرب لأنه أعتقد أن الحرب لن تقـــــــع .. ويذهب الوفد العسكري للتفاوض في صفوان ولم يكن يعرف قبل ساعة من الموعد أنه ذاهب إلى ذلك اللقاء .. لأن الوفد الأصلي الذي كُلف بالمهمة لم يجد وسيلة لوصول مكان الإجتماع .. دولة يُقال فيها مدير الأمن العام من منصبه لأن الرئيس لم يستطع العثور عليه خلال الحرب، كما لم يكن يعلم أن معظم وزرائه قد هربوا من بغـــــــــــداد ..

دولــة .. ذهبت طائراتها إلى إيران .. وما زال معظم قادتها العسكريين لا يعرفــــــون كيف تم ذلك ..

إن الشعب لا يعلم .. طبعاً ..

لكن الوزراء وأعضاء في مجلس قيادة الثورة ووزير الدفاع ورئيس الأركان ومدير طيران الجيش .. والطيارين .. كلهم لم يكونوا يعلمون ما الذي يحدث أيضاً ..

كل الجنرالات لم يكونوا على علم بما كان يحدث ..

فمينزْ الذي يعلم في دولة اللايعلـــم .. ؟

هـــذا الكتاب يسعى للإجابة عن هذا السؤال : من كان يعلم ؟ .. ومن يتحمل المسؤولية ؟ .. من صنع القرار ؟ .. ومن تبعه إلى منتصــــف الطريق ؟ .. ومن مضى فيه حتى النهاية .. ؟

إذا كان الجنرالات آخـــر من يعلم ..

فمن الذي كان يعلم في عصر (الجهجهون) إذن ؟

(5)

إذْ يتناول هذا الكتاب ما يمكن عدّه أداءً فنياً ضعيفاً في تنفيذ عملية الثاني من آب 1990 وما تلاها من أحداث ووقائع، فليس المقصود من ذلك إلقاء تبعات الكارثة على التنفيذ وإعفاء التخطيط من المسؤولية التاريخية عما حدث، وسيكون من التزوير الذهاب إلى هذا المستوى من التفسير، فالأداء السلبي في التنفيذ يعكس أمرين .. الأول : هو أن المنفذين تعمدوا في الكثير من المواقف إظهار عدم الحماس كتعبير سلبي عن رفضهم ومخالفتهم للأوامر التي كانت تصدر من جهات صنع القرار في العراق، أي أن أولئك المنفذين (الجنود والمهندسون والاقتصاديون والإعلاميون والدبلوماسيون) وهم شرائح أساسية من المجتمع كانوا يعكسون بالتنفيذ الضعيف روح المقاومة السلبية التي تنطق هنا بتمنياتهم في فشل القرار السياسي، ولم يكن أمامهم لإفشال ذلك القرار إلا الذهاب إلى مخالفة سلبية يعكسها غياب روح الحماس والتعمد في إظهار العيوب والتنصل من كل ما كانوا يستشعرون أنه سيُسجل عليهم تاريخياً من مواقف، وكان الشعور العام في البلاد ينحو إلى حصر المسؤولية وهو ما يعبر عنه الشائع داخل المجتمع من أقوال ومفاهيم على غرار (إن على من يريد أن يكون بطلاً أن يذهب ليقاتل وحده لا أن يأخذ شعباً مسلوب الإرادة معه) (وإن الذين اتخذوا قرار الذهاب الكويت وحدهم دون إستشعار رأي الجمهور ينبغي أن يتحملوا لوحدهم أيضاً تبعات قراراتهم) (لقد تحمل الجيش والشعب فوق طاقتهما في حرب السنوات الثماني مع إيران وحان الوقت ليتحمل صانعو الحروب قسطهم من أثقالهـــــا ..) وغير ذلك من مفاهيم كانت ملتقى تشكّل الرأي العام الخائف والصامت داخل العراق، ولذلك لم يكن ليصدر عن المنفذين غير ذلك الأداء الذي اتسم بالسلبية والرفض، وكلما كانت إدعاءات العزم ومظاهر التبجح بالقوة تتواتر عبر أفواه صانعي القرار كان الجمهور (والمنفذون جزء منه) يتخندق في اللامبالاة وعدم الإكتراث ليظهر التناقض بين أدائه ومشاعره في جانب وبين صيحات المتجبرين الذي أيقظوا الحروب السابتة في غير موعدها وأستحلوا المغامرة والمقامرة على حســـاب الشعب ومن رصيـــده.

إنّ أمامنا شعباً مبدعاً،ينتمي إلى إرث عريق في البناء والتحضرّ، لذلك فإن وجود مبدعين في مختلف حقول المعرفة والعلوم التطبيقية هو نتاج الخبرات الجماعية المتراكمةللشعب منذ سبعة آلاف سنةونتاج حركة النهضة التي بدأت منذ مطلع القرن العشرين،ولا ينبغي احتسابه على حصة حكومة استمرت عقدين من زمنْ تسيدّته الصراعات والحروب.

(6)

ثمـة إشــكاليـة تتعلــق بالمصطلـــح..

فقد احتملت احداث الثاني من اب " اغسطس" 1990 أوصافاً شـتى عكست رؤىً سياسية مختلفة ، ففي الوقت الذي أطلق فيه الرئيس صدام وصف يوم (النداء) على ذلك الحدث في محاولة قصد منها أنه استجاب إلى نـداءْ مـا فأصدر أوامره إلى قوات الحرس الجمهوري لعبور خط الحدود وإكتساح الكويت ، وخيُـل للوهلة الأولى أنـه كان يعني بـ (النداء) الطلب المنسوب إلى إنقلاب وهمـي أُعـلن عن وقوعه في الكويت يوم الثاني من آب ، غير أنه عمل جاهداً على تصحيح ذلك المفهوم بتكرار القول إنه استجاب لنـــداء إلاهــي ولإرادة ربانيــة عندما خاض غمار تلك المغامرة المكلفة ، بينما كان وصف (الغزو) هو الأكثر إنتشاراً لتقريب صورة ما حدث ، غير أن (الغزو)كمصطلح كان يحتمل تفسيرين.. الأول هو التشبه بالغزوات التي عرفها التاريخ العربي والإسلامي وكانت مدخلاً لإتساع رقعـة الدولة العربية الإسلامية ولذلك فإن هذا المفهوم ينطوي على معنـىً رســـالي مسـتحب ، في حين ينطوي التفسير الآخر في المتداول من الأدب السياسي المعاصر على معنى

الإحتلال والضم بالقوة وهو وصف يُقصد منه نفي شرعية العمل نفسه كأسلوب في العلاقات بين الدول.

كما استخدم مصطلح (الإجتياح) لوصف الحدث بقصد تفسير درامية الوقائع من جهة والإشارة إلى الطابع التدميري للعملية من جهة أُخرى.

وكانت للحكومات مصطلحاتها كما للجمهور مصطلحاتة أيضاً، وبدت المسافة واسعة بين واحد وآخر..فالحدث حمل وصف (الوحدة) لدى طرف ووصف (العدوان) لدى طرف آخر..وما بين الوصفين كانت مفردات (الثورة، الغزو، الإكتساح ، الضم ، الازمة ،الإحتلال ، عودة الفرع إلى الأصل ، الإجتياح ، الكارثة ، الزلزال).

في الهزيمة ينتكس مصطلح ويتراجع ..لذلك فإنّ بين المصطلح المهزوم والمصطلح الدارج مسافةً كافية للبحث عن مفردات لا تفرض ولا ترغم وهو ما يستغرقني للعثور على مفردات تتيح للقاريء التمتع بحق الإستنتاج بكثير من الإسترخاء في مسألة يخلو البحث فيها من الهدوء والطمأنينة..وهي في كل الأحوال واقعة مُدانة ومرفوضة في مقدماتها وحيثياتها ونتائجها ..

(7)

لا يفوتني التوكيد مجدداً بأنّ معالجة الأخطاء والخطايا التي رافقت عملية الكويت سنة 1990 لا يمس بأي حال من الأحوال ثبات الحقوق العراقية في إتجاهيين : الأول حق الإطلال على البحر ..والثاني حق معالجة الإنحرافات في إقتسام التراب مع الكويت. وهما حقان يمكن تسويتهما بوسائل سلمية لا تلزم البلاد التورط في حرب خارجية من النوع والحجم الذي نشأ عن قرار الثاني من آب، وطالما أن هذا الكتاب لا يعالج مسائل الحقوق فقد أكتفي بهذا التوكيد لتثبيت حقوق عراقية راسخة ستظل يقظة لسنوات طويلة بعد أحداث 1990 كما كانت يقظة لقرن كامل من الزمان قبل ذلك التاريخ .. وسيبدو أي مساس بهذه الحقوق نمطاً من أنماط الإخضاع القسري لشروط الإذعان التي ترتبت عن الحرب بما فيها الترسيم المجحف للحدود وما نشأ عنه من إستلاب لحقوق عراقية جديدة وخاصة في ميناء (أم قصــر) والساحل البحري ومكامن النفط ومديات الحـــدود ..

..وفي هذا ليس لنا غير التعامل الشفاف مع عقل جمعي يخزّن مـرارة الغبن والعزلــة في العــراق..

إذ من السذاجة حقاً تجاهل خطورة هذا التخزين الذي يعتمل في العقل الجمعي العراقي، خاصةً عندما يتعلق الأمر بشعور متراكم بالغبن نشأ عن محاولات متعمدة للحط من شأن النوع العراقي كله على خلفية إجتياح الكويت في الثاني من آب 1990، حيث جرى تعميم في التعامل مع العراقيــين بقصد تحميلهم مسؤولية ما حدث وما يترتب عنه من نتائج ، ولم تفلح كثيراً المحاولات المضنية التي تُبذل للفرز بين الشعب والحاكم.. ولم نتردد من الإشارة دائماً إلى أن السلوك السياسي الذي تحكّم بإدارة الشؤون العامة في العراق في العقدين الأخيرين لم يكن ليعكس الخصائص الطبيعية في الشخصية العراقية ، و أن العراقيين أنفسهم قد عانوا من هذا الأداء السياسي وأستهجنوه ونظرت إليه نخبتهم الفكرية على أنه نقيض للقيم الإجتماعية الوسط التي تنأى عن العنف وترتضي التسامح وتبحث عن حلول وســط، لا بل إنّ نخبة العراق لم تـرب في ما فعله الحاكم غير نوع من إرغام المجتمع على تقفي سلوك المتريفيين الذين أرادوا أن يجلعوا من مزاج القرية المتخلفة المعزولة المرتابة التي خرجوا منها قانوناً يحدد شكل العلاقة بين العراق والعالم الخارجي في حين كان هناك حكام لدول أخرى يشجعون أولئك المتريفيين الذي استبدوا بالعراق في أوقات كان العراقيون يقاومون فيها الخلل في نظام القيم السائد والذي نجم عن سيطرة حفنة صغيرة من شريحة إجتماعية مرتابة بالشؤون العامة للبلاد .. فكيف يحق بعدئذٍ أن يُعاقب العراقيون من قبل هؤلاء الحكام أنفسهم على خلفية قرارات اتخذتها تلك الحفنة من الأشخاص .. حتى بدا أن هناك عملاً منظماً في جانب وعشوائياً في جانب آخر بقصد الحط من قيمة الشعب العراقي ومنزلته ، عدا عن تكريس شعوره بالغبن من جراء فرض رسم جديد للحدود أُنتزعت فيه أجزاء أُخرى من ترابه الوطني في ميناء أم قصر وضاقت به إطلالـــة العـــراق على البحـــر بنسبة الربع عما كانت عليه قبل الثاني من آب 1990.

لقد حدث مراراً أن شــجعنا بعض الشخصيات من الإتجاه القومي في الكويت على القيام بمبادرات خاصة نحو شعب العراق تنأى عن محاولات التمييز بين طوائف الشعب وأعراقه ، وتحتوي الأثار السلبية للإسـاءات التي صدرت ضد الشعب العراقي ..ففي حين كانت السلطات الكويتية تمنع تداول المسموعات العراقية من أشرطة الأغاني، سمحت برواج واسع لأغانْ تنال من كرامة المـرأة العراقية وشرفها وسمعتها ، و تعـالت من صحيفة كويتية صيحات تدمـير العراق حـجراً إثر حجـر ، وإنطوت بعض الأعمال المسرحية الكويتية التي عالجت أحداث الخليج على إهانة علنية للنوع العراقي ومحاولة تصغير شأنه، عندما جرى الخلط بين الحاكم والمحكوم في العـــــراق.

إننــــا إزاء علاقـــة ذات إشكالية معقدة، وسنحتاج إلى عمل مركّب وصبور لتبرئتها من هذه التراكمات التي تحفر عميقاً لدى متلقيها من العراقيين .. فالعراق جـــارٌ بـاقْ في موضعه وهو لن يجد خلاصه إلا في وحدتـــــــه كشعب وتراب، وبدلاً من التلويح لأجياله المقبلة بعقاب دفع التعويضات عما حدث، يتوجب الإعلان صراحةً بأن هذا الشعب براء من ديّن يلف عنقه منذ الآن، فلن يجرؤ سياسي في أي نظام سياسي مقبل في العراق على الرضوخ لهذا العقاب الجماعي المنتظر بعد عقاب الحصار بكل قسوته وإستهانته بالشعب العراقي ..

وإذا لم يبدأ عمل مبكر منذ الآن، يعوّض عن هذه الأخطاء ويصححها فإنّ مسألة الكويت قد تصبح عنواناً لقضيــة وطنيــة عراقيــة ستتبارى بعض الأحزاب والقوى الإجتماعية والفكرية على إظهار إهتمامها بها في العقود المقبلة عندما لا يجد السياسيون مرة أخرى، موضوعاً شاغلاً، أكثر تفجيراً للمخزون من مشاعر الغبن وسلب الحق ، غير العلاقة مع الكويت .. إذْ لن يعود هناك إهتمام بدور عراقي في صراع عربي إسرائيلي كما كان الأمر في العقود الخمسة الماضية، ولن تكون الخلافات مع إيران سبباً لحرب جديدة ،كما لا يبدو أن هناك صدامات مقبلة مع تركيا .. وآنذاك فإنّ العلاقة مع الكويت ستبدو أكثر شأن محفّز للعمل ..

أفيتحدثون بعدئذْ عن بــحر من الــدم لا يستطيعون عبوره مع شعب العـــراق .. وبحر آخر من الكراهية يحجز بينهم وبين شعوب ودول عدّوها أعداء إلى الأبد .. ؟ إن بحر الدم لم يكن بين شعب العراق وغيره، لكنه كان بين حُكام تحالفوا يوماً ثم انقلبوا على بعضهم البعض في يوم آخر .. ولذلك فإنّ من يريد جعل هذه الكراهية سداً مانعاً أمام شعب العراق يكرس العزلة على نفسه ويرتضي دفع إستحقاقات كبيرة أمام شعب يختزن المرارة من حكم يستبد به ويقامر بمصالحه وجـــار يستهين به ويحاول الحط من شأنه ..

إنّ من الصعب التفريق بين (أشرار) و (طيـبين) في الحيز المتاح من تاريخ الصراع على المنطقة ، بل من السذاجة الذهاب إلى مثل هذا المنحى من التمييز، فقد برهنت أحداث أزمة الخليج ثم ما أعقبها من سياسات الإنتقام أن من المستحيل العثور على مثال صالح يرد على المثال الخاطئ، فقد تقاسم المتخاصمون العيوب، في حين كان كل منهم يتظاهر بأنه الأفضل في حمل مواصفات البديل الصالح .. وإزاء وضع مُضبّب من هذا النوع، لن تكون محاولتنا توثيق ما حدث سبباً للمجاهرة ببراءة أحد عن طريق تجريم طرف واحد بعينه .. فقط.

أما الأمر الآخر الذي لا يفوتني التنبيه إليه فهو يتعلق بمستقبل خيارات الشعب العراقي، إذْ أنّ روح المقاومة للحكم الذي ورط البلاد في سلسلة الكوراث التي حلّت بها، لا تلغي نـمو نزعة مقاومة إذلال هذا الشعب وقواه الإجتماعية والفكرية من جانب الذين انتظروا طويلاً حدوث خلل في تاريخ العراق للإنتقام منه وتصفية ثأرات عالقة على حساب وحدته الدستورية أو دوره الحضاري والثقافي أو حقه في النمو الإقتصادي، وقد تتمخض معاناة شــعب معاقـــب بالهوية عن تيارات أكثر حدةً وإلتمـاعــاً في المستقبل تتكرس فيه المشاعر المغلقة التي تنشأ تحت وطأة العـــزل والإحساس بالغبن والـرغبة في رده.

ولا بد، في هذه الحالة ، من التفريق بين شعب أبـيّ وحكم مهزوم قامر بمصير هذا الشعب وفرط بمصالحه العلُيــا .. وعندما لا يحصل هذا التفريق .. فإنّ يوماً دامياً آخر قد يتكرر في التاريخ على خلفية آثارشروط الإذعان وإقتطاع أجزاء من التراب الوطني العراقي وحرمان العراقيين من حقهم في الإطلال على البحـــر ومحاولة النيل من النوع العراقي على الهويـــة ..

ويحق لشعب العـــراق أن ينتظر من يعتذر منه لا من يشـمتُ به ويحـط من قدره حتى لا يأتي يـــوم أسود آخـر يغزو فيه الفقـــراء والمعوزون والمحاصـــرون مدائن الصحــــراء ويصنعون من حُلي نســائها تعـــويذات لطرد الأرواح الشـــريرة .. يـوم دامْ آخـر لا يتردد

فيه أحد عن الالتحاق بموكب العـــودة لغزو الكويت ثانيــةً ..

(8)

إنّ لدى الرئيس صدام حسين شعوراً عميقاً بأنه أكثر إقداماً وأشد عزماً من الآخرين، وأن التمسك بهذا العنصر، أو حتى الإيحاء به في حالة غياب العزم أو ضعفه، هو أمر كافٍ بنتائجه لإرغام منافسه على التراجع أمامه .. فهو يفضل إشاعة هذا الانطباع عنه لدى خصومه .. ومن كان في موضع الحليف أيضاً .. سواء كان هناك عزم حقيقي أم لم يكن .. وقد نجحت هذه الفرضية مرات كثيرة في الصراع داخل العراق، ضد الخصوم السياسيين من أعضاء حزب البعث وأعضاء الحركات السياسية الأخرى، ولطالما فاجأ الآخرين بأنّ رده على أية محاولة منهم لإظهار (الإقدام) ضده ستُقابل بعشرة أضعافها من القوة، وكان هناك لجوء غير مقيد إلى القسوة بدا دائماً خارج المألوف من القيم الإجتماعية السائدة، فإذا حدث أن شخصاً تحداه، بقولٍ نُسب إليه، أو عمل سري كان يستهدف مكانة الرئيس ودوره السياسي، جاء رد الفعل نحو ذلك الفرد عارماً، لا يكفي أن يُقتل، فقد تقطع جثته ويُمثل بها، وتنمحي داره عن وجه الأرض، بعد أن يُقتل أولاده أمام نواظره، ثم يسمح بتمرير رواية ما حدث إلى الجمهور لخلق رادع نفسي عام يذكّر بأنّ هذا المصير سيواجه أي شخص يكون في مثل حالته، وهو أمر خلق رعباً جماعياً، وأحال مشاعر الإحترام من جهة والمحبة من جهة أخرى إلى مشاعر خوف جماعية .. مادام الضحايا يُغيّبـون في لحظة ثم ينتهون إلى مثل تلك المصائر دون أن تعرُف الأسباب الحقيقة لهما حدث، ولطالما واجه ضباط في الحرب العراقية الإيرانية عقوبات الإعدام وطُردت عوائلهم من منازلها وصودرت أموالهم، ثم لم يلبث أن صدر قرار رئاسي يقضي (برد الإعتبار إلى الضحـــايا) وكأنهم تعرضوا لكل تلك العقوبات قبل أن يجري التحقق من الـتُهم المنســـوبة إليهم.

وكــان تعليــق الدكتور علي الوردي، أكبر علماء الإجتماع في العراق، مثيراً حقاً، فقد كنتُ أمازحه أحياناً وأسأله عن سبب خوفه وتردده في إظهار آرائــه السياسة بعد أن كان قد تجاوز الثمانين من العمر فأراه يجيبني : كيف لا أخاف من أشخاص خائفين .. إن ما يجعلك تشعر بالإطمئنان هي حالة واحدة، لا يكون فيها الذين يقررون مصيرك في حالة شعور بالضعف والخوف .. أما إذا كانوا تحت وطأة هذا الشعور فإنّ قسوتهم في الرد عليك هي أكبر من أن تكون موضوع قياس أو تحديد.

فعلى الرغم من كل مظاهر التفوق على الخصم بعد إنتهاء الحرب مع إيران سنة 1988، كانت هناك تراكمات تكرّس الشعور بالضعف والخوف، ثم لا تجد سبيلها في التعبير عن نفسها في غير القسوة وإظهار (العزم)، فخلال سنتين تلتا وقف إطلاق النار مع إيران وسبقتا دخول الكويت جرى إعدام عشرات من العسكريين (الذين كانوا قد مُنحوا في الحرب مع إيران طواقم من أعلى أوسمة البطولة) بتهمة الإنضواء في مستويات أولية من التنظيم السري ضد الحكم، وكانت كلمات التذمر أو الملاحظات التي يبديها أشخاص في حالة الغضب، أو النقد الذي يُوجه لقرارات أو مواقف، كافيةً لتلبس (تهمة العمل على قلب نظام الحكم) شخصاً بعينه ثم مجموعة من الأشخاص كانوا أصدقاءه أو أقرباءه لأنهم إستمعوا إلى بعض آرائه أو أن أحدهم ضحك يوم أصغى إلى كلمات ساخرة ضد الحكم صدرت عن جليس عابر ..

كما أن الشعور بالضعف وما يتولد عنه من خوف كان شعوراً مركباً، إذْ عدا عن التحفظ التلقائي على طموحات العسكريين والحذر منهم بعد أنْ عادوا من الحرب مع إيران، بدا أن هناك مشكلات إقتصادية جدية تحتاج إلى خطط بعيدة المدى لإستيعابها، فقد خلّفت تلك الحرب ديوناً فعلية أخرى دفترية وباتت الحاجة إلى إشعار الجمهور بثمرة الخروج من الحرب طاغية على الجميع، إذْ ما معنى أن تنتهي تلك الحرب ثم تتناقص القدرة الشرائية للفرد، ولا يكون هناك سلام إجتماعي ؟ .. الجريمة بدأت بالإزدياد، وحالات البطالة عن العمل إزدادت على نحو غير مسبوق، وبقي ربع مليون جندي على الأقل في حالة معلقة، بين الإستمرار في أداء خدمة الإحتياط في الجيش أو العودة إلى مجتمع مدني لم يكن يروي ظمأهم إلى ما كانوا ينتظرونه من عيش مستقر إقتصادياً وإجتماعياً .. فهل تبقى هذه الزيادة في عدد الجنود حملاً على الجيش أم تتحول إلى عبء على المجتمع ؟ وإزاء غياب تخطيط إقتصادي هادئ، يتحرر من السيطرة البغيضة للدولة على النشاط الإقتصادي، كان

الشعور بالخطر يتكرس بما صار يُعرف بوجود مؤامرة إقتصادية خارجيـة .. مع أنّ الأمر في حقيقته هو غير ذلك، فالتنافس بين الدول المنتجة للنفط لم يكن وليد سنة 1990، وإستهداف كل دولة لأخرى أو مجموعة دول لمجموعة دول أخرى، كان قد شكل ما عُرِف بسياسة الإستقطاب داخل منظمة الأوبك، وكان الطبيعي أن يتأقلم العراق مع حالة الشدّ والإستفزاز التي كانت الكويت طرفـــاً رئيساً فيها، لا بل إنّ سياسة موثوقة ودبلوماسية ذكية وتخطيطياً إقتصادياً صبوراً لا يبحث عن نتائج باهرة وسريعة، كانت سترغم الموقف الكويتي السالب على التحول من عنصر إختلاف إلى عنصر تعاون مع العــراق .. كان ذلك ممكناً في حالة واحدة : هي أن لا تُنقل السياسات السائدة في الداخل عند التعامل مع المواطن المحلي ومع الخصوم السياسيين، لتكون قاعدة في التعامل مع الآخرين في الخارج عند معالجة حالات الإختناق والشد والضغط والضغط المقابل ..

لذلك فإن إظهار (سياسة العزم) كانت مطروحة للإيحاء والضغط على الكويت في الفترة ما بين السادس والعشرين من حزيران "يونيو" 1990 إلى يوم السادس عشر من تموز "يوليو" 1990، فقد شعر الرئيس صدام، عندئذٍ، أن إظهار العزم وحده لم يكن ليغير مواقف الكويت في المجال الإقتصادي، مع ما رافق تلك اللحظة من شحنات التخويف التي حملتها (معلومات عن ضربة إسرائيلية محتملة على غرار الهجوم الجوي على مفاعل تموز النووي سنة 1981 أكدها سفراء عراقيون كانوا على إتصال مع بعض أجهزة المخابرات الغربية ..)

إن إحدى لحظات الشعور العميق بالخوف ستتمخض عن قرار تحريك الجيش إلى معركة غير منتظرة لدخول الكويت ووضع العالم أمام متغير معقد ، ولعله أراد في جانب من دوافع القرار معاقبة الذين امتنعوا عن إظهار فروض الطاعة ولم يعترفوا للرئيس بدوره من حكومات دول أخرى، تماماً كما حدث آلاف المرات مع الضحايا من مواطني العراق ومثقفيه وسياسييه ونخبته الطامحة الذين اعتقد الرئيس أنهم لم يعترفوا بالمطلق لدوره ومكانته ..

وكـــــان إحتساب رد الفعل بعد دخول الكويت قائماً هو الآخر على إفتراض (أن الصدمـــــة ستمنع الآخرين من التورط في الصراع خشية وقوع مفاجآت ربما ستكون أكبر من إحتلال الكويت نفسها) بمعنى الإيحاء بأنّ ما حدث في الساعات الإثنتى عشرة الأُول من يوم الثاني من آب "أغسطس" 1990 هو مجرد بداية، وأن هناك امكانات غير منظورة قادرة على القيام بما هو أكبر من ذلك، غير أن حقيقة الأمر كانت مختلفة تماماً عن ذلك الإيحاء بالقوة، فما حدث، يومئذٍ، كان من نمط الأعمال القصوى، وكان تطوير ذلك العمل (بالإعتماد على إستجابة الجمهور داخل العراق وعلى العوامل السياسية المتاحة في الوضع الإقليمي والدولي وعلى القدرات الحقيقية للجيش) ضرباً من الإيهام .. فقد جرى بعد الثاني من آب تجميع قوات الإحتياط المنهكة التي لم تكن قد تمتعت ببضعة أشهر من الراحة بعد إنتهاء الحرب مع إيران، وهي قوات مثخنة بجراحات تلك الحرب، تجاوز معظم عناصرها الثلاثين من العمر، وكانوا قد ودعوا العسكرية على أمل أن لا يعودوا إليها ثانية، أما برامج التسلح التي تعتمد على التجميع في الداخل، فكانت مرتبطة بما سيرد من قطع غيار ومعدات من خارج البلاد، هو أمر بات معلقاً بعد فرض الحظر الدولي على التعامل مع العراق، حتى من أقرب حلفائه يومئذٍ الإتحاد السوفيتي السابق .. أما الوضع المعنوي للشعب فقد تحدر دفعة واحدة إلى أدنى مستوياته بسبب الخشية من عواقب القرار الكارثي في دخول الكويت .. ومع ذلك كان هناك تشبث بالإيحاء بأن ثمة (قوة كامنة) لم تظهر بعد، وأن ما خرج إلى العلن هو الظاهر من جزء أكبر ما زال غاطساً.

وأظن أن على الكثير من السياسيين والمثقفين والمحللين أن يعترفوا بأنهم كانوا ضحية ذلك الإيحاء وكانوا في إنتظار خروج (قوة كامنة) لم يتردد الرئيس صدام من الإشارة إليها سراً في لقاءاته مع الزعامات السياسة العربية وعلانية أمام الجمهور المحلي والعربي.

وأذكر أن الرئيس صدام كان يردد في لحظات النشوة بُعيد إنتهاء الحرب مع إيران : المهم أن يفهم الجميع أننا أقوى منهم ... ولا يهم أن نكون أقوى مادياً وفعلياً .. المهم هو إشعارهم بأننا الأقوى ..

وأيام كانت المجلات الغربية تتحدث عن القسوة في العراق، وتصف الرئيس بأنه (قصـــاب بغـــداد) لم يجد كبار منظرّي الدبلوماسية والإعلام من طراز السيد طارق عزيز غير القول : بأن صـــورةً من هذا النوع لا تفزعنا .. المفزع هو أن يتكون إنطباع في العالم بأننا نظام ضعيف

.. لتكن لنا صورة نظام قاسٍ لا يرحم .. فهذا أفضل من صورة نظام ضعيف لا يتهيب منه الآخـــرون.

• • •

.. وأستمر الإيهام على نحو آخر مختلف ..

كانت المشكلة التالية في مراحل التعامل مع قرارات مجلس الأمن (بدءً بقرار فرض شروط الإذعان 678 الذي صدر في نيسان "إبريل" 1991) هو إيهام الآخرين بأن صاحب القرار في بغداد ما يزال هو الأكثر عزماً وهو الأقوى دائماً، وقد تحول ذلك إلى إيهام للذات، ثم فُرض لإيهام الجمهور المحلي .. فالهزيمة باتت نصراً .. والوطن المرشح للتقسيم صار هو البلد الأكثر تماسكاً من أي آخر سواء .. والقيادة المعزولة عن جمهورها أضحت السلطة الأكثر صلة بشعبها .. والإمتثال للقرارات التي تثلم السيادة الوطنية أمسى عملاً وطنياً بارعاً .. إن ما كنا نراه من شعارات تبشر بالعدل والرفاهية، ومظاهر توحي بالقـــوة هو مجرد قشـــــرة ملونـــة تخفي في داخلها حشوة صغيرة وهزيلة .. ولا تكاد تمس سطح هذه القشرة حتى تندلق منها كتلة مفتتة من رمـــاد وتـــراب ..

وهكذا .. لم تعد ترى من يعترف بأن الهزيمة قد حدثت مع أن كل حي وساكن في العراق كان يئن من نتائجها المذلة .. عدا أفراد قلة كانوا ما يزالون يصنعون السياسة بالإيهام والإيحاء وأفتراض أن (العزم) هو في القسوة وعدم إحترام إرادة الآخرين تاركين الجمهور يجثو على ركابه في تعلق يائس بلقمة أو إشارة تعده بيوم آمن .. وهو يوم كان يبتعد إلى المستقبل المجهول الذي تمضي إليه سفينة حُمِّلت بشعب كامل من الرهائن .. فإما أن يغرق هذا الشعب مع قبطان السفينة .. أو أن يتحررا معاً.

• • •

إننا أمام حرب ســـــابتة جرى إيقاظها في غير زمانها وغير مكانها، ربما تكون قد تأخرت ربع قرن، أو تقدمت ربع قرن من الزمان، لكنها في كل الأحوال، كانت حرباً ممنوعة ارتمى فيها اليائسون من السلام .. إنهم أولئك الذي تحول فشلهم في إدارة الحياة العامة في ظل السلام إلى دافع لإبتداع حـــربٍ غير مسبوقة في مكانها وتوقيتها وأسلوبها .. وهي حربٌ أفسدت المقامرة فيها شـــفافية الإحســـاس بالحريـــة والأمـن .. والجمـــال، وعادت بالشعوب إلى قرون القطيع.

حـــربٌ لم يؤمن الجنود بجدوى خوضـــها .. ولم يفهم الجنرالات أســـــباب وقوعها .. بعد أن فاتهم معرفة موعــدها ..

القســـم الأول

عشـــــية الواقـعــة

الدبلوماسية ليست مجرد كلام..إنها أفعال تقع على الأرض في المسافة ما بين أقدام الجنود ونيران المدافع، وإذا انقطعت الصلة في ميدان الصراع بين الكلمات وحركة الجنود، لا يعود ما يحدث دبلوماسية .. بل مكائد وأفخاخ وإضاعة للوقت...

ثمة مشهد قديم يتكرر مرة أخرى، لكن أشياء كثيرة اختلفت في الظروف المحيطة بالمشهدين ..

الأول : لقاء جرى يوم 16 نيسان "إبريل" 1988 في أحد منازل الرئيس صدام ضمه وصهره ومدير الإستخبارات ورئيس الأركان وقائد الحرس الجمهوري لوضع خطة عسكرية تهدف إلى استعادة شبه جزيرة الفاو جنوب العراق بعد إحتلال إيراني استمر سنتين ..

الثاني : لقاء جرى منتصف تموز "يوليو" 1990 في منزل آخر للرئيس نفسه وضم إلى جانبه صهره حسين كامل وقائد الحرس الجمهوري إياد فتيح الراوي لوضع خطة عسكرية مركبة تهدف إلى إحتلال الكويت، أو جزء منها، أو التوسع إلى ما هو أبعد من ذلك، وانضم إليه علي حسن المجيد إبن عم الرئيس ووزير الحكم المحلي يومئذْ.

أكثر من سنتين تفصل بين هذين المشهدين تمخض عن كل منهما تحولّ حاسم في الوضع السياسي والعسكري للبلاد، وقد يكون خطر في بال الرئيس صدام أنه سيجني من اللقاء الثاني نتائج مماثلة لتلك التي حصل عليها من اللقاء الأول، لكن لا لقاء يشبه الآخر إلا في وجود الرئيس وبعض الأشخاص الذين حضروا اللقاءين. كانت الحاضنة النفسية والسياسية التي ولد فيها قرار إستعادة شبه جزيرة (الفاو) من أيدي الإيرانيين نقيضةً في كل تفاصيلها لتلك التي ولد فيها قرار اجتياح الكويت واحتلالها. في (الفاو) كان هناك تأييد شعبي مطلق لإستعادة أرض وطنية وطرد الغرباء الذي مكثوا فيها سنتين من الزمن وتحمل العراق أكثر من خمسين ألف ضحية للدفاع عنها ثم استعادتها، كما كان هناك تأييد خارجي شبه مطلق يتقدمه تأييد خليجي انطوى على تعبيرات سياسة وعسكرية وإعلامية وإقتصادية، أما احتلال الكويت فلم يكن موضوعاً مستقطباً لتأييد شعبي وكان يعني اجتياحاً لأرض الغير، وقد قوبل بالرفض والإدانة في العالم، وإذا كانت القوات العراقية قد تحركت في إتجاه الفاو لتشتبك مع قوات إيرانية تحتل أرضاً وطنية فإن الأمر في حالة الكويت كان ابتداعاً لمعركة غير مسبوقة أُرغم فيها الجندي العراقي على الإشتباك في قتالْ كان محرماً في عقله، ألا وهو القتال في مواجهة عربي آخر .. ولتعميق المقارنة بين الطريقة التي أُديرت بها علميات تحرير مدينة الفاو من الإحتلال الإيراني في نيسان "إبريل" 1988 والطريقة التي أُديرت بها عملية دخول الكويت في آب "أغسطس" 1990 ينبغي معاينة أسماء المخططين والمنفذين في كلْ من العمليتين.

ففي عملية الفاو إطلع على ساعة الصفر المساعدون المباشرون لرئيس الجمهورية بمن فيهم رئيس الأركان ومعاونه ورئيس الإستخبارات العسكرية رئيس هيئة التصنيع العسكري وقائد الطيران.

واشترك في قيادة العمليات أكثر من ثلاثين عسكرياً أُحيطوا علماً بتفاصيل الخطة قبل أربع وعشرين ساعة على الأقل من ساعة التنفيذ، وطبقاً للائحةْ رسمية فإن أثنين وثلاثين شخصاً يتقدمهم وزير الدفاع الأسبق الفريق أول الركن عدنان خيرالله و رئيس الاركان الفريق أول الركن نزار الخزرجي تعاونوا على تنفيذ الخطة، ولم يكن بينهم من أقارب الرئيس عدا وزير الدفاع نفسه وولداه عدي وقصي، أما الآخرون فكانوا سبعة من الضباط المتحدرين من مدينة الموصل وإثنان من مدينة ديالى وإثنان من مدينة عانة وإثنان من بغداد وواحد من كلْ من راوه والدور وكركوك والبصرة والعمارة، بمعنى أنّ دائرة الأشخاص الذين اطلعوا على الخطة وعرفوا مسؤولياتهم في تنفيذها لم يكونوا من الدائرة العائلية المغلقة حول الرئيس وحسب ،كما لم يكونوا من بلدته فقط ، بل اشترك فيها قادة عسكريون محترفون يعكسون عدداً من ألوان الطيف الجغرافي والإجتماعي في العراق×.

× بعض المشاركين في عملية الفاو :1–الفريق أول الركن عدنان خيرالله وزير الدفاع 2–الفريق أول الركن نزار الخزرجي رئيس أركان الجيش 3–الفريق أول الركن حسين رشيد معاون راج للعمليات 4–الفريق أول الركن إيـــاد فتيح الراوي قائد الحرس الجمهوري 5–الفريق أول الطيار حميد شعبان قائد القوة الجوية 6–اللواء الركن إبراهيم عبدالستار قائد قوات حمو رابي 7–اللواء الركن عبدالواحد شنان آل رباط قائد قوات بغداد 8–اللواء الركن علاء الدين كاظم حماد الجنابي أمين السر العام ق ع ق م 9–اللواء الركن عبدالستار أحمد المعيني معاون راج للإدارة 10–الفريق الركن ماهر عبدالرشيد قائد فل 7 11– الفريق الركن ضياء الدين جمال معاون راج للميرة 12–الفريق الركن يونس محمد الذرب مدير التخطيط 13– الفريق الركن صابر الدوري مدير الإستخبارات العسكرية العامة 14–الفريق الركن صلاح عبود محمود رديف قائد الفيلق السابع 15–الفريق الطيار الركن الحكم حسن علي مدير طيران الجيش 16–الفريق الركن أحمد إبراهيم حماش قائد قوات المدينة المنورة 17–الفريق الركن نجم الدين عبدالله محمد مدير الحركات العسكرية آنذاك 18–الفريق الركن يالجين عمر عادل رديف قائد ق ح ج 19–الفريق الركن محمود فيزي الهزاع رديف قائد فق 1 20–اللواء الركن كافي فليح حسن العاني أمين سر فرع ذي قار العسكري 21–اللواء الركن نوفل إسماعيل خضير قائد فق مع /6 22–اللواء الركن وعدالله مصطفى حنوش قائد القوات الخاصة 23–اللواء الركن لطيـف محل حمود أمين سر شعبة الحرس الجمهوري 24–اللواء الركن غائب حسون غائب قائد القوة البحرية 25–اللواء الركن أزهر سعدالله خليل قائد قوات نبوخذ نصر 26–عبدالجبار محسن مدير التوجيه السياسي 27–حسين كامل رئيس التصنيع العسكري. إضافة إلى ولدي الرئيس وأربعة من مرافقيه ..

أما في عملية الكويت فإنّ الأشخاص الذي اطلعوا على الخطة للمرة الأولى كانوا ثلاثةً فقط إثنان منهم من الدائرة العائلية المحيطة بالرئيس وهما ابن عمه علي حسن المجيد وصهره حسين كامل وكلاهما غير مؤهلين في الإحتراف العسكري ولم تزد رتبتهما العسكرية – قبل صعودهما المفاجئ إلى أعلى المواقع – عن درجة رقيب ونائب ضابط وحسب، أما الشخص الثالث فكان وجوده في الخطة إضطرارياً كونه يشغل منصب رئيس الحرس الجمهوري وهو الفريق أول الركن إياد فتيح الراوي، وعندما اتسعت دائرة الأشخاص المطلعين على الخطة عشية تنفيذها انضم بعض الأقارب إلى تلك الدائرة، ولم يكن في صورة ما سيحدث كلّ من وزير الدفاع ورئيس الأركان وقائد طيران الجيش وجميع القادة الميدانيين، وهو أمرّ أدى تلقائياً إلى نشوء حاجزْ عازل بين العملية والأشخاص الذين طُلب إليهم في الساعات الأُول تولي مهمات تنفيذها، وهو حاجزّ نفسي وأخلاقي جعلهم يشعرون بعدم الإنتماء إلى العملية ومنعهم من الإقتناع بأهدافها، وهو ما أنشأ سلسلةً من المواقف المضطربة التي لم تنته حتى إنتهاء العمليات العسكرية في السادس والعشرين من شهر شباط "فبراير" 1991 عندما انسحبت القوات العراقية من الكويت بطريقة غير منظمة وتحملت آلاف الضحايا في الساعات الثماني والأربعين الأخيرة فقط ..

●●●

وقد يكون واضعو خطة دخول الكويت تنبهوا مبكراً إلى إستحالة تمرير العملية دون إبتكار غطاء سياسي مثل الإعلان عن إنقلاب داخل الكويت إستنجد بقوات عراقية لمساندته، وقد أوحى كلّ من طارق عزيز ولطيف نصيف من جهة ومدير جهاز المخابرات من جهة أخرى أن هناك قوى محلية في الكويت مستعدة للتعاون مع الحكومة في بغداد لإنجاح سيناريو إعلان الإنقلاب، وربما يكون الثلاثة قد اعتمدوا على عواطف بعض مُلاّك الصحف والصحفيين الكويتيين وعلى إحتمال تعاون بعض أعضاء البرلمان الكويتي لسنة 1985 وعلى إعتقادهم بحتمية تعاون ما تبقى من خلايا في تنظيمات حزب البعث فرع الكويـت.

هذه الفكرة ليست جديدة، فقد كانت النمط المفضل لدولْ إفريقية حاربت بعضها البعض في السبعينات، كما خاض الرئيس صدام حسين نفسه في تجربةْ مماثلة عندما أعطى أوامره للجيش العراقي للإندفاع بإتجاه مدينتي (كرند) و (كرمنشاه) الإيرانيتين منتصف 1988 حيث فتحت القوات العراقية الطريق أمام منظمة مجاهدي خلق الإيرانية المعارضة لتصل إلى حافات المدينتين على أمل أن تتخذ منهما قاعدة لإسقاط الحكم في إيران بعد أن جرى الإتصال بعدد من الطيارين الإيرانيين لمهاجمة مقرات القيادة الإيرانية في طهران، يومها أدرك الإيرانيون أبعاد تلك الخطة فحولّوا كل قدراتهم العسكرية إلى جبهة(كرند) – (كرمنشاه)واستحال عندئذْ نجاح تلك الخطة .. فتراجع (مجاهدو خلق) وانسحبت القوات العراقية.

لكن لا حــدث يشـــبه الآخـــر ..

فقد نفذت خطة (كرمنشاه) قواتّ إيرانية معارضة وبعد ثماني سنوات مستمرة من الإشتباك بين الجيشين العراقي والإيراني في حربْ كانت تبرر اللجوء إلى كل الوسائل المتاحة لقصم ظهر الخصم، أما في حالة الكويت فلم تكن هناك حرب قائمة ولم تكن هناك قوات كويتية معارضة .. لا بل لم تكن هناك جبهة سياسية معارضة تطرح في برنامجها مشروع الإنقلاب.

لذلك لم يكن ثمة رحمّ يلد منه إنقلاب الكويت المنتظر ..

●●●

ثمة مشهد آخر يعود إلى عشر سنوات مضت لكنه يخلو من وجود شخصيات مشابهة لتلك التي شاركت في الإعداد لعمليتي (الفاو) و (الكويت).

فقد حدد الرئيس صدام حسين مستقبل المواجهة العسكرية مع إيران خلال إحدى خلواته على ضفاف بحيرة الثرثار بعد أن دخل عليه ضابط من الإستخبارات العسكرية يحمل عرضاً بالقدرات الحربية لكل من العراق وإيران وتركيا، إلى جانب سجل بالتحرشات الإيرانية على الحدود، وانتهى ذلك التقرير إلى أن هناك عدواً محتملاً هو تركيا وآخر قائماً هو إيران، ولم يعد الرئيس لإستشارة الجنرالات أو السياسيين لمساعدته

على إلتقاط أفضل الخيارات المتاحة أمام العراق في مواجهة التحدي الإيراني، فقد كان حوله بضعة حراس غير متعلمين وسـلـةّ مـلآى بما اصطاده من أسماك البحيرة عندما قرر لوحده إرتضاء المواجهة العسكرية بدلاً من إحتواء الخطر الإيراني عبر الجهد الدبلوماسي والسياسي والأمني وحسب ..

في تلك المرة، لم يكن الأقارب قد بلغوا من العمر ما يجعلهم على مقربة من الرئيس في إتخاذ ذلك القرار .. ولم يكن هناك أبناء متنفذون ولا أصهار طامحون كما بات الحال في مشهدي الإعداد لإستعادة (الفاو) والذهاب إلى (الكويت) ..

من تبقى من أشخاص ذينك المشـــهدين الحاسمين في تاريخ العـــــــــراق .. ؟

.. ثلاثة أشخاص شاركوا في الإجتماعين كان الرئيس صدام حسين يردد دائماً : (إنه يتفاءل بوجودهم ..) .. وهم حسين كامل الذي انشق عن العائلة ولجأ إلى الأردن في آب "أغسطس" 1995، ثم أُستدرج للعودة بعد إعلان العفو الرئاسي عنه ليُقتل مع معظم أفراد عائلته في شباط "فبراير" 1996، وإياد فتيح الراوي الذي عُزل من منصب رئيس الأركان ولزم داره مطلع 1995 حتى عُين محافظاً للتأميم سنة 1996، وصابر الدوري الذي طُرد من منصب مدير المخابرات بعد خلاف بين مجموعتي (الدوريين) و (التكارتة) مطلع سنة 1994 ثم عُين محافظاً لكربلاء سنة 1996.

●●●

كان التفكير في إحتلال الكويت سبباً في إستعادة على حسن المجيد بعض الحظوة التي افتقدها يومئذٍ بعد أن غضب عليه الرئيس أثر افتضاح قضايا مالية كان ابن شقيقته وعديله المتزوج من إبنة الرئيس السابق أحمد حسن البكر ويُدعى (ثائر عبدالقادر سليمان×) متورطاً فيها، مما حدا بالرئيس إلى طرد (ثائر) من عمله في طواقم الحماية الرئاسية وإيداعه السجن وعرض شريط تلفزيوني يصوّره كنصّاب (يستغل علاقته) مع كبار المسؤولين، يومها أُتهم علي حسن بأنه كان يستخدم ابن شقيقته(وعديله)كغطاء لعملياته المالية دون إذن مسبق من الرئيس، وبحلول شهر حزيران "يونيو" 1990 بات مرشحاً للخروج من وزارة الحكم المحلي، لكن صدام تذكره كواحد من أشخاص قلة يمكن أن يأتمنهم على قرار دخول الكويت فأستدعاه يوم السادس عشر من تموز "يوليو" 1990 لينضم إلى ذلك اللقاء المحدود الذي جرى فيه لأول مرة في تاريخ العراق رسم خطتين عسكريتين، إحداهما سمُيت (الخطة أ) والثانية (الخطة ب) لتحديد حجم العمل العسكري الهادف إلى إحتلال الكويت أو جزء منها.

وتقضي الخطة (أ) بالسيطرة على جزيرتي (وربة) و (بوبيان) والشريط الحدودي بعمق 30 – 50 كيلومتراً كحد أقصى، أما الخطة (ب) فتقضي بالإندفاع لإحتلال كامل الأراضي والجزر الكويتية. وظلت (الخطة أ) هي المرجحة حتى يوم 1990/7/29 عندما وردت تقارير جهازي المخابرات والإستخبارات العسكرية من داخل الكويت واتفقت على (عدم وجود إستعداد للمواجهة العسكرية) وعلى (أن الولايات المتحدة لا تملك قوات كافية قرب الكويت تستطيع إجهاض عملية واسعة لإحتلالها كاملة.)

ولذلك تحول القرار لإختيار الخطة (ب) يوم 1990/7/29.

إن بين التاسع والعشرين من تموز والثاني من آب ساعات حاسمة كانت تجري فيها وقائع، سيبدو من المفجع أن أحداًلم يرها أو يتحسسها، إذْ أنها مقدمات العمل العسكري الواسع لإكتساح الكويت .. وبعبارات أخرى، كان ما يجري هو إعداد لمشهد تفجير الصراع العسكري على الخليج .. ؟

لقد اتسعت آنذاك دائرة الأشخاص الذي أطلعوا علي القرار الذي كان قد أُتخذ منذ إثنى عشر يوماً : إحتلال الكويت .. حيث تبلّغ سبعاوي إبراهيم مدير المخابرات والأخ غير الشقيق للرئيس بذلك القرار بعد يومين من إتخاذه وكان عليه أن ينفذ جانباً من عملية عسكرية وأمنية واسعة النطاق كان أبرز ما فيها تسريب 31 عنصراً من رجال المخابرات (سبق لمعظمهم أن عمل في الكويت من قبل) إلى داخل المدينة حيث استخدموا جوازات سفر عادية وأخرى من جنسيات عربية وتوزعوا على دور للسكن في منطقة (سلوى) وفي منازل المهندسين في

(الأحمدي) كما أقاموا في منازل بعض الدبلوماسيين، وكانت مهمتهم غير واضحة .. فقد طُلب إليهم أن يكونوا مستعدين لعمليات إختطاف واغتيال، وكذلك كان الأمر بالنسبة لصابر الدوري مدير الإستخبارات العسكرية الذي علم بالقرار في اليوم الأول لإتخاذه وكانت عليه مهمات مبكرة سبقت الأجهزة الأمنية الأخرى ،ومن بين المهمات التي تولاها البحث عن نقطة داخل الأراضي الكويتية لتنصب فيها مرسلات إذاعية يتم استخدامها لبث بيانات الإنقلاب المفترض، كما بات وزير الإعلام لطيف نصيف ونائب رئيس الوزراء سعدون حمادي ووزير الخارجية طارق عزيز في صورة الموقف وعلموا أن هناك عملية عسكرية كبيرة في إتجاه الكويت، أما حجمها ومداها فلم يكن موجوداً لديهم كما كان لدى علي حسن المجيد وحسين كامل وسبعاوي إبراهيم وصابر الدوري وحسين رشيد التكريتي وسكرتير الرئيس حامد حمادي.

في تلك الساعات لم تعقد القيادة العراقية (المكونة من جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث) غير اجتماع واحد استمعت خلاله إلى ملاحظات الرئيس حول اللقاء الذي سيعقد في جدة بين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة السيد عزة إبراهيم وولي العهد الكويتي الشيخ سعد العبدالله الصباح، وتحاشي الرئيس في الإجتماع القول صراحة بأن هناك عملية عسكرية محتمة لكنه قال : (سنرى ما يتمخض عنه لقاء جدة ثم نتصرف في ضوء ذلك) وعندما خرج المجتمعون لم يكن لديهم إحساس قاطع بأن قراراً بإحتلال الكويت قد أُتخذ بغض النظر عن نتائج لقاء جدة.

كان الرئيس صدام هو أكثر الأشخاص قلقاً من لقاء جدة فقد خرج من إجتماعه مع أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث ليدوّن على الورق تعليمات مكتوبة تسلمها بعدئذٍ عزة إبراهيم وسعدون حمادي وعلى حسن المجيد، ومما جاء في تلك التعليمات (إطرحوا مطالبنا ولا تنتظروا الجواب) .. لقد كان يخشى حقيقة أن يتم التوصل إلى تسوية في لقاء جدة لأن ذلك كان سيعني تلقائياً إسقاط الخيار العسكري وإلغاء عملية الكويت، ويتشابه هذا الموقف الذي مرّبه بموقف آخر وقع في حزيران "يونيو" 1972 عندما كان نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة ومشرفاً على الجانب العراقي المتفاوض مع شركات النفط الأجنبية التي كانت تدير حقول النفط في كركوك، إذْ شرح بعد سنوات عدة أن ما كان يخشاه هو أن يوافق مفاوضو الجانب الآخر من مديري الشركات على مطالب الحكومة العراقية لأنهم كانوا سيجهضون قرار تأميم النفط وإلغاء التعاقدات القديمة مع تلك الشركات، وكلما تقدم المفاوضون من الطرف الآخر بمقترحات تقترب من المطالب العراقية كان يعود ليزيد من تلك المطالب حتى تنتهي المهلة التي أُعطيت لشركات النفط الأجنبية لقبول مطالب الحكومة العراقية ..

وقد حدث في (جدة) أن الوفد الكويتي وقع في مأزقين مهدا لتنفيذ الخطة المقابلة .. الأول هو الرفض القاطع لمطالب الوفد العراقي والثاني الخروج بإستنتاج خاطئ حول تجميد أي عمل عسكري محتمل من جانب الرئيس صدام حسين.

مرةً أخرى .. كان ما يحدث في (جدة)تكراراً، في ظروف مختلفة، لمشهد قديم جرى تقديمه في (بغـــــــداد) قبل ثماني عشرة سنة.

1990/6/27

كيف تكوّن قرار إستخـــــدام القوة العسكرية ضد الكويت في ذهـــن الرئيس صدام .. ؟ وما هي الواقعة التي فجّرت ذلك النزوع ؟

سيلعب الدكتور سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء يومئذٍ دوراً غير مسبوق في إشعار الرئيس صدام حسين بإستحالة التفاهم حول السياسة النفطية مع دول الخليج، فقد عاد يوم 26 حزيران "يونيو" 1990 من جولةٍ خليجية انتهت في الكويت، والتقى مع الرئيس على الفور ليبلغه أمرين:

الأول : هو أن الكويتيين طلبوا إليه تأجيل وصوله إلى الكويت يوماً كاملاً ليتمكنوا من ملاقاة وزير خارجية إيران علي أكبر ولايتي بعد أن كان

هناك موعد متفق عليه قبل ساعةٌ من مغادرته مطار جدة بإتجاه الكويت، وفسر ذلك على أنه مؤشر على عدم إحترام مبعوثٌ شخصي من الرئيس صدام ومعاملته بدرجةٌ أقل إهتماماً من معاملة الوزير الإيراني .. أما الأمر الثاني فكان يتعلق بتفاصيل الحوار الذي دار بين الدكتور حمادي من جهة وكل من الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير الكويت والشيخ صباح الأحمد نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية من جهة أخرى، واستنتج المبعوث الرئاسي العراقي أن الشيخ صباح يقف وراء سياسةٌ متشددة من مسألة تحديد سقف إنتاج النفط في الكويت وهو أمر سيظل يؤثر سلباً في مستوى الأسعار السائدة في أسواق النفط العالمية، وانطوى العرض الذي قدمه الدكتور حمادي على تلميحات كثيرة بأنه لم يُعامل بالإحترام الذي كان ينبغي أن يقابل به مبعوث شخصي يوفده الرئيس صدام إلى الكويت ودول الخليج الأخرى، وما كاد ينتهي من ملاحظاته حتى طغت علامات الغضب على ملامح الرئيس الذي طلب على الفور عقد إجتماع عاجل لأشخاص منتخبين من أعضاء القيادة العراقية.

وبالفعل عُقد إجتماعٌ برئاسته ضم كلاً من طه ياسين رمضان وطارق عزيز وسعدي مهدي صالح وسعدون حمادي ولطيف نصيّف جاسم.

كان الغضب يطبع كلام الرئيس وهو يدعو مبعوثه العائد من جولةٌ خليجية ليقدم تقريراً إلى الحاضرين أعاد فيه التركيز على ما عدّه إهانة مقصودة لشخص الرئيس وعدم إحترام لمبعوثه ووصف لهم لقاءه مع أمير الكويت ووزير خارجيته حتى قاطعه الرئيس صدام قائلاً: يجب أن لا يلومنا أحد إذا فتحنا كل الخيارات في التعامل مع الكويت وسيكون الخيار العسكري في مقدمة هذه الخيارات .. إذرْ يبدو أن هؤلاء لا يفهمون الكلمات وعلينا أن نستخدم لغةً أخرى معهم.

وتناوب الحاضرون على الحديث لإظهار تأييدهم للرئيس وإيجاد المسوّغات التي تبرر له مضيه في الخيار الجديد الذي وصفه بأنه (لغة أخرى في التعامل مع الكويت).

وقال السيد طه ياسين رمضان :

– عندما لا نكون قادرين على إطعام شعبنا وجيشنا بسبب تدهور أسعار النفط فإن ذلك يعني أن هناك من يريد لنا الهزيمة داخل بيتنا، وإن ما عجزت إيران عن تحقيقه بالحرب ضدنا يمكن أن يتحقق بالوسائل الإقتصادية لإظهار عجزنا كقيادة .. وبالتالي فمن حقنا أن ننقل المعركة إلى الجانب الآخر.

وقال السيد طارق عزيز :

– لقد حان الوقت لكي نقول للعالم إننا أقوياء وإن بمقدورنا أن نقدم عرضاً للقوة لنصل إلى كل ما نريد من أهدافنا.

أما الدكتور سعدون حمادي فقال :

– إنّ التكامل الإقتصادي هو أحد مظاهر الوحدة بين الدول العربية ولن نصل إلى هذا المستوى في العلاقات بالوسائل الدبلوماسية والسياسية ولذلك فإن علينا أن نفرض واقعاً جديداً بالقوة، ولذلك فإنني أؤيد دعوة الرئيس لفتح كل الخيارات في التعامل مع الكويت بما فيها إستخدام القوة العسكرية.

كان الحوار أقرب ما يكون إلى عرضٍ لأفكار مؤازرة للفكرة التي جاء بها الرئيس إلى ذلك الإجتماع، لكن أياً من الحاضرين لم يجرؤ على التصريح بفكرة إحتلال الكويت كاملةً لأن تلك الفكرة لم تكن قد صدرت عن الرئيس صراحةً ولذلك ظلت كلمات المشاركين في الإجتماع تدور في حلقة المفردات التي قالها كما فهموها واستنتجوا منها قصده.

أما الرئيس صدام فلعله كان يريد ضخ جرعةٌ أُولى من الإستعداد في نفوس كبار مساعديه ورفع درجة الإنتباه لديهم وإشعارهم بأن جميع الإحتمالات باتت مفتوحةً أمامه.

كان الهاجس الإقتصـــــادي هو المهيمن على ذلك الإجتماع، ولذلك تحدث بعض الحاضرين عن معضلة وجود مليون جنـــــدي بدون مهمة مع ما تتحمله خزينـــــة الدولة من أعباء إقتصادية ناتجــة عن ازدياد متطلبات إعادة الإعمار وضعف القـــــدرة الشـــرائية والإستعداد

لملاقـــــاة الديون المستحقـــة على العـــراق، ولم يتردد السيد طه ياسين رمضان في القول (عندما يكون لدينا مليـــــــون جندي لا نستطيع أن نؤكلهـم فلنرسلهم إلى أرض أخـرى يأكلون من أنعامها).

●●●

وبدا أن عقد إجتماع لوزراء نفط خمس دول هي العراق والسعودية والكويت والإمارات وقطر يومي 10 و 11 من تموز "يوليو" 1990 في مدينة جدة سيحسم الخلافات حول حصة كل دولة، وارتفعت أسعار النفط لتستقر عند حد 19 دولاراً للبرميل الواحد بزيادة نصف دولار عن الأسعار التي كانت سائدة في السنة السابقة، غير أن الرئيس صدام حسين تلقى بغضب شديد تصريحات وزير النفط الكويتي رشيد العميري يوم 15 من تموز التي أعلن فيها أن بلاده لن تلتزم بالإتفاق أكثر من ثلاثة أشهر، ودُعيت القيادة العراقية إلى إجتماع آخر قررت فيه تصعيد المواجهة مع الكويت وتوجيه مـــذكرة إلى جامعة الدول العربيـــة حول كل الموضوعات المتنازع عليها بين البلدين، في حين ضمّن الرئيس صدام خطابه السنوي الذي اعتاد إلقاءه في 17 تموز في كل عام أقســـــى عبارات التهديد لكل من الكويت والإمارات.

15/تموز/1995

لقد صدرت بضع إشارات غير مباشرة حول احتمال وقوع مواجهة عسكرية من (نوع ما) و (حجم ما) على خلفية الأزمة السياسية المتصاعدة مع الكويت وفي ضوء ما كان يتردد عن إحتمالات تلقي ضربة جوية إسرائيلية، فوسط تلك البلبلة أمر الرئيس صدام بتوزيع أعداد كبيرة من السيارات الشخصية هدايا على مجموعة منتخبة من رؤساء وسائل الإعلام وقادة الفرق العسكرية وكبار ضباط الحرس الجمهوري والمخابرات والأمن العام، كما منح هدايا مماثلة إلى مجموعة من الطيارين وأعضاء قياديين في فروع حزب البعث، ولم تكن هناك مناسبة مباشرة لإتخاذ تلك الخطوة التي طالما كان الرئيس يلجأ إليها للتعبير عن رضاه عن عمل محدد يكون قد أنجزه أشخاص معينون أو بعد تحقيق إنجاز سياسي أو عسكري كبير، غير أن النصف الثاني من شهر تموز "يوليو" كان مفعماً بأجواء من القلق والتوتر والترقب ولم يكن هناك من إنجاز يستحق أصحابه عشرات السيارات التي جرى توزيعها عليهم .. إنها إذن إشارة لم يكن لتُدرك في حينها، كان المقصود منها رفع درجة الولاء لدى الخط الأول في الأجهزة التي ستُستدعى لتنفيذ عملية عسكرية وسياسية كبيرة.

وذهب ضباط منتخبون إلى القواعد الجوية للإلتقاء بالطيارين، في قاعدة (البكر) و (تكريت) ووزعوا عليهم الطيارين هدايا مالية بإسم الرئيس بعد أن قال لهم أحد مندوبي القائد العام للقوات المسحلة : (إن علينا أن نستعد لمعركة كبيرة .. ففي الحرب مع إيران كنا نقاتل تحت شعار أنا وابن عمي على الغريب .. وقد نقاتل هذه المرة تحت شعار أنا وأخي على ابن عمي ..).

في غضون ذلك تلقى الرئيس سلسلة من الوعود التي تطمئنه إلى وجود قدرة سريعة على إحداث تغيير داخل الكويت على نحو سهل وسريع، فقد أبلغه أخوه غير الشقيق مدير المخابرات سبعاوي إبراهيم أن عناصره بدأت تتسلل إلى مدينة الكويت، وأن لدى جهاز المخابرات قدرة على الإتصال بأحد الطباخين العاملين في قصر أمير الكويت، في حين إستعرض طارق عزيز أسماء عدد من أعضاء البرلمان الكويتي لسنة 1985 باعتبارهم أشخاصاً مهيئين للتعاون مع السلطات العراقية، كما تباهي لطيف نصيف جاسم وزير الإعلام بالعلاقات الحميمة مع عدد من الصحفيين والشعراء الذين أكد قناعته بأنهم سيكونون رهن الإشارة بمجرد إظهار الحاجة إليهم.

لذلك تحمس صدام حسين لفكرة دعوة وفد شعبي كويتي كبـير لزيارة بغداد، وطلب إلى وزارتي الخارجية والإعلام الإتصال بأكبر عدد يمكن جمعه من شخصيات عشائرية وإعلامية ونقابية ومن أعضاء البرلمان الكويتي المنحل، وكانت آمال المسؤولين العراقيين معلقة على حضور مائة شخصية على هذا المستوى لكي يشكل وجودهم في بغداد تظاهرة ضغط سياسية ضد الحكومة الكويتية، ولإستخدامهم كقناة لتمرير

رسالة تثير الخوف والذعر داخل المجتمع الكويتي.

غير أن جمع ذلك العدد من الشخصيات كان يبدو مستحيلاً، فقد أفادت السفارة العراقية في الكويت أن السلطات الكويتية نصحت شخصيات كثيرة بعدم تلبية الدعوة، وأن آخرين كان يشعرون بالحرج من زيارة بغداد وسط مناخ متوتر في العلاقات بين البلدين، وقد أثارت تلك الإشارة غضباً كبيراً في بغداد، إذْ إفترض كبار المسؤولين العراقيين أن الكويتيين الذي أيدوا العراق خلال الحرب مع إيران سيظهرون التأييد نفسه في أية معركة أخرى تختارها السلطات العراقية حتى لو كانت ضد حكومتهم.

وبحلول الخامس عشر من تموز "يوليو" 1990 كان مجموع الأشخاص الذين حضروا إلى بغداد لا يتجاوز ستة عشر شخصاً، معظمهم من الصحفيين الذين كانوا يحضرون بصورة دورية خلال الإحتفالات السنوية التي تجري في شهر تموز "يوليو" من كل عام في العراق. ولم يخطر ببال أعضاء الوفد الكويتي أنهم مقبلون على تلقي رسالة، هي أقرب ما تكون إلى إطلاق شرارة الإنفجار في الأزمة بين البلدين التي ظلت حتى ذلك اليوم رهينة التأويلات غير الرسمية.

كان الرئيس ينتظر حضور مائة شخصية ليلتقيهم شخصياً ويتحدث إليهم كـ(أنصار مضمونين) سيقفون إلى جانبه، غير أن قلة عدد الأشخاص الذين حضورا جعله يتحول عن مشروع اللقاء بهم ليطلب إلى وزير الإعلام الإلتقاء بهم .. وإبلاغهم رسالة صاعقة كان يريد أن يبلغها بنفسه ..

لقد تسنى لي حضور ذلك اللقاء الذي بدأه الوزير على نحو غير مسبوق، فهاجم الشيخ صباح الأحمد وحمّله مسؤولية توتر العلاقات، وأستخدم أوصافاً قاسية ضده، فأُخذ الحاضرون بمفاجأة غير سارة، وأذكر أن شخصين على الأقل من الحاضرين، ردا على الوزير، رافضين الإتهامات التي كان يوجهها، فقد رفض فيصل الدويش ملاحظات الوزير وقال له إنه غير معني بنقل الكلام الذي يسيئ إلى الشيخ صباح .. ودافع عن المسؤول الكويتي بعبارات واضحة وقوية، وكان على الآخرين أن يحاولوا إقناع أنفسهم بأن ما يستمعون إليه أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، فلطالما استمعوا من الوزير نفسه عبارات الإشادة والإمتنان نحو الشيخ صباح الأحمد أيام كان الرئيس صدام يصف الشيخ صباح بأنه وزير خارجية العراق لما اضطع به من دور خلال الحرب العراقية الإيرانية، لقد شعر الحاضرون بإحراج كبير عندما وجدوا أنفسهم في ذلك المجلس الذي إنفض بمجرد إنتهاء الوزير من إلقاء عبارات القذف والتهديد.

وما كاد أعضاء الوفد الكويتي يغادرون مبنى وزارة الإعلام حتى رفع الوزير سماعة الهاتف ليبلغ مكتب الرئيس : (لقد أبلغتُ الوفد الكويتي بما أمر به السيد الرئيس .. وركزتُ الهجوم على الشيخ صباح .. وسيصلكم خلال ربع ساعة الشريط الكامل للقائي مع الوفد).

1990/7/25

كان بإمكان الدبلوماسية أن تمنع الواقعة، إلا أن الطرفين اللذين تحاورا عشية الحدث قد إنطلقا من رؤيتين مختلفتين وأقصد بهما : الرئيس صدام وسفيرة الولايات المتحدة الأمريكية في بغداد .. فالرئيس أراد أن يتحسس درجة إنتباه الولايات المتحدة للإستعدادات القائمة على الأرض من جهة ولإشعار الدبلوماسية الأمريكية بأنها قد حصلت على علم مسبق بحدث كبير قد يقع في أية لحظة من جهة أخرى .. أما السفيرة إبريل غلاسبي فكانت في وضع مختلف إذْ أنها دخلت إلى الإجتماع دون أن تحصل على تعليمات من الخارجية الأمريكية ودون أن تكون معها رسالة تبلغها إلى الرئيس، ولذلك اكتفت بإظهار التشجيع للجهد الدبلوماسي الهادف إلى تفريغ الأزمة من شحنات التصادم.

ثمة مواقف في تــاريـــخ العلاقات الدولية تحتمل المقارنة..

في 25 آب (اغسطس)1939 استدعى أودلف هتلر السفيرين الفرنسي والبريطاني كلاً على حده وأبلغهما صراحةً أنه قرر إعادة منطقة

"غدانسك" من بولندا إلى ألمانيا .. وكان يعني صراحةً أن الحرب باتت على وشك الإنفجار ما لم يقر الأوربيون بأحقية قراره..

وقد خرج السفير البريطاني هندرسن والسفير الفرنسي كولوندور مقتنعين بأن هتلر كان قد اتخذ قراراً بشن الحرب ولذلك كانت الرسالتان اللتان أبلغاها، منفردين، إلى حكومتيهما واضحتين إلى حد ما : (إن هتلر كان ينذر بأن الحرب ستقع ما لم توافق بولندا على مطالبه).

إن هذا المشهد المنتقى من واقعة جرت قبل ستة أيام من وقوع الحرب العالمية الثانية يشابه في جانب ويختلف في جانب آخر مع ما جرى في لقاء الرئيس صدام حسين مع سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية إبريل غلاسبي قبل سبعة أيام من دخول الكويت.

●●●

في 25 تموز "يوليو" 1990 اتصل وكيل الخارجية العراقية السيد نزار حمدون بسفيرة الولايات المتحدة ودعاها إلى لقاء في مكتبه خالت السفيرة أنه سيكون مشابهاً لتلك اللقاءات التي اعتادت عقدها معه بصورة دورية لمراجعة العلاقات الثنائية ومعاينة المشكلات الإقليمية التي تعني البلدين، ولم يخطر ببالها أنها ستذهب لملاقاة رئيس الدولة، ولذلك لم تشعر بالحاجة للعودة إلى مقر وزارة الخارجية في واشنطن للحصول على تعليمات محددة وجديدة، واكتفت بما كانت قد حصلت عليه من موقف سياسي قبل 48 ساعة.

●●●

لم يكن ليخطر في بال السفيرة أن لقاءها مع سفـــير الكويت السيد إبراهيم البحوة قبل ثلاثة أيام من لقائها مع الرئيس صدام، كان تحت المراقبة، وقد جرى توثيقه من قبل أجهزة الأمن العراقية بحيث أُتيح للرئيس أن يطلع على عبارات القلق التي عبر عنها السفير الكويتي إزاء الحشود التي أكدتها السفيرة من جانبها ووعدت بنقل ما أفادها به السفير البحوة إلى وزارة الخارجية في واشنطن.

لقد إستاء الرئيس صدام من ذلك اللقاء، وطلب من وسائل الإعلام، مهاجمة السفير والسفيرة لإبلاغهما بأن اللقاء الذي جرى بينهما كان تحت المراقبة والرصد.

●●●

معروف الآن كيف وجدت غلاسبي نفسها وجهاً لوجه أمام الرئيس صدام الذي وصفته في تقريرها إلى ا لخارجية الأمريكية بأنه كان متوتراً وعصبياً طوال المقابلة حتى تلقى مكالمة هاتفية من الرئيس حسنى مبارك يبلغه فيها بنجاح زيارته إلى الكويت واتفاقه على عقد إجتماع في جدة بين السيد عزة إبراهيم والشيخ سعد العبدالله، وتقول غلاسبي إن الرئيس صدام بدا سعيداً ومستريحاً بعد المحادثة الهاتفية وأبلغها بأنه بات مطمئناً إلى أن الأزمة هــي في طريقها إلى الحل.

وتقول غلاسبي أيضاً إنها عادت إلى السفارة لتعد تقريراً مفصلاً من ست صفحات نقلت فيه ما قاله الرئيس العراقي ولم تضع ما كانت قد قالته هي في ذلك اللقاء لأنها وجدت أن الصحيح والأهم هو أن تنقل ما استمعت إليه من أقوال رئيس الدولة العراقية وخاصة قوله بأنه لا يقبل بتهديدات الولايات المتحدة وأنه يريد لهذه التهديدات أن تتوقف، وأشارت إلى انفراج محتمل في الأزمة بعد نجاح مهمة الرئيس المصري في الكويت، لكنها لم تشر مطلقاً إلى إحتمال احتلال الكويت عسكرياً..

وخلا تقريرها من الإشارة إلى ما كانت قد قالته من أن الولايات المتحدة لن تتدخل في النزاعات بين الدول العربية.

●●●

في تجربة الحرب العالمية الثانية كانت جميع الأطراف تعرف ما الذي تريده، تستطيع نقل رسائلها، وتتلقى الإشارات بوضوح من الطرف المقابل، كما كانت التحالفات تنشأ في العلن، بريطانيا توقع معاهدة مع بولندة، وألمانيا تصل إلى إتفاقية عدم إعتداء مع روسيا، وتقترح اتفاقية مماثلة على لندن، وتقبل في الأيام الأخيرة إجراء مفاوضات مع بولندة حول (غدانسك)، ورئيسا وزراء بريطانيا وفرنسا يرسلان مذكرات مسهبة إلى هتلر الذي يلتقي سفراء الدول الأوروبية الأخرى ويحاورهم في احتمالات الحرب. لقد كانوا يتحدثون عن حرب محتملة .. كانت تبدو قادمة أمام الجميع.

أما في حالة الصراع على الخليج، والخلاف بين العراق والكويت، فلم تكن هناك دبلوماسية حقيقية، لأنّ الصورة كانت مضببة وقد تصرف كل طرف على النقيض مما كان يفكر به، وربما أراد الرئيس صدام أن يستخدم إتصالاته الدبلوماسية مع الملك حسين والرئيس المصري والسفيرة غلاسبي لخلق إنطباع مخالف لم كان قد قرره فعلاً، فقد خرج جميعهم بإستنتاج مستقر حول تراجع احتمال المواجهة العسكرية بإفتراض أنّ الازمة ستجد الحل عبر الوسائل السياسية من خلال لقاء (جدة)، وربما كان ذلك هو السبب الكامن وراء ردود الفعل الغاضبة من جميع الأطراف التي شعرت أنها تعرضت لما تصفه بمخادعة من نوع ما.

كان الهاجس المثير للقلق لدى الرئيس صدام هو تكرار ما حدث سنة 1961، لذلك فإنه لا يشعر بالحرج من إتهامه بالمخادعة التي يعتقد أنها كانت جزءً من استعداداته العسكرية والسياسية .. وقد قال ذلك بصراحة في نهار الثاني من آب "أغسطس" 1990 عند أول حديث له مع مساعديه أعضاء القيادة العراقية بعد ساعات من دخول الكويت : (لقد افتقد عبدالكريم قاسم عنصر المفاجأة، ظل يطبل ويزمر وهو يتحدث عن الكويت دون أن يقوم بعمل جدي مما أعطى البريطانيين والمصريين الوقت الكافي لإجهاض خطته وإرسال جنودهم لتحجز بينه وبين الكويت .. وها نحن نقدم عرضاً آخر ومختلفاً عن ذلك العرض السياسي والعسكري الذي قدمه عبدالكريم قاسم قبل ثلاثين سنة).

لقد خلا محضر اللقاء مع غلاسبي من مفردة (الحرب) و (الوسائل العسكرية) لكنه احتوى على تعبيرات غير مباشرة توحي باستخدام القوة العسكرية مثل (اللجوء إلى كل الوسائل) و (البحث عن طريق آخر للحصول على حقوقنا)، وكان على السفيرة أن تجتهد لتخمين المقاصد المخفية من الكلام الذي استمعت إليه، لقد قالت كلاماً يكاد أن يكون مكرراً من أمثال الدعوة للحوار واللجوء إلى الدبلوماسية وعدم التدخل في الخلافات بين الدول العربية، لكن إلتقاط كلامها قد تم نحو مختلف، لأن الرئيس كان في حاجة ليملأ الفجوات في خطة جاهزة للتنفيذ .. وقد استقرت كلمات السفيرة في بعض تلك الفجوات لتعطي الإنطباع الخاطئ بأن الولايات المتحدة ستتفرج على حدث بالحجم الذي وقع ..وأذكر أن نص المحضر الذي قُدم إلى الرئيس بعد إنتهاء اللقاء قد احتوى على خطوط وضعها صدام حسين بقلمه تحت أقوال غلاسبـــي التي أشارت فيها إلى أن الولايات المتحدة ليست معنية بالتدخل في أي خلاف بين دولة عربية وأخرى، وأنها تنتظر من الدول العربية أن تحل المشاكل العالقة بينها بنفسها..

قد تكون الحرب و الدبلوماسية الوسيلتين المتاحتين لبلوغ أهداف واحدة ، لكن الدبلوماسية في هذه الحالة ليست مجرد كلام، إنها أفعال تقع على الأرض .. في المسافة ما بين أقدام الجنود ونيران المدافع .. وإذا انقطعت الصلة في ميدان الصراع بين الكلمات وحركة الجنود، لا يعود ما يحدث دبلوماسية .. بل مكائد وأفخاخ .. وإضاعة للوقت ..

●●●

ومن المناسب التنويه هنا بجانب مهني أساسي في هذه المسألة، إذْ أن غلاسبي شخصية واقعية ومتواضعة بطبيعتها، وهي ليست من نمط السفراء الذين ينسبون لأنفسهم أدواراً كبيرة ويدعون أنهم أثّروا في الأحداث فينقلون أقوالهم التي أدلوا بها إلى زعماء الدول في التقارير التي يرسلونها إلى وزارات الخارجية، ولذلك فإنها لم تنقل قولها للرئيس العراقي (بأن الخلاف بين العراق والكويت هو شأن خاص بهما كدولتين عربيتين متجاورتين) لأن مثل ذلك الكلام كان بالنسبة لـها مجرد تأكيد لسياسة أمريكية معلنة، ويكاد أن يكون من الثوابت في أي عرض دبلوماسي يقدمه سفراء الولايات المتحدة بصورة روتينية في كل مناسبة.

أما الرئيس صدام فيبدو أنه كان يعوّل كثيراً على كلام السفيرة، وقد يكون بذلك أوقع نفسه في فخ لم ينصبه له أحد، كما أن طارق عزيز الذي يفترض فيه أنه شخصية دبلوماسية لم يلتقط الملاحظات التي أحاطت بما دار من حديث ولم يفسر ظروف عقد اللقاء ولم يشرحها لرئيسه بل خرج هو أيضاً بإنطباع مريح بأن الولايات المتحدة لن تتدخل إذا انفجر صراع عسكري على خلفية المشاكل السياسية والمالية المعلنة بين العراق والكويت.

لقد خرج الرئيس من ذلك اللقاء منتشياً ليقول لبعض مساعديه (إنه أعطى السفيرة درساً في الدبلوماسية لن تنساه الولايات المتحدة أبداً ..).

غير أن جوهر المشكلة تتركز في أن ذلك الإتصال الدبلوماسي كان يمر في قناة مسدودة .. فلا الرئيس صرّح بالنيات ولا السفيرة أدركتها، لذلك لم يكن متاحاً أن تصدر برقيات مشابهة لتلك التي بعث بها السفيران (هندرسن) و (كولوندور) إلى كل من لندن وباريس يوم حذرا بأنّ الحرث العالمية الثانية كانت واقعة محالة ..فالجهد الدبلوماسي يكون كاملاً عندما يعرف طرفاه نوع الرسالة التي يريد كل منهما تبليغها أو إلتقاطها، وإلا لا يعدو مثل ذلك الحوار غير همـــــس بين الطرشـــــــان.

وعندما يكتب تاريخ ما حدث لا يتوجب التعويل كثيراً على لقاء من ذلك النوع الذي جرى قبل أسبوع من الواقعة .

1990/7/30

عاد وزير الإعلام من اجتماع طارئ مع الرئيس وحسين كامل وطلب قائمة بأسماء نخبة من المذيعين ومهندسي البث الإذاعي والتلفزيوني ومخططي البرامج، وتظاهر أنه يريد أن يمنح هؤلاء الأشخاص هدايا كبيرة باعتبارهم موظفين مميزين في عملهم، وانتقى بنفسه عشرة أشخاص من بين الأسماء التي عُرضت عليه وطلب إحضارهم على الفور.

لقد هرعوا جميعاً كما كان متوقعاً على أمل أن يحصلوا على الهدايا الموعودة، فطلب إليهم الوزير أن يتوجهوا إلى مبنى هيئة التصنيع العسكري مُلمحاً إلى أنهم سيجدون من سيعتني بهم هناك، وافترض المهندسون والإذاعيون أنّ أحداً سينقلهم من هيئة التصنيع العسكري إلى القصر الجمهوري ليحصلوا هناك على الهدايا المنتظرة.

مضت عليهم ساعتان في إحدى صالات الإنتظار في هيئة التصنيع العسكري قبل أن يدخل عليهم الفريق حسين كامل وفوجئوا به يخاطبهم :

– ما هذا .. يبدو أنكم لم تجلبوا معكم احتياجاتكم الشخصية التي ستستخدمونها خلال المبيت.

وذُهل الحاضرون .. فقد تراءت أمامهم صور أولئك الذين كانوا يُستدعون على عجل ليجدوا أنفسهم بعدئذْ نزلاء في أحد المعتقلات، غير أنه قطع عليهم لحظة الذهول وقال : لديكم ساعتان .. إذهبوا إلى بيوتكم وعودوا إلى هنا مرة أخرى بعد أن ُتبلغوا عوائلكم بأنكم ستكونون في واجب قد يستمر طويلاً.

بعد ساعتين التقى الأشخاص العشرة ثانيةً في مبنى هيئة التصنيع العسكري ليجدوا من يأخذهم إلى دائرة الإستخبارات العسكرية حيث طلبوا إليهم استبدال ملابسهم المدنية بملابس عسكرية، لكن الصورة لم تتضح أمامهم تماماً، لقد قيل لهم إن علاقتهم بالعالم الخارجي قد تعطلت ولن يستطيعوا الإتصال بعوائلهم وزملائهم حتى تنتهي المهمة التي سيرسلون إليها.

أمضوا ليلتهم في دائرة الإستخبارات العسكرية بمنطقة (الكاظمية)، وجرى إيقاظهم فجر الأول من آب حيث اصطحبهم ضابط كبير إلى قاعدةْ جوية ونقلتهم من هناك طائرة هليكوبتر إلى البصرة، وكان عليهم أن ينتقلوا من هناك إلى .. داخل الأراضي الكويتية.

لقد قيل لهم عندئذ إن مهمتهم هي البحث عن موقع مناسب في عمق ثلاثين كيلومتراً داخل الكويت لتأسيس محطة إرسال إذاعي أولاً، ثم تحديد موقع لأقرب مرسلة تلفزيونية كويتية يمكن أن تُركّب عليها أجهزةّ تقطع الإرسال الكويتي وتحل بديلاً عنه بثاً تلفزيونياً آخر.

كان على الجميع أن يسيروا بملابس الجنود في معية ضابط يدلهم على اتجاه المرسلات الموجودة في منطقة (الصليبخات)حتى وصلوا إلى مسافة كيلومترين عنها.

كانت الخطة التي يعلم بها ثلاثة أشخاص فقط عدا الرئيس (هم حسين كامل، ولطيف نصيّف، ومدير الإستخبارات العسكرية) تقضي بتأسيس مركز للبث الإذاعي والتلفزيوني يمكن استخدامه لإذاعة بيانات (الإنقلاب) الذي سيعلن عنه كغطاء لعملية الكويت، وتعيّن على الفنيين أن يبحثوا عن وسيلة لتأمين الإتصالات بين المحطة التي سيؤسسونها في الكويت والمرسلات التلفزيونية والإذاعية المنصوبة فوق جبل (سنام)جنوب العراق.

●●●

بعد أربع وعشرين ساعة إجتاحت قوات الحرس الجمهوري الكويت، غير أن الفنيين فشلوا في تأسيس محطة للإرسال الإذاعي، ولذلك لم يجد الإذاعيون غير بث بيانات (الإنقلاب) الكويتي عبر محطة الإذاعة الرسمية من بغداد، ثم اتخذوا من إذاعة البصرة ومحطة تلفزيونها مركزاً للبث باسم (إذاعة الكويت الحرة) التي ظلت تنطق عن حكومة غير موجودة .. قبل أن تلوذ بالصمت بعد ثلاثة أيام فقط.

1990/8/1

وصل عزة إبراهيم مساء الأول من آب "أغسطس" إلى مطار بغداد عائداً من المدينة المنورة بعد حضور اجتماع عُقد في (جدة) مع ولي عهد الكويت، وكان في استقباله طه ياسين رمضان كما جرت العادة دائماً، ولم تمضه غير دقائق على دخوله صالة الإستقبال حتى تبلغ الحاضرون بأمر من مكتب رئيس الجمهورية يلزمهم بعدم مغادرة المطار وأمضوا ساعة كاملة في صالة الإنتظار قبل أن يصل الرئيس صدام حسين إلى المطار دون أن يكون بمعيته موكب رسمي.

إنفرد الرئيس بنائبه، ووجه إليه سلسلة من الأسئلة حول ما دار في اجتماع جدة ..لم يحدث أن ذهب رئيس الجمهورية ليلاقي أحد مبعوثيه في المطار، لكن الأمر هذه المرة استوجب وقوع ذلك، كان هناك سباق مع الزمن، فقرار عبور الحدود نحو الكويت هو على وشك الدخول إلى حيز التنفيذ، ولعل الرئيس أراد التيقّن بأن لقاءً (جدة) قد سار بموجب التعليمات التي كان قد أعطاها لنائبه وأعضاء الوفد المرافق له وأن الوفد الكويتي قد عاد معلقاً بين احتمال عقد لقاء آخر وعدم الحصول على نتيجة حاسمة من الإجتماع.

في غضون ذلك صدرت أول إشارة دالة على تحول حاسم في الموقف من اجتماع (جدة) فقد أُذيع خبر عبر تلفزيون بغداد عند الساعة الثامنة مساءً يشير إلى عودة الوفد الحكومي من جدة بعد لقاء مع (سمو الشيخ سعد العبدالله) ولي عهد الكويت، غير أن الخبر أُذيع ثانية في الساعة العاشرة بعد حذف مفردتي (سمو الشيخ) عن إسم ولي العهد الكويتي، وقد جرى ذلك بناء على تعليمات سريعة صدرت عن حامد حمادي سكرتير رئيس الجمهورية، .. ولم يكن هناك من يلتقط تلك الإشارة في الساعات الأخيرة التي سبقت عبور قوات الحرس الجمهوري الحدود مع الكويت.

أمضى عزة إبراهيم وقتاً قصيراً في منزله قبل أن يذهب لحضور الإجتماع الأخير الذي أعطى إشارة البدء لعملية الكويت.

كان هناك سبعة أشخاص في انتظاره وهم : طارق عزيز وطه ياسين رمضان وحسين كامل ولطيف نصيّف جاسم وأحمد حسين وحامد حمادي ومرافق الرئيس عبد حمود..بدأ عزة إبراهيم في إيجاز الحاضرين بما جرى في جدة، قبل أن يدخل الرئيس صدام مكان الإجتماع ليوزع المهمات على الحاضرين ويحدد أسلوب الإعلان عن بدء العمليات العسكرية.

لقد تقرر أن يتولى طارق عزيز وحامد حمادي ولطيف نصيّف إعداد صيغة بيانين، الأول يعلن عن (وقوع حركة انقلابية في الكويت) ويُوقع بإسم (حكومة الكويت الحرة المؤقتة) .. أما البيان الثاني فيعلن بإسم مجلس قيادة الثورة عن الإستجابة لطلب (حكومة الكويت المؤقتة) لتقديم المساندة العسكرية والسياسية.

وتقرر أيضاً أن يتعاون الثلاثة (طارق – حامد – لطيف) مع مدير المخابرات وحسين كامل للبحث عن أشخاص كويتيين يشتركون في حكومة تحمل الإسم الذي سيجري توقيع البيان بإسمها.

كما تقرر إعداد خبر مقتضب يشير إلى فشل إجتماع جدة، على أن يذاع عند الساعة الثانية فجراً في وقت تكون فيه قوات الحرس الجمهوري قد عبرت منطقة الحدود.

وكانت آخر جملة قالها الرئيس في ذلك الإجتماع : يا ويل المطلوب لنا .. لن تلبس أمه غير السواد ..

ولم يسمح للمشاركين في الإجتماع (عدا حسين كامل) بمغادرة المكان إلا بعد بدء العمليات العسكرية، وكان الإتصال الوحيد الذي سُمح بإجرائه هو إبلاغ الإذاعة بنص الخبر الذي جرى إعداده حول (فشل إجتماع جدة) وتحديد موعد إذاعته متأخراً في آخر نشرة للأخبار قبل إنتهاء بث الإذاعة.

في غضون ذلك سأل صدام سكرتيره : هل تعتقد أن الكويتيين سيرفعون درجة إستعدادهم إذا انتبهوا إلى تغيير صيغة الخبر .. ؟

فأجاب السكرتير : لم يعد هناك ما يكفي من الوقت .. فقد بدأ تسلل أفراد الحرس بأسلحتهم الخفيفة ساعة إذاعة الخبر.

كان حسين كامل أول الأشخاص الذين غادروا مكان الإجتماع حيث استقل طائرة هليكوبتر في اتجاه البصرة(وكان بمعيته اللواء الطيار الحكم حسن علي التكريتي) ليشرف على العمليات العسكرية بعد أن كان قد سبقه إلى هناك كل من علي حسن المجيد وسبعاوي إبراهيم مدير المخابرات وصابر الدوري مدير الإستخبارات العسكرية وإياد فتيح الراوي قائد الحرس الجمهوري، وهم الأشخاص الذين شكلوا أول غرفة عمليات في مدينة البصرة، ولعلهم الوحيدون الذين عرفوا بساعة الصفر قبل موعدها بخمس ساعات على الأقل، أما الآخرون من قادة الفرق العسكرية والقوات الجوية فلم يعرفوا بموعد بدء العمليات العسكرية إلا لحظة المباشرة بالحركة عند الواحدة بعد منتصف الليل ..

القســـم الثاني

دولة اللايعلم

إن آخر من سيعلم بدخول الكويت هو وزير الدفاع
ورئيس الاركان وقائد طيران الجيش والوزراء وقادة
الفيالق والفرق ..والطيارون.

بحث الرئيس صدام حسين فجر الخميس : الثاني من آب "أغسطس" 1990 عن مدير طيران الجيش العميد الطيار حسين الزبن لأنه كان يعتقد بأن احتلال الكويت لن يتحقق ما لم تُستخدم طائرات الهليكوبتر على نطاق واسع في غارات ليلية، مستفيداً من التقديرات السائدة لدى العسكريين بعدم جواز إستخدام هذه الطائرات في عمليات ليلية لكي يحقق عنصر المباغتة، ولم يعثر الرئيس على الضابط الذي كان قد تولى مسؤوليته منذ سنة ونصف بعد أن شغل موقع آمر الجناح الأول في البصـــرة أُخريات سنوات الحرب مع إيـران.

بكثير من البساطة لم يكن هذا الطيار (الذي تأتمر به 450 طائرة هليكوبتر متنوعة الإستخدامات) على علم بموعد دخول الكويت، وكان كل ما استشعره في الساعات الثماني والأربعين الماضية هو تلقيه تعليمات سريعة ومتناقضة من القائد العام للقوات المسلحة للتنقل بطائراته وطياريه على رقعة القواعد الجوية المنتشرة في شمال البلاد ووسطها وجنوبها، ثم كانت آخر تلك التعليمات، التي صدرت صباح الأول من آب 1990، تقضي بتحشيد ثلث طائرات الهليكوبتر الهجومية في قواعد الجنوب (البصرة والناصرية)، وقد يكون العميد الزبن استنتج بأن تلك الحركات السريعة في اتجاهات مختلفة هي جزءٌ من مناورة عامة بدأتها قوات الحرس الجمهوري في الجنوب وقرب الحدود مع الكويت، دون أن يتيقن بأن الهدف في النهاية سيكون مهاجمة الكويت واحتلالها، وربما لذلك لم يجد سبباً يضطره للبقاء في حالة إنذار وانتظار لتوجيهات استثنائية، فقد استمع مثل سواه من مواطني العراق أخباراً عادية عن اجتماع (جدة) بين الوفدين العراقي والكويت .. وخلد إلى النوم في مكان ما من مدينة العمارة.

لذلك لم يعثر الرئيس على هذا الضابط لكي يحمله قسطاً أساسياً من المسؤولية في هذه العملية، لكن الأمر لم يكن ليتوقف بسبب غياب (الزبن) .. فقد صدرت التعليمات إلى آمري الأجنحة ليكونوا (على إستعداد للقيام بمهمات قتالية في الساعة الثانية فجراً) .. ولم يقولوا لهم صراحة إن تلك المهمات ستكون في سماء الكويت.

بعد منتصف ليلة الأول على الثاني من آب كان حسين كامل قد استقل(فور مغادرته اجتماع القيادة العراقية) طائرة هليكوبتر وبمعيته اللواء الطيار الحكم حسن علي التكريتي الذي لم يكن يعرف إلى أين ستقلع بهما الطائرة ونوع المهمة التي يتوجهان إليها، وهو ما كان ينتظر أن يعرفه لاحقاً من كامل وهما يحلقان جنوب بغداد.

لقد اشتهر إسم (الحيكم) خلال الحرب مع إيران بعد أن شغل منصب مدير طيران الجيش لخمس سنوات متصلة وكان عضواً في القيادة العامة للقوات المسلحة، غير أنه أُحيل على التقاعد بعد انتهاء الحرب مع إيران لسببين كان من الصعب الإفصاح عنهما من جانب القيادة العراقية. الأول هو أن (الحيكم) ينحدر من عشيرة (الشيايشة) في تكريت وهي الجناح المنافس لآلبو ناصر الذي خرج من أحد تفرعاته الرئيس صدام نفسه، ويشعر معظم رجالات (الشيايشة) بأحقيتهم في الحصول على مواقع كبيرة في الجيش والدولة، وكان أنسب المواضع التي انتظرها (الحيكم) هو أن يصبح قائداً للقوة الجوية بعد أن فكر الرئيس بالتخلي عن قائدها السابق الفريق حميد شعبان وهو من تكريت أيضاً. أما السبب الثاني فكان بتعلق بإتهامات وُجهت إلى أقارب اللواء الحيكم من طرف زوجته المتحدرة من مدينة سامراء حيث أُعتقل ضباط وطيارون وحزبيون في المدينة بعد انتهاء الحرب مع إيران وأُتهموا بالإشتراك في تنظيم سري لقلب نظام الحكم، وكان من بينهم العقيد أسامة صبحي وهو متزوج من شقيقة زوجة (الحيكم)، كما أُعتقل السيد أحمد طه العزوز وهو أحد القياديين السابقين في حزب البعث ومتزوج من شقيقة العقيد أسامة، وأُعتقل السيد محمد فاضل السامرائي وهو شقيق زوجة (الحيكم) .. وبرغم إستجواب (الحيكم) لأسبوعين متتاليين، آنذاك ،إلا أنه استطاع البرهنة على عدم صلته بأي نشاط ضد الرئيس، لكن إخلاء سبيله لم يكن ليمنع تسريحه من الخدمة كما حصل لمئات من كبار الضباط فور انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية.

وعاد هذا الضابط الطيار إلى حياته الخاصة وأمتنع عن الإختلاط بالآخرين خشية المساءلة من جانب الأجهزة الأمنية.. وكان في كل ذلك تحت مراقبة صارمة تحسب أنفاسه، إذْ طالما عُدَّ من الضباط المتعاطفين مع وزير الدفاع السابق الفريق أول عدنان خيرالله الذي قُتل في حادث طائرة شمال العراق في شهر مايس(أيار) 1989.

ويبدو أن الرئيس صدام تيقّـن بعد سنة من إبعاد (الحيكيم) عن الخدمة أن هذا الرجل لا يشكل خطراً على السلطة، فاستدعاه وأعاد إليه رتبتـــــه العسكرية ، لكنه بدلاً من تكليفه ثانيـةً بمهمات مباشـــــرة في سلاح الطيران أرسله ليعمل بصفة مستشار في هيئة التصنيع العسكري حيث بات هناك تحت آمرة حسين كامل الذي كلفه بإدارة مشروع لصناعة طائرة هليكوبتر في العراق .

●●●

كانت الطائرة تحلق في السماء عندما أبلغ كامل رفيقه في الطائرة أن الهجوم على الكويت سيقع بعد ساعة واحدة ..

.. بعد ساعات قرر الرئيس صدام إحالة العميد حسين الزبن على التقاعد برتبتين أدنى من رتبته .. وإعتقاله، كما قرر إعادة تعيين اللواء الحكم حسن علي التكريتي مديراً لطيران الجيش لمدة ستة أشهر فقط .. ولعله أفصح في ذلك القرار المشروط بمدى زمني محدد عن أن إضطراره لإعادة هذا الضابط إلى موقعه السابق لن يلغي التحفظ الأمني عليه، كما أن المهمة التي انتدبه لها هذه المرة عسيرة ومعقدة .. فعدا عن كونه سيظل رهيناً بمسألة الكويت ولن تكون أمامه فرصة للإلتقاء بضباط خطرين على السلطة، فإنه سيكون مطالباً بمعالجة أول نكسة عسكرية في عملية الكويت .. ألا وهي سقوط خمسين طائرة هليكوبتر في الليلة الأولى للعمليات.

.. عند الواحدة وخمسين دقيقة من فجر الخميس الثاني من آب كانت ثمانون طائرة هليكوبتر قد غادرت مهاجعها في مطار (الشـــــعيبة) في البصرةو قاعدة (الإمام علي) الجوية في الناصرية في اتجاه المجال الجوي الكويتي، و لـم تكن لدى طياريها، ومعظمهم من ذوي الرتب الصغيرة، صورة واضحة عن الأهداف التي ينبغي عليهم مهاجمتها في طيران ليلي محفوف بالمخاطر لم يكن ليتم بنجاح على ذلك النطاق الواسع وفي جبهة عسكرية لم يكن الطيارون مهيئين من الناحية النفسية والعملية للخوض فيها، لقد قيل لهم إن مهمتهم الأولى هي إنزال قوات محمولة من الجو (من عناصر الحرس الجمهوري) فوق مبان حكومية في (الجهراء) أولاً ثم في مدينة (الكويت)، ولم تكن معهم خرائط واضحة المعالم للأهداف التي ذهبوا اليها ولذلك صاروا يدورون حول أنفسهم فوق مدينة (الجهراء)، وعندما حاولت أول طائرتين الهبوط في إحدى الساحات العامة تصادمت إحداهما بأعمدة الكهرباء والأخرى بمبنى لأحد المخازن مما أدى إلى اشتعال النيران فيهما وإرتطامهما بالأرض وإصابة معظم الذين كانوا فيهما، ثم وقعت حالات أخرى أدت إلى سقوط خمس عشرة طائرة خلال ساعة واحدة، وهو رقم كبير جداً في حالة غياب نيران المقاومات الأرضية .. عندئذْ لم يكن أمام ما تبقى من الطائرات إلا العودة إلى قواعدها في جنوب العراق.

أما الدفعة الثانية من طائرات الهليكوبتر فقد عادت للتحليق تتقدمها طائرة إستقلها أحد عقداء الاستخبارات من الذين استكشفوا الأهداف الحكومية والعسكرية والإقتصادية في الكويت على مدى أسبوعين قبل تنفيذ الخطة، لكن حظ هذه الطائرات لم يكن أفضل من سابقاتها فقد تصادمت ببعضها البعض هذه المرة وانفجرت ست طائرات في الجو، ولم يجد عقيد الاستخبارات ومن معه غير الطلب من الطيارين الهبوط في أية مساحة متاحة على الأرض من ساحات عامة أو مناطق ترابية أو شوارع عريضة حيث ترجل منها العسكريون ورجال الاستخبارات وأستوقفوا بضعة أشخاص من المقيمين في الكويت كانوا في الطريق إلى أعمالهم وصاروا يحققون معهم حول عناوين ومواقع عدد من الأهداف كانت مكتوبة على أوراق يحملونا معهم، ثم عاودوا الطيران بعدئذْ بحثاً عن أهدافهم بموجب ما حصلوا عليه من معلومات المارة والعابرين في تلك الساعة المبكرة من فجر الخميس.

في تلك الأثناء كان مئات من عناصر الحرس الجمهوري قد نزلوا على الأرض في مدينة (الجهراء) ومنطقة (الصليبخات) في حين توجهت طائرات أخرى إلى جزيرتي (وربة) و (بوبيان) حيث لم تواجه المشكلات التي واجهتها في(الجهراء)وأطرافها وأنزلت في الجزيرتين عدداً محدوداً من جنود الحرس.

وروي لي أحد الطيارين المشاركين في العملية أن أول طائرتين مقاتلتين كويتيين ظهرتا شمال مدينة الكويت عند الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة قد أطلقتا صواريخهما في إتجاه طائرات الهليكوبتر دون أن تتمكن من إسقاط أيْ منها.. ثم انسحبتا من ســـماءْ داكنة يدمغها ظلام الليل.

عند الخامسة فجراً أدرك آمرو الجناح الأول لطيران الجيش في البصرة أن عدد الطائرات التي سقطت وتضررت في ثلاث ساعات من العمليات قد بلغ خمسين طائرة هليكوبتر.

●●●

قبل الرابعة فجراً، صدرت تعليمات إلى أول طائرة من نوع (ميراج) لمغادرة قاعدة (الشعيبة)، وكان على متنها العقيد الطيار (م. ف) الذي دخل إلى قمرة القيادة دون أن يعرف الأهداف التي سيهاجمها، وانطلق خلال دقائق في اتجاه الجنـــوب، وصار يستمع، بعدئذٍ، إلى آمر القاعدة الجوية وهو يقول له : إستمر جنوباً، فأجاب : لقد عبرت الأجواء الكويتية .. فجاءه الجواب : استمر نحو مدينة الكويت. وخلال أربع دقائق أبلغ القاعدة الجوية أنه بات فوق المدينة، فجاءه الآمر واضحاً هذه المرة : اقصف مدارج مطار الكويت الدولي .. عندئذٍ إستدار يبحث عن موقع مناسب لضرب المطار وأطلق ثلاثة صواريخ في اتجاهه ثم حوّل اتجاهه شمالاً ليعود إلى قاعدة (الشعيبة).

لم تصب الصواريخ الثلاثة مدارج المطار مباشرة وكان ذلك يعني أن المطار ما يزال صالحاً لاستقبال الطائرات وهو أمر كان ينبغي منعه على الفور وبأي ثمن .. فصدرت الأوامر هذه المرة إلى العميد الطيار(م . ن) للقيام بغارة أخرى على المطار لتصحيح الضربة الأولى وقد تزود بخارطة جوية مفصلة لكي تكون إصاباته مباشرة على مدرج المطار حيث نجح في شل حركة الطيران من المديـنة وإليها.

في تلك الأثناء انسحب الطيـــار الأول إلى صالة الإستراحة ليروي لزملائه كيف كان يحلّق في اتجاه الجنوب دون أن يعرف بأنّ هدفــــه سيكون في .. الكويت.

●●●

عند الساعة السابعة صباحاً، حمل وزير الإعلام إلى دار الإذاعة والتلفزيون ملفين كُتب عليهما (رئاسة الجمهورية – السكرتير)، كان في داخل الأول بيانٌ موقع من (حكومة الكويت الحرة المؤقتة) وفي الثاني بيانٌ موقع من مجلس قيادة الثورة. أمضى ثلاثة أشخاص هم (طارق عزيز وحامد حمادي ولطيف نصيّف) الليل كله في كتابة البيانين وطبعهما .. وكان القلق بادياً على وزير الإعلام الذي جلس يشرح الطريقة التي سيذاع بها البيانان .. وطلب في البداية معرفة ما الذي حلّ بالفريق الإذاعي الذي دخل إلى الأراضي الكويتية، ولم يحصل على إجابة قاطعة إذْ أن الإتصالات مع ذلك الفريق كانت تبدو مستحيلة، ولذلك لم يجد غير إقتراح حل آخر، هو أن يذاع البيان الأول الذي يعلن عن وقوع (إنقلاب) في الكويت بعد أن ينسب إلى (إذاعة الكويت الحرة) التي لم تكن موجودة حتى تلك اللحظة، وطلب أن تستخدم إذاعة البصرة في بث مؤقت يحمل اسم الإذاعة الكويتية الجديدة.. كان الوقت يمضي بسرعة، فقد جرى تحديد الساعة التاسعة صباحاً موعداً لإذاعة البيان الأول والتاسعة والنصف موعداً لإذاعة البيان الثاني الذي يعلن بإسم مجلس قيادة الثورة الإستجابة لطلب (ثوار الكويت) الحصول على المساعدة العسكرية من الحكومة العراقية.

لقد تخيل الوزير لحظة مرعبة، هي أن يحصل خطأ في تسلسل إذاعة البيانين اللذين كُتبا بحروف طباعية من نوع واحد وعلى ورق متشابه ووُضع كل منهما في ملف وردي اللون يحمل المواصفات نفسها،فلو حدث وأُذيع البيان الثاني قبل الأول فإنّ مفارقةً سياسيةً مثيرة كانت ستقع.. ولذلك تأبط البيان الثاني وترك البيان الأول في أيدي المذيعين حتى لا تحل عليه لحظة الرعب التي كان يتخيلها ..

.. واستمع العراقيون إلى البيانين، وسط جو من الذهول والمفاجأة، شمل كبار المسؤولين أيضاً بمن فيهم وزير الدفاع نفسه ..

إن آخر من سيعلم بدخول الكويت هو وزير الدفاع ..

لقد إستيقظ الفريق أول الركن عبدالجبار شنشل مبكراً كعادته وانتظر قدوم مرافقه ليذهبا لإجراء فحوصات طبية بناءً على موعد سابق.

كان المرافق قد إستيقظ على أنباء العمليات العسكرية لكنه لم يشأ إخبار وزيره بتلك الأنباء لمعرفته أنّ الوزير كان خارج صورة الحدث تماماً .. وحين إنطلقت بهما سيارة حكومية فارهة اقترح المرافق الإستماع إلى أخبار الصباح عبر مذياع السيارة .. عندها وجد طريقة مناسبة لإعلام

وزيره بما حدث طبقاً لرواية رسمية كانت تتحدث عن (ثورة) في الكويت .. فما كان من الفريق شنشل إلا أن طلب من سائقه تغيير اتجاهه والذهاب إلى مبنى وزارة الدفاع .. ولعله كان يشعر بالصدمة أكثر من أي شخص آخر سواه في البلاد كلها .. لذلك قال مبتسماً : إذا حصل إنقلاب فعلاً في الكويت فإن ذلك سيعفينا من التورط عسكرياً في مواجهة لا ينبغي أن تقـــــع ..

أما رئيس الاركان الفريق أول الركن نزار الخزرجي فقد تلقى إتصالاً هاتفياً من الفريق الركن علاء الجنابي أمين سر القيادة العامة للقوات المسلحة في الثامنة صباحاً يطلب اليه الحضور الى مقر القيادة العامة حيث علم هناك بما حدث..لقد كان خارج حلقة صنع القرار العسكري والسياسي، على الرغم من أنه كان أحد أهم الشخصيات التي خططت و نفذت سلسلة المعارك التي تمخضت عن تحرير الاراضي العراقية من الوجود العسكري الايراني في عامي 1987و1988.. وبعد أسبوع من عملية الكويت التقى الفريق الخزرجي مع رئيس الجمهورية الذي برر عدم إعلام رئيس الاركان بالعملية بكون المهمة قد أُوكلت بالكامل إلى الحرس الجمهوري مع أنّ معاون رئيس الاركان الفريق حسين التكريتي كان قد أخذ علما بالعملية قبل عشرة أيام من موعدها.

تقرر إعفاء الخزرجي من منصبه في 19-9-1990 وتعيينه بصفة إستشارية في ديوان الرئاسة، واكتفت القيادة العامة للقوات المسلحة بتمرير خبر صغير عن حضور الفريق أول الركن حسين رشيد التكريتي حفلا عسكرياً باعتباره الرئيس الجديد للأركان ، غير أن الرئيس عاد فأوكل الى الخزرجي الاشراف على القوات العاملة في القاطع الشمالي ، ثم إستدعاه قي 25-2-1991 وطلب اليه تولي الاشراف على القوات العاملة في القاطع الغربي.. و ظل شبه معزول كقائد عسكري منذ ذلك التاريخ، حتى غادر إلى الأردن سراً في ربيع 1996 ليعلن سعيه للإطاحة بنظام الحكم في العراق..في حين تحركت البلدوزرات لتمسح داره عن وجه الارض في مكانه من مدينة بغـــداد.

أما السيد سعدون شاكر عضو مجلس قيادة الثورة فقد استمع إلى البيانات عبر الإذاعة، ولعله صُعق بما كان يستمع إليه، إذ لم يكن قد شارك في الإجتماعات المحدودة التي بحثت في خطة دخول الكويت، ولم يعرف بما دار في الإجتماع الذي عقد الليلة السابقة إثر عودة عزة إبراهيم ومرافقيه من (جدة)، وانتظر حتى تم إستدعاؤه إلى أول اجتماع لكامل أعضاء القيادة العراقية حيث أبلغه الرئيس في الرابع من آب أنه قد فُصل من عضوية مجلس قيادة الثورة بعد أن أُتهم بعدم الحماس في أداء الواجب وإضاعة أوقاته في شؤونه الخاصة كما أُتهم بحنينه إلى علاقاته الشخصية القديمة بالكويتيين والسعوديين، وأُغلق الطريق بذلك على ملاحظات كان سعدون قد أبداها حول أسلوب التعامل مع بعض أعضاء حزب البعث في الكويت عندما اعترض على معاقبتهم تحت طائلة رفض التعاون في تشكيل حكومة كويتية بديلة.

وطلب وزير الداخلية إعادة زوجته من المطار حيث كانت تهم بالمغادرة إلى باريس .. فقد عرف هو الآخر بما حدث بعد الإستماع إلى الإذاعة.

البحث عـن حكومـــة

توقع الرئيس صدام أن يستغرق إحتلال الكويت أربعة أيام، كما كان ذلك هو المدى الزمني الذي حددته الخطة التي جرى وضعها منتصف شهر تموز "يوليو" 1990، وبُنيت تقديرات الرئيس وقائد الحرس الجمهوري على إحتمال حصول مقاومة من سلاح الطيران الكويتي الذي ستدعمه طائرات أمريكية تنطلق من حاملات الطائرات الموجودة في المحيط الهندي أو من القواعد الجوية في البحرين، ولذلك أعطى الأولوية لمهاجمة القواعد الجوية الكويتية والتركيز على قاعدة (علي السالم) ومطار الكويت، كما أعطى الأولوية للسيطرة على جزيرتي (وربة) و (بوبيان) المختلف عليهما إضافة الى جزيرة (فيلكا) لتكون جميعها منصات مواجهة لأي تدخل قد يأتي عبر البحر.

كما كانت الأولوية الأخرى هي مهاجمة قصر الأمير وولي العهد ومحاولة إعتقالهما أو قتلهما ..

ولم تقع المعركة الجوية الشاملة التي انتظرها الرئيس كما لم تتمكن قوات الحرس الجمهوري التي أُنزلت من الجو من بلوغ مقر إقامة الأمير وولي العهد في وقت مبكر كما كان مخططاً له .. غير أنّ السرعة التي اتسمت بها العملية أغرت صدام حسين بالإندفاع حتى النهاية ودفع عدد إضافي من الجنود صباح الجمعة 3 آب "أغسطس" 1990 ليصبح عددهم 180 ألفاً بعد أن كان العدد المقرر إرساله لا يتجاوز في البداية

100 ألف جندي.

ووصلت يوم السبت 4 آب "أغسطس" أول طائرة نقل لتحمل على متنها ضباط المخابرات من خريجي معهد الأمن القومي الذين يحملون رتباً عسكرية صغيرة لتشكيل أول وحدات للتحقيق مع الأشخاص الذين يتم إعتقالهم، وتوالى نقلهم في خمس طائرات على مدى الأيام التالية ليصبحوا جميعاً تحت آمرة سبعاوي إبراهيم مدير المخابرات يومئذ الذي اتخذ من بناية السفارة العراقية مقرا لعمله إلى جانب علي حسن المجيد الذي عُين حاكماً مطلقاً على الكويت وحسين كامل الذي كان مشرفاً على العمليات العسكرية للحرس الجمهوري، وأستمر هذا الفريق غير المنسجم الذي تتنازعه الخلافات والطموحات، في إقتسام مهمات السيطرة على الكويت .. في حين بدأت عملية إقتسام أخرى .. للغنائم .. والممتلكات بدأها منذ اليوم الثاني السفير عاصم الجعفري التكريتي الذي أمر بتحميل شاحنتين بالبضائع والأثاث والأجهزة الكهربائية والمعدات الصناعية وقطع غيار السيارات .. لتبدأ رحلة السطو المنظمة التي أفتتحها السفير ليُسقط بذلك أي حرج محتمل عن شركائه في السيطرة على الكويت في الأيام الأُول لدخولها.

●●●

بات الشغل الشاغل لثلاثة أشخاص على الأقل، هو البحث عن مواطنين كويتيين يقبلون الإنضمام إلى (حكومة مؤقتة) تعمل تحت آمرة الحرس الجمهوري، وكان أولئك الثلاثة هم : طارق عزيز وحسين كامل وسبعاوي إبراهيم، وعلى الرغم من عدم إنسجامهم مع بعضهم البعض وجفاء العلاقات بينهم، إلا أن كلاً منهم كان يسابق الآخر للحصول على رضا الرئيس في إعلان أسماء مجموعة من الأشخاص ارتضوا الإنضمام إلى حكومة الانقلاب.

وركّز طارق عزيز بمساعدة وزير الإعلام على أسماء شخصيات برلمانية وإعلامية، في حين بدأ سبعاوي إبراهيم في إستدعاء الشخصيات الكويتية التي لازمت منازلها داخل مدينة الكويت لتحضر أمامه في مبنى السفارة العراقية وتجيب على دعواته لتشكيل الحكومة المنتظرة ..

وقد يكون مطلوباً، بهدف التوثيق وصف مواقف عدة، متفرقة، ومتفاوتة التعبير، تشير جميعها إلى حالة رفض من شخصيات كانت إلى آخرلحظة قريبة من القيادة العراقية أو محسوبة عليها أو متعاطفة معها خاصةً في مسألة النزاع مع إيران. ومن تلك المشاهد، أن وزراء عراقيين كانوا يبحثون عن طريق السفارة العراقية في الكويت طوال الساعات الإثنتي عشرة الممتدة من الواحدة فجراً حتى الواحدة ظهراً من يوم الثاني من آب عن الشيخ فهد الأحمد شقيق الأمير، على أمل مفاتحته بتشكيل حكومة بديلة ،وهم يتوقعون إستجابته معتمدين على تاريخه الشخصي في مساندة العمل القومي وتأييد العراق والقضية الفلسطينية دون أن يخطر ببال أحد أنه سيكون في مقدمة حاملي السلاح ضد قوات الحرس الجمهوري التي طالما كان أحد مؤازريها خلال الحرب مع إيران. وأنه سيكون من أوائل الذين قُتلوا برصاص جنود من ذلك

× بعض المشاركين في عملية الفاو :1–الفريق أول الركن عدنان خيرالله وزير الدفاع 2–الفريق أول الركن نزار الخزرجي رئيس أركان الجيش 3–الفريق أول الركن حسين رشيد معاون راج للعمليات 4–الفريق أول الركن إيـــاد فتيح الراوي قائد الحرس الجمهوري 5–الفريق أول الطيار حميد شعبان قائد القوة الجوية 6–اللواء الركن إبراهيم عبدالستار قائد قوات حمو رابي 7–اللواء الركن عبدالواحد شنان آل رباط قائد قوات بغداد 8–اللواء الركن علاء الدين كاظم حماد الجنابي أمين السر العام ق ع ق م 9–اللواء الركن عبدالستار أحمد المعيني معاون راج للإدارة 10–الفريق الركن ماهر عبدالرشيد قائد فل 7 11– الفريق الركن ضياء الدين جمال معاون راج للميرة 12–الفريق الركن يونس محمد الذرب مدير التخطيط 13– الفريق الركن صابر الدوري مدير الإستخبارات العسكرية العامة 14–الفريق الركن صلاح عبود محمود رديف قائد الفيلق السابع 15–الفريق الطيار الركن الحكم حسن علي مدير طيران الجيش 16–الفريق الركن أحمد إبراهيم حماش قائد قوات المدينة المنورة 17–الفريق الركن نجم الدين عبدالله محمد مدير الحركات العسكرية آنذاك 18–الفريق الركن يالجين عمر عادل رديف قائد ق ح ج 19–الفريق الركن محمود فيزي الهزاع رديف قائد فق 1 20–اللواء الركن كافي فليح حسن العاني أمين سر فرع ذي قار العسكري 21–اللواء الركن نوفل إسماعيل خضير قائد فق مع /6 22–اللواء الركن وعدالله مصطفى حنوش قائد القوات الخاصة 23–اللواء الركن لطيـف محل حمود أمين سر شعبة الحرس الجمهوري 24–اللواء الركن غائب حسون غائب قائد القوة البحرية 25–اللواء الركن أزهر سعدالله خليل قائد قوات نبوخذ نصر 26–عبدالجبار محسن مدير التوجيه السياسي 27–حسين كامل رئيس التصنيع العسكري. إضافة إلى ولدي الرئيس وأربعة من مرافقيه ..

الحرس كانوا يقتحمون قصر الأمير.

أما الدكتور عبدالله عبد العزيز الرشيد رئيس الجمعية الطبية الكويتية الذي عُرف بتأييده المعنوي والسياسي للعراق خلال الحرب مع إيران فقد أستدعي إلى مبنى السفارة العراقية لمقابلة سبعاوي إبراهيم الذي طلب إليه تشكيل حكومة كويتية مؤقتة، فاعتذر قائلا إنه لو وافق على ذلك فما الذي يمكن أن يقوله لوالدته .. عندئذ سمع كلمات قاسية فغادر المكان ليحمل حاجاته ويقطع الطريق الصحراوي في إتجاه الأراضي السعودية.

في حين جرى الإتصال مع السيد يعقوب عبد العزيز الرشيد وهو دبلوماسي وشاعر كويتي كان يتردد على بغداد ويقيم فيها بعضا من الوقت، وصادف وجوده فيها يوم بدء العملية، وتمت مفاتحته ليشارك في حكومة مؤقتة، واستمع من وزير الإعلام العراقي إلى حديث مطوّل عن (ثورة الكويت) فأجابه أنه لا يعلم بوجود هذه الثورة، واعتذر عن القيام بأي عمل سياسي لأنه قرر التقاعد نهائيا، واعتكف في مزرعته قرب بغداد لبضعة أسابيع قبل أن يغادر إلى الكويت ثم إلى السعودية ..

غير أنّ ما يتردد في بغداد حول المصير الذي لقيه السيد فيصل الصانع مسؤول تنظيم حزب البعث في الكويت حتى سنة 1988 فكان أكثر مأساوية من سواه، فقد أعتقل في 1990/9/26 ومكث في مدينة البصرة قبل أن يُنقل إلى معتقل آخر في بغداد يوم 1990/12/27 بعد أن أُطلق سراح بضعة معتقلين كويتيين كانوا معه بعد أن توسطت لتحريرهم بعض القيادات الفلسطينية، ويشاع في بغداد على نطاق واسع أنّ الصانع قد أُعدم بتهمة (رفض تنفيذ أمر حزبي) بعد إعتذاره عن تشكيل حكومة كويتية مؤقتة إثر مقابلته مع سبعاوي إبراهيم في معتقله بالبصرة حيث جرى بينهما حوار مرير عبّر فيه الصانع عن إمتعاضه وغضبه مما حصل في الكويت ورفضه فكرة التعاون مع السلطات العراقية و قال : (لو كنتم تريدون تغيير حكومة آل صباح وحسب لاكتفيتم بإرسال مفرزة من الشرطة ولما كنتم مضطرين لإرسال مئات الألوف من الجنود إلى الكويت ..)✕

واكتفى السيد عبدالله أحمد حسين وهو دبلوماسي وأديب كويتي بالعزلة في منزلة ورد الدعوة التي وجهت إليه للمشاركة في حكومة مؤقتة قائلاً إنه سيتفرغ بقية حياته لمعاينة الكارثة .. وصار يردد كلمة (الكارثة) على مسامع كل من اتصل به أو حاول اللقاء معه حتى توفي سنة 1994. وكانت فرصة السيد علي بن يوسف الرومي رئيس تحرير مجلة مرآة الأمة في التخلص من هذا الطلب هي وجوده خارج الكويت خلال الحدث بعد أن جرت محاولات غير ناجحة للإتصال به للغرض ذاته.

وسعى مسؤولون عراقيون للإتصال مع الدكتورة سعاد الصباح التي كانت قد غادرت العراق قبل أقل من عشرين ساعة من لحظة دخول القوات العراقية إلى الكويت، لكنها ردت بإعلان موقف حاسم ضد القيادة العراقية التي سبق أن أيدتها خلال الحرب مع إيران، وكانت هي آخر شخصية كويتية إلتقت الرئيس صدام حسين من غير أن تعرف أن ذلك اللقـــــــــاء سيكون الأخـــير .. وربما لن يتكرر إلى الأبـــــــد .

وفشلت محاولات مماثلة للإتصال مع السيدين أحمد عبد العزيز السعدون وأحمد السقاف اللذين سارعا لإعلان موقفهما ضد ضم الكويت إلى العراق ..وبعد بضعة أسابيع عجز مسؤول فلسطيني كبير في إقناع شخصية قومية كبيرة هو السيد عبدالعزيز الصقـــــــر لتشكيل الحكومة البديلة.

وشعر (طارق عزيز) و (سبعاوي إبراهيم) و (لطيف نصيف) كلّ من موقعه، بفشل محاولاتهم، غير أن حسين كامل وجد في فشل منافسيه فرصة لإبتداع حل آخر، إذْ كان اسم علاء حسين علي مطروحاً منذ البداية، بعد أن قُدم على أنه متعاون مع السلطات العراقية منذ سنة 1981 عندما كان طالبا في كلية الإدارة والإقتصاد بجامعة بغداد، وظل إسمه إحتياطاً في إنتظار معرفة ردود أفعال الشخصيات السياسية والمدنية الكويتية التي رفضت بصورة مطلقة فكرة التعاون، لذلك طلب حسين كامل إحضار جميع الضباط الكويتيين الذين أُسروا في اليومين الأوليين للعملية .. وباشر في توجيه سؤال واحد إلى كل منهم : (هل توافق على أن تكون وزيراً في حكومة ثورية جديدة) .. وكانت ردود أفعال أولئك الضباط موزعة بين الدهشة وعدم إدراك المقصود من ذلك الطلب، وبعد ساعتين اختار حسين كامل ستة ضباط من حملة رتبة (ملازم) في

حين أعاد الآخرين إلى عنابر الأسر.

عندها أبلغ كامل الرئيس صدام أن لديه حكومة جاهـزة يرأسها علاء حسين علي . وجرى على الفور نقل (الأسرى – الوزراء) إلى بغداد حيث أُعطي كل منهم لباساً عربياً وعباءة جديدة ليجدوا أنفسهم فجأة ولأول مرة في حياتهم وجهاً لوجه أمام صدام حسين الذي رحب بهم كوزراء في حكومة وهمية لم تلبث أن استمع أعضاؤها إلى بيان يفصح عن طلب هذه الحكومة في الإندماج مع الحكومة العراقية ..

لقد ضحك الرئيس صدام كثيرا وهو يقول لصهره :

– نمنح علاء حسين رتبة عقيــد .. إنها نفس رتبة معمر القذافي وهي تكفي لرجل يحكم بقعة مثل الكويت ..

ولد علاء في منطقة (النقرة) سنة 1958 من أم بصراوية وأب كويتي كان يعمل مسؤولا للوسائل التعليمية في وزارة التربية الكويتية وهو أب لخمسة أبناء آخرين هم (خالد وأنور وأحمد ومحمد وفيصل)، وكان علاء مقرباً إلى عمه (ناصر الجبر) الذي عمل في الصحافة بعضا من الوقت في حين كان عمه الآخر (جبر الجبر) يعمل في إحدى وكالات بيع السيارات، وكانت أهم مراحل حياته في بغداد عندما إلتحق لتلقي علومه الجامعية في كلية الإدارة والإقتصاد بجامعة بغداد ولم يتذكره أحد حتى تم إستدعاؤه صباح الثاني من آب من مسكنه في منطقة (العُمرية) في الكويت ليكون جاهزاً لمهمة تنتظره في بغداد.

البوليساريو .. هذه المرة

لقد صُدم الرئيس صدام حقاً في مواجهة إدانة عربية وعالمية شاملة، وكان يعتقد أن صلاته التقليدية ببعض الدول ستمنع قادتها من التصريح علانية برفض مـا حـدث، ولذلك تعامل بكثير من الإنزعاج مع الدول التي كان يفترض أن قادتها سيترددون في إدانة موقفه .. وقد حصل ذلك على نحو مثير مع المغرب مثلاً، فقد أسس في السنوات السابقة علاقات هادئة مع الملك الحسن الثاني واستقبل ولي العهد المغربي قبل ثمانية عشر شهراً من موعد الدخول إلى الكويت، وانطوت تلك الصلات على تعبيراتها في دعم العراق ضد إيران خلال حرب السنوات الثماني، ولذلك فقد ذُهل عندما قرأ تقريرا يلخص الإدانة التي صدرت عن الملك الحسن الثاني وحكومة المغرب ضد دخول الكويت، وصار يبحث عن رد عاصف يمس به الخاصرة الموجعة في الرباط، فأصدر أوامره بالتنويه إلى أن (حكومة العراق تفكر بالإعتراف بالبوليساريو وحكومة الصحراء)، وما كاد ذلك الإعلان يخرج عبر وسائل الإعلام يوم الرابع من آب 1990، حتى ذهل مسؤولون عراقيون كثيرون بما إستمعوا إليه وأدركوا أن القرار الكارثي الذي أُتخذ بدخول الكويت ستتـفرخ عنه قرارات سياسية مضطربة من هذا النوع .. وأذكر أن أحد رؤساء تحرير الصحف العراقية هب ّلدى استماعه البيان وصرخ من مكانه في أحد الإجتماعات : هل يُعقل أن نستعدي شعب المغرب كله .. إن موضوعة الصحراء توّحد الحكومة والمعارضة .. الحكم والشعب .. وأي احتكاك بهذا الموضوع سيمس كرامة كل المغاربة ..)

لقد تجرأ بعض السياسيين، كما يندر أن يحدث في العراق، ليقولوا للرئيس – عبر مساعديه – إن هذا الموقف سينعكس سلباً على الحكومة وسياساتها، وحدث ما يندر أن يقع أيضاً، أذ يقبهل صدام حسين التراجع عن ذلك البيان وطلب شطبه بعد أن أُذيع لمرة واحدة .. وربما كان يبحث عن سبيل آخر يرد به .. على المغرب.

توسيع العملية

حصلت بلبلة في المسافة ما بين آمري الألوية عند حافة الحدود الكويتية والسعودية ومقر القيادة العامة للقوات المسلحة في بغداد .. هل نمضي قدما نحو السعودية .. أم نتوقف ..؟ فالأوامر لم تكن واضحة، والموقف السياسي بات يتطور سريعاً ليبعث على الارتباك والفوضى.

كانت هناك دبابات ّمتوغلة في الأراضي السعودية المواجهة للحدود مع الكويت يمكن رؤيتها عن بعد أو بواسطة الأقمار الصناعية ..

غير أنّ الجزم بأن تلك الدبابات كانت في طريقها في الساعات الثلاثين الأُول من العمليات العسكرية لكي تحتل مواقع سعودية هو أمـرّ لا يمكن القطع به، ولعل ذلك ما يفسر القرار الذي أتخذه الرئيس صدام بالتحقيق في خلفيات وجود دبابـــات خارج الحدود الكويتية. وكان التقرير الذي أُعد بعد التحقيق مع العميد الركن بشار قائد الفرقة الآلية الخامسة –التي اتخذت من قاعة (علي السالم) الكويتية مركزاً لها وانتهت بتوغل دبابـــاتها في الأراضي السعودية في منطقة (المناقيش) ومنطقـــة (السالمي)– قد أفاد بأن أربع عشرة دبابة من اللواء 35 الكويتي كانت متجهةً إلى الأراضي السعودية عندما إنغرزت في الرمال أو أن وقودها قد نفذ. ومع ذلك شعر الرئيس بحراجة الموقف فسحب العميد الركن بشار من قيادة الفرقة وقرر تنزيله إلى رتبتين عسكريتين أقل ..

لكن الدعوات التي برزت داخل العائلـــــة للإندفاع بإتجاه السعودية لم تخفـــت ..

فقد جلس ضباط ركن الفيلق الثالث يستمعون الى الأخ غير الشقيق لرئيس الجمهورية سبعاوي إبراهيم في مقر الفيلق في (الجهراء) وكان قد إسترخى على كرسي قائد الفيلق الفريق صلاح عبود الذي بات ملزماً حسب أمر رئيس الجمهورية بأن يستخدم كلمة(سيدي) عند مخاطبة شقيق الرئيس الذي قال لهم: (إن الامور هي أهون مما تتصورون ..إننا نستطيع أخذ الخليج كله خلال ساعات فقط، وأنا مستعد لأن أقود رتلاً يتوجه الى قطر في اربع ساعات ومن هناك نلتف على الاراضي السعودية).

و كان هناك شخصان آخران على مقربةٌ من الرئيس هما على حسن المجيد وحسين كامل يحرضانه منذ البداية على توسيع العملية لتشمل أجزاء أساسية من أراضي المملكة العربية السعودية، ولطالما استمع إليهما في الأسبوع الأول من العملية، وكان يتحفظ في الإستجابة لإلحاحهما، ولعله كان يتوقع نجاح محاولته لتأمين الإتصال مع القيادة السعودية عن طريق أخيه غير الشقيق برزان التكريتي بعد أن شعر بأنّ عزة إبراهيم مبعوثه إلى الملك فهد في اليوم الرابع من آب قد فشل فشلاً ذريعاً في تقديم مبررات دخول الكويت.

غير أن عنصراً جديداً في الموقف السياسي دفع الرئيس صدام إلى اتخاذ قرار مفتوح لتصعيد المواجهة السياسية والإعلامية مع الرياض حين تلقى برقيةً عاجلة من نائبه طه ياسين رمضان الذي كان يحضر مؤتمر القمة العربي الإستثنائي في القاهرة في العاشر من آب ..

وجاء في تلك البرقية : (إلى السيد الرئيس : إنّ هنـاك خطة مدّبرة ضدنا يقودها الملك فهد والرئيس مبارك).

لم ينتظر صدام حسين طويلاً .. فخلال ساعتين من وصول البرقية وجه نداءً مفتوحاً إلى المسلمين لإعلان (الجهاد) ضد أعدائه الجدد في السعودية، وأصدر أوامره على الفور بتأسيس إذاعتين تبث إحداهما على الموجة المتوسطة وتحمل اسم إذاعة مكة ضمن البرنامج العام لإذاعة بغداد، وتبث الثانية على الموجة القصيرة وتحمل اسم إذاعة المدينة المنورة لتحملا هجوماً شاملاً على القيادة السعودية، وكانت أكثر طلباته إثارة هي إخراج تسجيلات حسينية بصوت عبد الزهرة الكعبي تروي قصة مقتل الإمام الحسين عليه السلام لإذاعتها كاملةً عبر الإذاعتين الجديدتين بالرغم من أن التسجيل الكامل لتك القراءات الحسينية كان ممنوعاً في إذاعة بغداد حيث تذاع مقاطع مختارة منها فقط، وبات القصد واضحاً ألا وهو إستخدام مادة إعلامية ممنوعة على العراقيين في حملةٌ موجهة إلى جزء من الشعب السعودي.

ومع ذلك طلب الرئيس صدام التريث في مهاجمة الأراضي السعودية بعضاً من الوقت إعتقاداً منه أن الحملة السياسية والإعلامية الواسعة التي باشرها ضد الرياض وتمريره رسائل عبر وسطاء وأطرافٌ ثالثة ستؤدي إلى عقد صفقة سياسية بينه وبين القيادة السعودية بحيث يجري تحييد الرياض في الصراع الذي انفجر على المنطقة بعد الثاني من آب 1990.

●●●

التقى صدام حسين في الكويت يوم 1990/8/10 بأخيه غير الشقيق سبعاوي إبراهيم الذي كان مديراً للمخابرات مع عدد من كبار ضباط هذا الجهاز ومديريه وحدثهم مطولاً عن دوافع دخول الكويت.

– (هـــل تعتقــدون أن قرار إستعادة الكويت كان قراري الشخصي .. ؟ .. لا .. على الإطلاق لا .. إنها رؤيا في المنام وجدت نفسي ملزماً بالإستجابة إليها ..إنها إرادة اللــه ودورنا هو ان ننفذها وحسب ، وعليكم أن تعرفوا منذ الآن أن الكويت هي البدايــة .... وواجبكم الآن هو أن تهيئوا مستلزمات هذه المهمات لنتلافى الأخطاء التي وقعت في المرحلة الأولى) ..وكرر الأفكـــار ذاتها خــلال لقــاء آخر عقده في الكويت عشـــية الحــــرب ×

وكانت الأوامر قد صدرت من القائد العام للقوات المسلحة إلى الحرس الجمهوري يوم 1990/8/11 لإعداد خطة عملياتية سريعة للإندفاع على ثلاثة أرتال في إتجاه المنطقة الشرقية عبر منطقة المناقيش، والخفجي، وحفر الباطن، وعقد اجتماعا حضره قائد الحرس إياد فتيح الراوي وأربعة من قادة فرقة لتوزيع المهمات وإعطاء الأولوية لسلاح الدبابات واختيار المناطق الرخوة الخالية من المواقع العسكرية المحصنة لتأمين حركة إندفاع سريعة لتتم في عشر ساعات عملية إندفاع واســـعة على غرار تلك التي جرت في الكويت .. ولم تكن هناك ساعة صفر لبدء العمليات، إذڗ أن أوامر القائد العام طلبت (رفع الإستعداد والجاهزية وإعداد خطة سريعة قابلة للتنفيذ الفوري)

وباتت وحدات أربع فرق من الحرس الجمهوري في موقف الشد والإنتظار.

لم تمض أربع وعشرون ساعة حتى صدرت برقية أخرى من القائد العام إلى قائد الحرس الجمهوري يطلب فيها إلية (التركيز على الاستحكامات داخل الكويت وعند حدودها .. والتريث في تنفيذ خطة مهاجمة الأراضي السعودية في الوقت الحاضر).

ولا يمكن حتى الآن الجزم بالأسباب التي كانت تقف وراء قرار التراجع عن مهاجمة المنطقة الشرقية، وقد يبقى سر ذلك موجودا لدى الرئيس صدام حسين لزمن طويل آخر.

وبغض النظر عن الكوابح الدولية التي عطلّت خططاً لتوسيع العملية، ودون الخوض في تفاصيل الموقف السياسي، يبدو من المهم في هذه المراجعة التاريخية تحليل سلسلة من الوقائع التي تغطي فجوات مثيرة من مشهد الإستعداد لغزو السعودية كمرحلة تالية لدخول الكويت.

●●●

بعد أربعة أيام من اندلاع الحرب وقّع صدام حسين بصفته رئيساً لمجلس قيادة الثورة على قرار يعلن إلغاء جميع الإتفاقيات والعهود والمواثيق الموقعة بين حكومتي العراق والمملكة العربية السعودية في سابقة لم تلجأ إليها الحكومة العراقية حتى مع إيران بالرغم من استمرار الحرب العراقية الإيرانية ثماني سنوات متصلة، وبدا من نص القرار – الذي اتسم بالإنفعال وإستخدام مفرداتْ مضطربة في ديباجته وعرض مسوغاته – أن الرئيس صدام لم يكن يلغي ما إلتزم به هو خلال حكمه من إتفاقياتْ وعهود ومواثيق ومعاهدات مع الرياض بل إنه كان يلغي من الناحية العملية كل ما ربط بين الدولتين على مدى ثلاثة أرباع القرن من عصر إستقلالهما .

كانت الفوضى هي التي تطبع السياسات التي فرّخها قرار دخــول الكويت ..

إنّ كل شيء هو وليد للبلبلة سيبدو عملاً ضد الذات، فالرئيس صدام كان يتخلى عن آخر صمام أمـــان عندما أقدم على هذا القرار بطريقة خُيل للكثيرين أنها لن تتكرر كأسلوب عمل في الدولة العراقية الحديثة، فقرار إلغاء العلاقات مع الرياض وخمس عواصم أخرى هي القاهرة وروما وباريس ولندن وواشنطن كان مظهراً آخر للهزيمة وإختياراً للعزلة لأن القرار الذي يُتخذ في دقائق سيتطلب لمعالجة أثاره عملاً مضنياً ومعقداً يستمر لسنوات طويلة وتترتب عليه تنازلات كثــيرة وكبــــيرة ..

غير أن المهم في تفسير ذلك القرار هو أن الرئيس صدام كان قد أعطى تعليماته للقيام بعملية عسكرية واسعة من ثلاثة محاور لإحتلال ما يمكن الوصول إليه من أراضي المملكة العربية السعودية، وكانت تلك المحاور هي (حفر الباطن – المنطقة الشرقية – الخفجي) . وبناءً على ذلك

جرت عملية إحتلال مدينة (الخفجي) التي تقع جنوب الكويت من جهة ساحل الخليج وبعمق يقل عن عشرين كيلومتراً، وكانت المدينة قد أُخليت منذ شهور عدة .. والغريب في الأمر أن أول إشارة وصلت بالخطأ إلى بغداد من القادة الميدانيين في الحرس الجمهوري كانت تتحدث عن (إحتلال المنطقة الشرقية في السعودية) مع أن المسافة بين تلك المنطقة ومدينة الخفجي كانت تمتد لثلاثمائة كيلومتراً.

وشعر الرئيس صدام بأن الطريق قد إنفتحت أمام قوات الحرس الجمهوري للإندفاع إلى ما هو أبعد من ذلك، فزار وزير الإعلام في أحد المخابئ تحت الأرض بمدينة بغداد تلك الليلة وقال له وللحاضرين معه : إستعدوا إن الله يريد لجنودنا أن يحجوا في مكة.

غير أن تلك العملية فشلت بعد أربع وعشرين ساعة، فعاد الرئيس العراقي يبحث في الأسبوع الثاني من الحرب عن صيغة أخرى لإحتلال أراضٍ سعودية، وذهب إلى أحد مقرات الإستخبارات العسكرية في منطقة)العطيفية) على الساحل الغربي لنهر دجلة في بغداد وطلب من كبار الضباط الذين كانوا في ذلك المقر (تنسيق عملية عسكرية واسعة لأسر خمسة آلاف جندي أمريكي لكي يتم شدّ كل منهم فوق ظهر إحدى دبابات الحرس الجمهوري التي ستكلف بالإندفاع عندئذ لإحتلال .. المنطقة الشرقية من السعودية) ..غادر الرئيس ذلك الموقع .. أما ضباط الإستخبارات فقد تبادلوا نظرات الحيرة والإستغراب .. وعادوا يقرأون في أحدث تقارير كانت تردهم من الجبهة عن رفض جماعي للاستمرار في القتال.

النص الكامل للقاء الرئيس صدام حسين مع القادة العسكريين في مقر الفيلق الثالث في الكويت قبل اسبوعين من بدء الحرب:

صدام حسين : كيف الهمة في محافظة الكويت؟

أحد الحضور : اليوم فرحتنا لا حد لها. شوفتك عندنا هي أغلى من الحياة سيدي. فقط أن تكون أنت بخير وتكون لنا خيمة. وإحنا نكفيك مع الرفيق أبو حسن و الرفيق أبو ياسر (علي حسن المجيد إبن عم الرئيس وسبعاوي أخوه غير الشقيق).

علي حسن: سيوفنا مشرعة. والذي يرفع يده، لانقطعها له فحسب بل نمزقها تمزيقا.

صدام : فيكم البركة. لا أريد أن أزيد من معنوياتكم، فأنا أعرفكم جيداً. مرات الإنسان لا يستغني عن العين، الشوف يجعل الصورة كاملة. لهذا السبب قلنا نشوف ونشوفكم... أليس كذلك يا بارق؟

بارق : نعم سيدي.

صدام : العسكر لا يستغني عن الإستطلاع. فعدا عن الخريطة يريد أن يحدج بعينيه، ليرى القصة . هذه عادة أخذناها من العسكر.

يصمت صدام ثم يخاطب بارق مرة أخرى : هل عملت مقراً يا بارق.

بارق : نعم سيدي. اخترنا مقرات أولية وثانوية و بنينا مواقع وتحصينات تحت الأرض.

صدام : ما أخبار الشرطة والأمن والمخابرات والإستخبارات، وبالأخص هؤلاء الأخيرين لأنّ هذا شغلهم.. أليس كذلك؟

أحد الحضور : بخير إنشاء الله..

علي حسن : الحقيقة سيدي نحن نعمل كخلية نحل واحدة، ابتداءً من الرفاق في الجيش الشعبي والمخابرات والشرطة والأمن والإستخبارات بتواصل روحي ما بين الأخوة رؤساء الأجهزة وما بين منتسبي الأجهزة. الحقيقة لم تظهر أي مشكلة ما بين جهاز وجهاز إلى حد هذا اليوم. بالعكس نحس أن هناك تعاوناً وانسجاماً والواحد يعاون الآخر. كل واحد يقول لأخيه خذ من يدي. مثلما ما شرحت لسيادتك، خلال الأسابيع الثلاثة التي مضت طلقة واحدة لم تثر عدا بعض الأشياء البسيطة. وبدأت الأمور تنتظم، الإمكانات تزيد، الأمن والمخابرات بدءوا الآن عملهم المنظم الإستخباري. وصار عندهم وكلاء وقاعدة ومعلومات، الحقيقة الشرطة بدأت عملها منذ الأيام الأولى، المرور كادره قليل.ومديره غير فعال. واتصلت بالأستاذ سمير (سمير عبدالوهاب وزير الداخلية) فأرسل لنا ضابطا برتبة لواء.

صوت : اللواء الركن علي محمد الشلال رئيس أركان الفيلق الثالث سيدي.

صدام : كيف أحوالك. شلونك.

اللواء علي الشلال: زين سيدي. أشكرك سيدي.

صدام : الله بالخير.

الشلال : الله بالخير سيدي.

صدام: المقالات التي تطلع في الجرائد لك أم لغير اسم؟

الشلال: الله يحفظك سيدي . مو حيف).

سبعاوي: باسمك أم بغير اسم؟

الشلال: لا بإسمي.

علي حسن: توجيهات سيادتك كلما نقلها إلى الأخوة في اجتماعات منظمة ومبرمجة. التقي بهم يومياً ونحولها إلى توجه إستراتيجي. أقصد كل توجيهات سياسية الإخوان مسؤولو الأجهزة حاضرون وتستطيعون أن تستفسر منهم لتسمعوا منهم. ولربما عندهم إستيضاحات من سيادتك..

علي الشلال: هذه من الفرص التاريخية النادرة التي يكرم فيها الإنسان بالإضافة إلى تكريمه منذ كامل الخليقة أن تلتقي مع هذا الرمز الشامخ على أرض العراق في (كاظمة). وبالرغم من كل الإعتبارات المعروفة عن هذا القائد العظيم اسمحوا لي إخواني أن أرحب بهذا الرمز. بهذا الرجل العملاق، ولن أسجل لنفسي ولرفاقي هذه الفرصة التاريخية، حين نلتقي للمرة الأولى ويصيبنا هذا الشرف الكبير من بين إخواننا ومن زملائنا في رتبتنا. والذين لم يحصل لهم شرف هذا التكريم ويلتقون على أرض العراق الذي حاول الاستعمار وحاولت الإمبريالية والصهيونية مجتمعة اقتطاع هذا الجزء.

وهذا تأكيد جديد يضاف إلى كل التأكيدات التي صدرت بإيمان عميق على عراقية الكويت. وأعاهدك سيدي بإسم إخواني الأبطال المجاهدين على هذه الأرض، أننا لن نتراجع في أي مهمة مهما كلفنا هذا الأمر من تضحيات حينما نكون على هذه الأرض نقترب من بعضنا أكثر من الأخوة لكن هذا لا يُثْنينا، لا سمح الله فكل من يبقى هنا سيؤدي رسالته كما ينبغي في هذا المكان وأمام حضرتك. لا بد وأن نشيد بالجهود الكبيرة لكل الأخوة الحاضرين ولو أن جهودهم هي على درجات لكن كل ما قدموه يرضي الطموح، ولا أقول يفوق الطموح وسيدي مرت أشهر على هؤلاء الرجال الصامدين ومن يتبعهم وهم يزدادون أيماناً وصلابةً، وزيارتك لنا مثلما عبر أخي ورفيقي العزيز بالرغم من أنها ليست خوفنا على رمز العراق وحرصنا في التأكيد لكن هذا يزيد إيماننا إيماناً، ويزيد إيماننا رسوخاً ويزيد قناعتنا قناعةً مضافة بأن شبر أرض لن نفرط به إن شاء اللـــــه ما حيينا،ونعاهدك مرة أخرى أن نكون عند حسن ظنك وظن العراق وحسن ظن العراقيين كلهم. وندعو اللهم ربي أن يزيدك الإيمان والقوة حتى تقدر تصل إلى أبعد النقاط ليس على أرض العراق، لأنك خرجت عن هذا الإطار إلى ضمائر كل العرب وكل المؤمنين وكل الخيرين، بأنك ليس فقط القائد في القطر العراقي بل أبعد من هذا. وأتمنى لك سيدي مرة أخرى طول العمر لخاطر الخيرين وليس لخاطر نفسي أو من يسمعني في هذا الميدان. أما، مثلما عبر رفيقي العزيز قبل قليل، نحن ليس لدينا مشكلة نطرحها على حضرتك بهذا الحجم أو حتى أصغر. وميدان العمل لا بد أن تصير فيه جزءً من خسائر، وانحرافات هنا أو هناك من إنسان غير واعي أو لربما تدفعه النفس الآمارة بالسوء إلى أخذ مال السوء أو الأموال المحروقة كما أسميها، وحقيقةً سيدي الرئيس أنا بدأت أؤمن تماما، يعني قبل أيام أن ما يحصل الآن على أرض الكويت، كأنه مرسوم من الباري عز وجل، كأنه مصنوع بريشته، بقلمه، بإرادته، مثلا حادث إطلاق الصواريخ على الطائرة العراقية البارحة، يزيد قلوبنا قسوة كي ندمرها تدميراً، مثلما قال سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم، قبل فترة قليلة وبالصدفة شعرت باختصار، فتحت القرآن، ونظرت إلى كلمتين في الصفحة، ووضعت علامة في الصفحة حتى يراها غيري من الرفاق. أو كلمتين في أول الصفحة. بدأت أؤمن تماماً أن هذه هي إرادة الله. وهو أمر الله. لأن ″أمرنا مترفيها″ هو بأمره سبحانه وتعالى. والبارحة ليلاً في السيارة، عندما جئت من المطار، قلت لهم هذه إرادة الله، حتى نحرر هذا المكان، لكي نغير هذا البشر، لكي ″ندمرها تدميراً″، حقيقة بوكلائه في هذه الأرض. ويعرف صدام حسين أنه وكيل أصيل في هذه الأرض. مرة أخرى أقول سيدي الرئيس حماك الله على هذه الأرض، أرض أهلك وأجدادك، ورفاقك، ونحن سيوفك، وأنت تزيد من إيماننا، تزيد من فرحتنا، نظل نستطعمها مدى الحياة. لا سمح الله إحنا ماذا نفعل في الكويت. هكذا أتساءل. نحن زلم ونستطيع ننقل لك الصورة كما هي، ولا حاجة أن تراها في الميدان كما هي.

صدام: ما فيكم قصور وتقصير. .

الشلال :أنفسنا. نقول لك أين أخطاؤنا. إضافة إلى ما رأيته من خلية النحل، أظنها حالة تحدي، لذلك نرى أنفسنا مرتاحين، رأيت اليوم الرفيق بــــارق لم ينزل في الإجازة نريك كل شئ. ونشهد الله على إجازة ولو ليوم واحد.

صدام: أعرف ذلك. وقلت له أمس بكرة تنزل إجازة.

الشلال: يريد يأخذ إجازة من المقاتلين، لكنه يفرك يديه، وشلون يستحي.

صدام: أصحاب غيرة.

الشلال: إحنا شعب لا يوصف. هذا شعب يليق بهذا القائد. وهذا القائد مفّصل على مقاس هذا الشعب. الحمد لله سيدي. ما عندنا شئ نتحدث به. هؤلاء رفاقي أرجوهم إذا كان عندهم شئ يقولونه، بالرغم من وقتك الثمين. الحمد لله والشكر، خير وهمة وسيوف زينة، ونظيفة إنشاء الله.

صدام: الرفاق، أخواني، الأساس، كما قلت لكم، العسكر أعطونا من عاداتهم أن نشوف بالعين ولكن لا. الأساس أن أشوفكم، وأشوف إخوانكم الآخرين، صعب أن أجئ مع كل المقاتلين في مدينة (كاظمة)أو محافظة الكويت. لكن لما أشوفكم، من خلالكم، أشوف، وتنقلون عني إلى إخوانكم ورفاقكم ..يشهد الله أن

اللـــــــــــه أراد هذا الذي حصل ..وليس نحن من أراد و يكـــــاد دورنا آن يكون صفـــــــراً. ولماذا يكون دورنا (صـــفر) في ما أراده الله؟ ...الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان لكي لا يجعل دوره صفـــــــر، ولكن عندما يبدأ قراره يصبح دور الإنسان صفر.. إلا في التطبيق.

أحد الحضور : في القرار نعم صفر. قراره هو.

صدام : في مسائل كثيرة حصلت قبل هذا الذي يخص الكويت كنا نـيتّكل على الله ونقرر. إلا هذا القرار يكاد أن يكون نافـــــــذ ا و جاهزا.. وإرادتنا فقط للتطبيــق. لأن قبل هذا القرار كان الذي حصل قد صممته في عقلي وفي نفسي ، مع أني أعرف أن محافظة الكويت هي عراقية، والمكيدة البريطانية هي التي اقتطعتها من العراق، وأقدر الضرر الذي أصاب العراق حالاً ومستقبلاً من جراء هذا العمل ، ولكن في نفسي قلت ربما هذه المبادئ التي نتحدث عنها في السياسة العربية هي التي ستعوضنا عن الخسارة الفادحة التي أُلحقت بنا جراء المؤامرة البريطانية وشيوخ آل الصباح، الذين إلتجأوا إلى العراق ثم اقتطعوا جزءاً منه. وكان التصميم أن أحاول إقناع أخواني في القيادة أن يوافقوا على أن نحدد الحدود مع محافظة الكويت لكي تكون دولة. لكن نحن، أنا أفاتح جابـــــر، وجابر يقول لي أبو عدي هذي اتركها للجماعة هم يتناقشون بها. فأقول له بكيفك. نقول لهم تعالوا ندرس موضوع الحدود وهم يقولون : لا. ما معنى الحشود موجودة ، مع ذلك يستهزئون بالحشود، ويقولون لرئيس وزراء عربي إن على العراقيين أن يسحبوا حشودهم، لأن المساكين ما عندهم حتى ماي، وإحنا نعطف عليهم مرات. هكذا يستهزئون بالجيش العراقي، ثم يحصل الإجتماع في جــــدة، ويذهب إليه نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزة إبراهيم، ويأتي رئيس وزرائهم السابق ســـــعد، وعندما يلتقون لا يأتي بجديد لرفع الغبن والظلم عن العراق. هم مقتطعون كل هذه الأرض ويتمتع بنصف ثروة العراق 270 ألف كويتي، أليس كذلك، أليس هذا هو عدد أصحاب الجنسية الأولى، مقابل 18 مليون يتمتعون بنصف الثروة الآخر...(يخاطب ابن عمه علي : قائد الفيلق..ألم تجده؟)

علي حسن: سيدي يستطلع جبهة الفيلق الرابع، وأرسلت ضابط ارتباط وراءه.

صدام : لم يصل؟

علي :لا سيدي.

صدام : قال عزة لســعد، هل أنت مخبّـــــــل أو مجنون، تأتي إلى الإجتماع بدون أي حل لكل القضايا العالقة أو المعلقة، كيف تتصور إذا عدت لبغداد وقلت لهم إنك لم تأت بأي حل، ألا ترى الجيش الموجود على مقربة منك.. يعني إلى هذا الحد. ولكن الكويتيين ظلوا يتمادون أكثر.

(يدخل عدد من قادة الفرق).

صدام : إذن عندنا كثير من القرارات، نحن نبادر بها، والإنسان مسيّر تارة ومخيّـــــــر تارة أخرى، مثلما تعرفون. وكلكم نـــاس مؤمنون ، وكل واحد يستطيع أن يستذكر جانبا وقدرا مما يؤمن به، كانت عندنا قرارات كان لنا جانب الخيار فيها. ولكن كنا نريد عكس ما وصلت إليه الأمور. الآن بعدما حصل الذي حصل كيف نتصور الأمور. بل حتى قبل هذا، لآن القرار بإستعادة الكويت لم يكن في يوم(2)آب، وهذا أمـــــر طبيعي لأن العمل حتماً سبق يوم(2)آب، وكان القرار واضحا. إن لم تحل الأمور بالطريقة المعتادة، بمعنى زوال المؤامرة عن العراق ورفع الغــــبن، رفع جانب من الغبـن .. الحقيقة لان الغبن لم يكن ليـُرفع إلا بالطريقة التي حصلت ،كان القـــرار قـــرار الله سبحانه وتعالى. كنا نركض وراءهم نريد ترسيم الحدود، وهم لا يقبلون. إذن فإن الله أراد إرجاع الحق لأهله كله. .. آل صبـــــــــاح هــم صلبة (إصلبة) كانوا يبيعون العلك و المعاضد للنسوان و البيوت في قطـر و طفشوهم من هناك ثم رحلوا إلى ايران قبل أن يأتوا إلى العراق..

أحد الحضور : هذا صحيح..

صدام : أهذا جزاءُ العراق الذي دافع عنهم وعن أموالهم ثماني سنوات وهو ينزف دمـــا. أهذا جزاء العراق الذي اقتطعوا جزءا منه حتى يسموا أنفسهم أمراء وتسميات أخرى. لكن، رفاقي أخواني، بيت الفساد لا يستطيع أن يتعايش مع بيت الشرف. لا يمكن. وأنتم حتماً عرفتم قصصا عنهم أكثر، ومنكم سمعت القصص التي سمعتموها. الله سبحانه وتعالى كلفكم أن تزيحوا مركز الفساد، ليس فقط حتى تحافظوا على طهارة العراق، البلد الذي يستحق كل خير، وإنما حتى تفتحوا في جدار الظلم حزمة ضوء كبيرة إنشاء الله ستغطي كل أرجاء الوطن العربي، ويزاح الظلم والفساد من كل أرجاء الوطن العربي لكي ينبني مجتمع عربي جديد بعد خطوتكم في الكويت، وتنبني أمة من الطراز التي قال عنها الله سبحانه وتعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس". وعند ذلك يحق لهم أن يأمروا بالمعروف، لأنهم سبقوا المعروف بالنهي. طالما نهيتم عن المنكر راح يكون من حقكم أن تأمروا بالمعروف بعد هذا. إذن الكويت مع أنها جزء عزيز من أرضنا، والجزء الإستراتيجي الحيوي من كل جنوب العراق لكن الآن تدور على أرضها معركة الشرف الكبرى للامة العربية ككل وليس للعراق أو للكويت فقط، بل ولا أغالي إذا ما قلت يدور على أرضها أحياء جوهر الإسلام ككل. لأن الإسلام، أخواني، ليس فقط أن نؤدي الصوم والصلاة، وإنما، ضمن الفرائض الخمــــــس، مازالت هناك ثلاث فرائض. وليس فقط أن نقول "أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله" وإنما أن نؤدي الحقوق تجاه الإنسان، والزكاة جزء منها وليس كل ما فيها. هؤلاء الناس تجردوا وجردوا حتى أتباعهم، حتى الناس الموجودين عندكم في الشوارع.. وكما قلت في كلمتي لمناسبة مولد الرسول (ص) الله يعاوننا

لنغسل منهم ومن نفوسهم ومن قلوبهم ومن أذيالهم الرجـــس و الخسة ..إذن رسالتكم هي هذه باختصار، رسالة كل مقاتل عراقي وكل عراقي يتحدى الشر ويؤسس بنيان الصمود بوجه كل الرياح التي تتحدى العراق. صف العراق لم يعد صف العراقيين وحدهم بل اصبح صف العرب كلهم. والرسالة أصبحت بعمق كل المبادئ التي جاء بها الله سبحانه وتعالى، وكلف جبريل أن ينقلها إلى محمد (ص) في القرآن الكريم الذي تقرأونه. لا يعني ذلك أن العراق سوف يستمر بعد ذلك دون أن يتآمر عليه أحد، في الميدان السياسي والإقتصادي والعسكري، وإنما الأمة العربية ستبدأ مرحلة جديدة ، والإسلام سيبدأ مرحلة جديدة في مفاهيمه وتطبيقاته. إذن الشرف، شرف الرجال الذي يقاتلون دفاعاً عن هذه القيم بقدر هذه المنجزات المبينة ، من ذلك لا أريد أن أحتكم، لأن كل واحد منكم يعيش هذه التجربة بنفسه، بدليل أنه برغم بُعدكم عن أهلكم وبرغم صعوبة الظروف التي تعملون بها، فأنتم تعملون كما وصف الرفيق علي والرفيق سبعاوي، وكما كنت أسمع ببغداد العمل لا يقوم به إلا ناس يعرفون النتائج التي ستبنى على عملهم وصمودهم ودقتهم واستعدادهم للتضحية. بارك الله بكم وبرفاقكم. وبكل الرجال في القوات المسلحة، والأجهزة الخاصة، الجيش الشعبي، والشعب كل الشعب، من زاخو إلى مدينة النداء، والحمد لله، نستطيع أن نقول الآن أنه موحد في موقفه فكرياً ونفسياً وفعلياً.

ليس من عادتي أن أستهين بالعدو، ولكني أظل أقول إن الذي يعتقد بأنه على حق لا يمكن لقوة في الأرض أن تنازله، وتنتزع الحق من صدره و نفسه ، والحمد لله، نحن مليئون بالشعور بأننا على حق. في ما يتعلق بالمقاتلين أوصيكم أنّ كل سلاح في الأرض فيه عيوب وبقدر ما يكون السلاح متطورا عن سواه، هناك زوايا ميتة وثغرات يمكن من خلالها إضعاف طاقة التميز فيه أو قدرته على التميز ..الأمريكي يبني كل حساباته على أساس هذا الشعور بالتفوق التكنولوجي، فلما يبدأ بهذا التفوق ويرى أن النتائج التي يأتي بها ليست مثلما كان يتصور أو يرسمها على الورق فسيصاب بالإحباط وعندما يصاب بالإحباط يصاب بالهزيمة. هو راح يبعث بطائراته و إنشاء الله يجنبنـــــا الشر لكن نحن دائما نفترض أنّ المعركة واقعة بعد كذا مدى من ذلك مباشرة، وسيبدأ بطائراته، وعندما يرى أن طائراته لا تأتي بنتيجة ينهزم.

أما على مستوى الأرض في الحرب البرية فإنه لن يستطيع بعد عشر سنوات أن يضـــع قـــــوة بقدر قوتنــــا. وبعون الله، إذا دارت المعركــــة، ووقفوا بعدئذ ، وإنشاء الله يقفون، ما نقدر إلا أن نستمر آنذاك .

لأن دبابـــير الشر عندما تستهدف العراق وأرضه، فان الله ينصر العراق عليهم، وهذا معناه أن الله يريدنا أن تسبطوا بالأرض وتضبطوا الجندي قليلاً، وتكون المعركة قد حسمت، وكل طلقاتهم تروح سُدى. لأن الطيارة التي يعتمدون عليها، تعتمد على الإطلاق عن بُعد. والإطلاق عن بُـــعد بدون تبادل رؤية بين الطيار والقذيفة المسيرة فلا يمكن أن يُصيب الهدف. ولذلك، نؤكد عليكم إبقاء الماء تحت الأرض والعتاد تحت الأرض، والجندي والمدفع تحت الأرض، وهذا سيتعبكم في البداية، لأن قسما كبيرا من جنودنا، وخاصة الذين مستوى وعيهم ليس بمستواكم، قياساتهم ما زالت قائمة على أساس ما حصل مع إيران، وهذا جيد لأغراض المعنويــــات. ولكن، في الجانب الفني، اشرحوا لهم أن المطلوب أن نغطس تحت الأرض. أغطـــــس يا أخي تحــــــــــــــت الأرض وأنت تهـــــــــــــزم عدوك. لماذا تنزف دماً. نحن واثقون منك ومن قدرتك على القتال، حتى إذا أعطيت تضحية تستطيع أن تقاتل، ولكن نحن لا نريدك أن تخسر، نريد للإنسان أن يعيش، فلما نعطي التضحية نعطيها اضطرارا، وإذا ما أعطيناها فلن نعيش جميعا. إذن، بقدر ما تستطيعون فقط مطلوب منكم أن تدرسوا خواص سلاح العدو وتذهبوا إلى البساطة في معالجة التفوق، لا تذهبوا للتعقيد. في بعض الحالات غبار العجاج يعالج أعقد الأمور. الدخان يعالج أعـــقد الأمور. خندق النار يعالج أعقد الأمور. تكاتفكم مع المقاتل لا أوصيكم بهم. عين المقاتل دائما على قواده. إذا رآهم حريصين عليه وعلى روحه وطعامه وراحته ومنامه، شعر برباط إنساني قوي معهم. وعند بدء القتال يكون كل الرجال حريصين على النصر. أساس النصـــــر العلاقة الأخوية بين الرجال، الشعور المتبادل بالحرص حتى آخر لحظه عندما يحظـــر قرار الله، لأننا أناس مؤمنون، وأن الله سبحانه وتعالى هو صاحب القـــــرار في الخلق الأول وفي الممات. ومع أننا نؤمن بالحياة، نعرف أن مستلزمات الحياة أن نمـــوت، لا أن نبقى. ولكن هناك فرق بين ميته وميته، ميته اعتيادية، وميته تنطوي، حاشاكم أن تحصل للعراقي، على شيء من العار، وميته التي يريدها الله ولا بد أن تتحقق مع العز والفخر. حماكم الله ..يحميكم كلكم أنتم وسائر العراقيين، وندعو أن يجعل رؤوسكم مرفوعة بالعز والنصر.

(المرافق يبلغ صدام بمجيء قادة بعض الفرق فيأذن بدخولهم).

ثـم يسأل صدام : صلاح عبود ألم يأت ؟

علي حسن: انه يستطلع القاطع سيدي. .. بعد ساعة يرجع.

صدام : سلموا لي عليه. ..

يدخل عدد آخر من قادة الفرق

علي حسن : سأحكي لك كيف كانوا يتلاعبون بالدين، حتى بالأركان الخمسة.وأنت تتحدث حضرتك عن موضوع الزكاة. عندهم هنا، صندوق المعاونة هو أصلا من الزكاة، لكنهم يعطون الأموال منه بالفوائد مع انه من مال الزكاة، أترى كيف يحتالون حتى على الله سبحانه وتعالى. بينما الزكاة هبـــة، صندوق الزكاة

يعطي قروض بالفائدة. صرنا نبحث في أوراقهم وسنداتهم.وعرفنا الكثير من اسرارهم ..

سبعاوي : عندما نقول لك لا نشكو من أية مشكله فحقا أننا لسنا حريصين أن لا نزعجك بأي شيء، لكن صدق لن نخفي عنك شيئاً حتى لو تعلق بنا، فكلنا نعمل بروح رفاقية عالية، الصغير يحترم الكبير، الكبير يحب الصغير، وكلنا بهذه الروحية. والأخوان العسكر رأيتهم مرتين وزرتهم اكثر، وقلت لهم إذا وقعت الواقعة فنحن سوف نتجه شـــــــــــــــرقـــــاً فرأيت بشائر الفرح على وجوههم، الأخوة قادة الفرق رأيتهم مرتين أو ثلاث مرات، إن شاء الله نحن جنودك ونريدك مطمئن البال على الكويت فهي للعراق ولن نعطيها.

صدام : الآن صارت عنوان الأمة، وعنوان كل المفاهيم الإسلامية.

أحد الحضور : زاد عدد المتطوعين في الجيش الشعبي عن ألفين..

صدام : يجب أن يبقى في بالكم أن هؤلاء كانوا يتمتعون بنصف ثروة العراق وهم كم واحد. سيظل صعبا عليهم أن يأتي أهلهم وأخوتهم الآخرون من ألـ 18 مليون المتمتعين بنصف الثروة. هذه عقبه. القسم الأكبر منهم سيرى أن الأمريكي اقرب إليهم من العراقي. لأن الأمريكي يأخذ 60 % ويعطيهم 40 % يسيّرون بها أمورهم. لكن العراقي يعطيه بقدر استحقاقه، وبقدر عمله. وهو غير متعوّد على العمل. هذه صعوبة ستقف أمامكم. مع ذلك نحاول.

علي حسن : سيدي هم صاروا في أمر واقع.

صدام : مع ذلك كثير من الناس عندما يصيرون تحت الأمر الواقع.. تكلموا معهم. قولوا لهم أنتم أُفسدتم لكن الذنب ليس ذنبكم. الذنب ذنب الذي قادوكم أتريدون البقاء في المياه الأسنة أم الذهاب إلى البحر العالي وهو وطنكم إذا بقيتم تتخبطون في المياه الأسنة فهذه راحة الإنسان ..الآن إما أن يصعد للبحر العالي أو يجد طريقاً آخر وإلا فإنه لا يوجد أمل آخر.

صدام : (يعاود توجيه حديثه إلى ا للواء الركن بــــــــــارق) كيف ربعك يا بـــارق؟

اللواء بارق : جيدون سيدي ويسلمون عليك ..كلهم بشرفي يتمنون الأمريكان أن يأتــــوا . بشرفي أقول ذلك.

صدام : الأمريكان يبنون قوتهم على النقاط التي قلتها لكم ..قوتهم مبينة على الإطلاق عن بُـــــعد إذا أعميتموها انتصـــــــــــرتــــم. الإنسان ..ما أكبر الإنسان ،الله عندما جعل محمد (ص) خاتم الأنبياء والمرسلين فمعنى ذلك أنه أوكل النبوة والرسالة إلى الإنسان لكن ليس إلى واحد، بل إلى البشرية بكل صفات الخير. إذن الإنسان كبير ..لكن مرات ترمي عليه قليلاً من التراب في عينيه، فتراه يدور حول نفسه، من ذلك نستخرج قانون الأسلحة المتطورة. نرمي التراب في عينها، بهذه الطريقة أو تلك وهذه الأسلحة كلها تعتمد على المفاجآة والمباغتة على الضربة الأولى.

صدام يوجه كلامه إلى العميد الركن نبيل عبدالرحمن قائد الفرق 18: كيف أحوالك، من زمان ما رأيتك.(ثم يدخل العميد الركن صالح هاشم قائد الفرقة 42).

صدام : إذن نرى قادة الفرق ورئيس أركان الفيلق الثالث – رغم أن قائد الفيلق غير موجود.

(ثم يغادر مسؤولو الأمن والمخابرات..)

صدام : شلون هــمّة العسكر؟

أحد الحضور : بخير. إنشاء الله.

صدام : ألم تكتب مقالات يا علي ؟

علي الشلال : نشرت واحدا أول البارحة.

صدام : قبل أسبوع أم البارحة ؟

الشلال: في الأول من الشهر.

صدام : يمكن، يمكن، نعم... إبراهيم ما أخبار فرقتك؟

إبراهيم : سيدي إن شاء الله على العهد الذي سبق أن وعدتك به. ويزيدني فخرا أنني أحمي القسم الجنوبي من القطر، ودعنا (رأس البيشة)و الآن تسلمنا الساحل، وأطمئنك على الراحة النفسية للمقاتل.

صدام : أخاف أن يأتيكم الأمريكان ويهزموكم.

إبراهيم : شلون؟ ماذا نقول لله و العرب الذّين يصيحون من المحيط إلى الخليج، ها ..؟ إذا انهزمتم هذه المرة، فإنني لا أعرف أين يصفى بي الحال؟ لم نسلّم من قبل شبر أرض واحد. قيادتنا في معركة القادسية. من الفوج إلى الفرقة.

صدام : أنتم نشامى وأنا امزح معكم. لولا ثقتي بكم ما قمت بشيء. قلت لأعضاء القيادة القطرية في اجتماع مختصر إن المعركة (إحلوت) وإذا زاد عدد القوات مرتين ستكون أحلـــــــــــــى. وفي قرارة نفسي مؤمن، لا لغرض رفع معنوياتكم، كلما أسمع أنه جاءت جنسيات جديدة وقوات جديدة فرحت أكثر...سأقول نقطة هي نتيجة خبرة. .في الجيش الواحد تحصل مشاكل تنسيق بين نقاط الإتصال بين فيلق وفيلق. ونروح ننبه قادة الفيالق ليأخذوا بالهم من مكان التقاء

الجناحين في الفيلقين، أي المفصل الحساس الضعيف. وكذلك الفاصلة بين وحدتين. فكيف تستطيع هذه الجنسيات المختلفة بعقائدها المختلفة أن تنسق. صحيح أنّهم ضمن العقيدة الغربية، لكن يوجد داخل كل جيش تفكير. ثم هناك العون الأكبر. الله سبحانه وتعالى. من طرائف الأمور التي من الضروري أن تعرفوها. أنا شخصيا لم أعرفها إلى أول أمس أن شـــــــعـــــــار حـــــزب بوش هو الفـــيـــل ... ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل" أنا عندما سمعتها تماما اندهشت. قلت : يا سبحان الله. يا سبحان الله. الـــحزب الجمهـــــــــــــوري طلع شعاره فيــــــل ..

أحد الحضور : التاريخ الإسلامي يعيد نفسه..الصراع مع الحبشي. سبحان الله. هذه إرادة الله.

علي حسن : واللـــــه وحياتك. منذ عشرة أيام وأنا مؤمن بأنها إرادة اللـــــــه، وليس لنا فيها أي دخل. إيمان مطلق. .مطلق.

صدام : ألا تتذكر عندما قال الرفيق عزة سوف ترى بالنتيجة. إن كل هذه القصور والبيوت سوف ندمرها. تطبيقا لروح الآية التي يقول بها الله سبحانه، لا أحفظ نصها ..ولكن ما معناه إذا قرية أفسدت أمرنا مفسدا بها .

أحد الحضور : ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا. أمرنا أمر اللّه سبحانه وتعالى.

صدام : من كثرة فسادهم وكثرة الظلم الذّي أوقعوه بالعراق. اقتطعوا جزءً منه ويتآمرون عليه مثلما قلت. قبل مجيئكم، كان قرارهم أن يُعروا نساء العراق. يخسئون. لكن الحمد لله نصرنا عليهم وجعلهم يعيشون أذلاء.. أموركم الإدارية ماشية. أهم شيء أن تتابعوا التعليمات التي تصلكم متابعة شخصية.. مثلما قلت لكم كل سلاح فيه نقاط ضعف إذا عالجناها بالبساطة وليس بالتعقيد مثل الإطلاق عن بُعد والتفوق الجوي، كل ما نحتاجه هو أن يكون سلاحك وجنديك غاطسا في الأرض وانتهت هذه الخاصية أو ضعفت إلى أقصى الحدود، لأن الأمريكي معتاد على أفلام رامبـــــــــو، أن يرمي العراقيين فلا يسمع منهم رداً، ولكن عندما يراهم عامرين ومسلحين فسيصاب بالإحباط ..والإحباط يسبب الهزيمة. وإذا اللّه كفانا شرهم من غير نـــــــــزاع بل فقط بالسياســــــــــــــة، يرمون علينا كلاما، ونرمي عليهم كلاما، فان هذه الشـــــــــــغـــلة هيّنة لا تتعب هؤلاء الناس الآن، لا أريد أن أعطف عليهم لأنهم لا يستحقون العطف، لكني أقول إنهم ورطوا أنفسهم ورطة شديدة. جاؤا وزادوا الكيل وتصوروا أن العراقيين سيخافون، ويوميا يطلقون عشرين تصريحاً وعشرات الإذاعات الموجهة، يتصورون أنهم سيهزون أعصاب الشعب ويهزون أعصاب أصحاب القرار فيقدمون لهم تنازلات من غير معركة. لكن ما التنازلات التي نقدمها. ما هو الزائد عندنا حتى نقدمه. ما الباطل عندنا حتى نستغني عنه. بنوا آمالهم على الحصار.. هناك (20) دولة أقفلت حدودها على نفسها وقالت لا نريد العالم. كل المعسكر الاشتراكي، ومنه ألبانيا. وبعضهم اقفل الحدود على نفسه حتى يومنا هذا ولم تمت هذه. كثير منهم ليسوا كالعراق بعض البلدان ليس بها أنهار أو خيرات مثل العراق. إذا أرادوا الحصار فليكن. بالنتيجة هم سيأتون لفك الحصار. لأن 20 % من النفط بيدنا.

علي حسن: سعر البرميل على أبواب 50 دولار.

صدام : سيصلون إلى وضع يقولون معه لنفــك الحصــار لا لأجلهم بل لأجل النفط وعندها تنتهي الأمور. اللّه كتب لكم مـــجداً كبيراً وأهم من ذلك رضى منه عليكم.سلموا لي على الجنود. قادة الفيالق قد يزعلون، فيقولون قرب البصرة الآن شغلته هنا.

علي حسن : شاهدت استخباراتهم، واستحكاماتهم عند الأرض، صلاح قائد الفيلق دمث و عنده أخلاق.

صدام : صلاح عنده نقطة لصالحه بتفوق ..في معركة "توكلنا على الله الرابعة" أعطيناه واجباً ثانوياً بأن يحاول أن يشاغل الإيرانيين، لكنه اخترقهم ووصل إلى جنوب المحمرة..(انتهى)

القســـم الثـــالث

حـــرب أم لا حـــرب

لـم تكن هناك أية صفقـــة لـــمنع وقـــوع الحـــــــرب..بل كانت ثمة افتراضات و أوهـــام وسلسلة مـن حســــــابات خاطئـــــــة.

في انتظار الهاوية

تزايد الإهتمام في العــراق بنظرية حافة الهاوية Brinkmanship (التي اقترنت بوزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق جون فوستر دالاس خلال ولاية الرئيس ايزنهاور مطلع الخمسينات) حتى افترضت القيادة العراقية في الفترة ما بين دخول الكويت والحرب أن بلوغ شفا الهاوية لن يؤدي إلى وقوع الحرب. وتداخل التمني مع ذلك الإفتراض وصار الحديث عن هذه النظرية وكأنها أمر واقع يبعد شبح الحرب وبُنيت عليها حسابات سياسية وعسكرية برغم عدم تناظر الظروف التي ولدت فيها هذه النظرية وما رافقها من صراعات كانت تبلغ شفا الهاوية ثم تتراجع لتدخل في قنوات التسويات الدبلوماسية مع الظروف الجديدة التي أحاطت بالصراع بعد دخول القوات العراقية الكويت .. بمعنى أن أية قضية لا تشبه أخرى وأن أزمة جزيرة الخنازير في كوبا هي غيرها في الخليج هذه المرة، وأنّ إفتراض التشابه كان نمطاً من فنتازيا التمني المبنية على ضعف الإستقراء وعدم فهم المتغيرات الجديدة في العالم وخطورة الصراع الجديد في موضوعه ومكانه عدا عن تبدل مواقف القوى الدولية وغياب مرحلة الحرب الباردة التي طبعت الصراع الدولي بسمة الإستقطاب ومنعت استفراد قوة واحدة بالهيمنة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن متاحاً في الصراع على الكويت استخلاص حل سياسي في لحظة الإقتراب من شـــفا الهاوية بسبب غياب الدبلوماسية الســـرية من جهة .. وعرقلة الدبلوماسية العلنية من جهة أخرى .. لقد كان لا بد من وجود لاعبين إثنين يرتضيان اللعبة ويجيدانها .. ولم يكن هناك مثل دينك اللاعبين لنزع فتيل الحرب في آخر لحظة قبل وقوعها ..

وإزاء ذلك ساد العراق مناخ من الإستسلام لهزيمة مقبلة، واستمر قبول التحدي بمزيد من العناد وكأنه جزء من لعبة يطبعها اليأس وإرتضاء دور الضحية .. بل إن التفسير الوردي للعناد ورفض الإنسحاب كان يذهب إلى أنّ هناك صفقةً قد تكون رُتبت أو أنها كانت تُرتب لمنع وقوع الحرب في اللحظة الأخيرة .. لكن ذلك التفسير كان إيهاماً للذات وللجمهور معاً، فلم تكن هناك أية صفقــة حقيقيـــة بل كانت هناك إفتراضات وأوهام وسلسلة من حسابات خاطئة ..

وبنى الرئيس صدام حساباته أيضاً على إفتراض أن الحرب لو وقعت فإنها ستكون إلى غرار النموذج الفيتنامي وأن الولايات المتحدة لن تتورط عندئذٍ في تحمل خسائر بشرية كبيرة، لكن تلك الحسابات كانت تسقط من حسابها بيئة المعركة، جغرافياً وعسكرياً وسياسياً، ولذلك بدت ضرباً آخر من ضروب التمـــــني .. لا غير.

وأذكر أنّ حسين كامل قال لي ضمن اعترافاته حول أحداث 1990 (إنّ الرئيس صدام كان على قناعة راسخة بأنّ الحرب لن تقع، وأنّ معظم حساباته بُنيت على استبعاد وقوعها، لذلك فإنّه أوصى مساعديه مراراً بالثبات والصمود حتى ينتهي موعد الإنذار الذي أعطاه مجلس الأمن لأن تطورات سياسية كانت متوقعة بعد إنتهاء ذلك الموعد، وأنّه كان يتهيئ للتعامل مع مبادرة سياسية من إحدى الجهات الدولية بعد إنقضاء الموعد الذي حدده مجلس الأمن).

لقد هيمن على القيادة العراقية شعور غير مبرر لإيهام الذات مبني على أنّ هناك من سيأتي لإسترضائها في الساعات الأخيرة قبل ساعات من موعد انتهاء إنذار مجلس الأمن أو بعده بساعات ..وقد أبلغ الرئيس صدام كبار مساعديه بأنه سيتعامل مع أول مبادرة دبلوماسية تقدم إليه بعد انتهاء موعد الإنذار حتى يبرهن بأنـّه تجاوز خط الخوف الوهمي وأنّه هو الذي فرض من جانبه موعداً للتماس الدبلوماسي بعد انقضاء آخر لحظة على الموعد الذي حدده الخصم .. غير أنّ الذي حصل، ولم يكن ليحصل سواه، هو أنّ أحداً لم يكن مستعداً للحديث في إمكانية منع وقوع الحرب بعد حلول موعد وقوعها ..

●●●

يتبين من محاضر اللقاءات التي عقدت مع المبعوث السوفيتي يفغيني بريماكوف خلال ثلاث زيارات قام بها إلى بغداد عشية الحرب وخلالها أن القيادة العراقية أضاعت فرصاً حقيقية لعقد صفقة وسط توفر غطاءً لإنسحاب عسكري منظم بأقل الخسائر السياسية والعسكرية. وقد لا أجد مناسبةً لإعادة نشر محاضر تلك الإحتماعات مرة أخرى ، غير أن بعض تفاصيل لقاء كان قد جرى في تشرين أول "أكتوبر" 1990 بين بريماكوف و حسين كامل تعطي فكرة مباشرة وحادة عن الطريقة التي كانت تُدار بهـا الأزمة.

فقد زار بريماكوف مبنى هيئة التصنيع العسكري لإشعار حسين كامل بأنه محط إهتمام القيادة السوفيتية .. وقال له: (إننا ننظر إليك بإعتبارك الشخص الثاني في القيادة العراقية.) فإنتشى صهر الرئيس وقال مداعباً:

– لا واللــه.. لستُ بالشخص الثاني في الدولة ، حتى أنني لست عضــواً في مجلس قيادة الثـــورة ولا في القيادة القطرية للحزب..(ثم ضحك وأستطرد) إنني مجرد شـــخص عادي..

كان الفريق عامر السعدي والفريق عامر رشيدالعبيدي مساعدا صهر الرئيس، يومئذْ، يشهدان على ذلك اللقاء..

قال بريماكوف: إنني هنا لإسداء النصيحة..فكل ما لدينا من معلومات يشير إلى أن الولايات المتحدة ستوجه ضربة ساحقة ضدكم ما لم تخرجوا من الكويت..وأنا أتحدث إليك لمعرفتي بدرجة صلتك بدائرة صنع القرار..وسنكون مستعدين لمساعدتكم للخروج من الوضع الحالي.

رد صهر الرئيس:

–واللـه إذا وقعت الحرب وطلبت أمـريكا وقف إطلاق النار فلـن نقبل من جانبنا وسنواصل القتال..ونلقنها درساً لن تنساه إلى الأبد..ومن الأفضل لكم أن تبتعدوا عن الأمريكان ، ولا تفكروا بمساعدتهم عندما يطلبون منكم وقف أطلاق النار..

ما أكثر المرات التي فُتن فيها الرئيس بآراء صهره ..

الرئيس والجنرالات

في أيلول "سبتمبر" 1990 عقدت القيادة العامة للقوات المسلحة اجتماعاً ترأسه الرئيس صدام حسين، وطلب فيه الإستماع إلى تقديرات كبار مساعديه العسكريين حول قدرات الولايات المتحدة في حالة وقوع الحرب، وكان على الفريق أول الركن عبدالجبار شنشل وزير الدفاع الذي جلس على يمينه أن يتحدث أولاً، فقال : إن الحرب التي تنتظرنا هي غير الحرب التي خضناها مع إيران، وسنواجه تحديات هائلة أمام التفوق التكنولوجي الأمريكي، ولن يكون بمقدورنا التعامل مع هذا التفوق لأن قدراتنا في مجال التكنولوجيا العسكرية معتمدة على الدول الغربية نفسها وهم يعرفون كل أسرارنا لأنهم مصدر علومنا وأسلحتنا.

فأنتفض الرئيس في وجه وزير دفاعه وقال له : يا أبو مثنى .. يبدو أنك بدأت (تخرّف)، وأن الخوف بدأ يدب في أوصالك ..

والتفت إلى صهره حسين كامل الذي جلس على يساره وطلب منه ملفاً كان قد دخل الإجتماع وهو يحمله .. وقال :

– في هـذا الملف كل استعداداتنا لخوض الحرب ضد التكنولوجيا الغربيـــة .. وسنهزمهم ..

× حاول الفنيون العراقيون تحوير طائرة "اليوشن 76" روسية الصنع من إستخداماتها لأغراض النقل والتحميل إلى إستخدامات مشابهة لوظائف طائرات الإنذار المبكر الأمريكية والبريطانية، وسعى هؤلاء الفنيون منذ مطلع 1989 لتركيب مجموعة من الرادارات المحمولة وأجهزة الإلتقاط الصوري والصوتي بعد أن تم إخلاء الطائرة من كل محتوياتها التي تتعلق بالنقل، وجرت تجربة للطيران بها في شهر آب من 1989 غير أن المحاولة فشلت عندما سقطت الطائرة وقضى الفنيون والملاحون الذين كانوا على متنها ، ثم أُعيدت المحاولة على طائرةٌ أخرى من نفس النوع وتمكنت من الطيران حيث أُلتقط لها شريطُ تلفزيوني بعث به حسين كامل إلى مكتبي في الإذاعة والتلفزيون طالباً الإعلان عن نجاح التجربة وعرض الشريط، وأدركت أنّ النزعة الإستعراضية التي تسيطر على صهر الرئيس هي التي تدفعه للإعلان عن نجاح عملية كانت ما تزال في طور التجريب المحفوف بالمخاطر، فطلبتُ من مساعدي حسين كامل أن يأتوني بأمرْ من رئيس الجمهورية لكي نذيع الخبر ونعرض الشريط، وتدخل وزير الإعلام في تلك الأثناء فتبنى موقف حسين كامل وطلب إعلان الخبر على مسؤوليته، وبعد دقائق من بدء التنويه عن قرب إعلان خبر يتعلق بإنجازْ للصناعة العسكرية بدا أنّ الرئيس الذي كان يراقب التلفزيون قد أُخذ بالمفاجأة، فغضب وطلب على الفور التوقف عن التمهيد لإذاعة الخبر حيث لم يكن صهره قد إستأذن منه لإعلان الخبر كما جرت العادة، ومرت أربعون دقيقة من التوتر والترقب فقد انتبه مشاهدو التلفزيون إلى التغيير المفاجئ في البرامج وإلى التوقف عن الإعلان الذي ينوه بإنجاز صناعي عسكري كبير، وحدثت مفاجأة في القصر الجمهوري عندما هرب حسين كامل من غرفة سكرتير الرئيس وتنصل عن مسؤوليته في طلب إعلان الخبر. ولم يبقَ أمام الرئيس غير التعامل مع الأمر الواقع الذي فرضه صهره ، فأوعز بمعاودة لفت الإنتباه للخبر وطلب إطلاق إسم (عدنان 1) على الطائرة في إشارة إلى اسم وزير الدفاع الذي قُتل في حادث طائرة طالما أُتهم بتدبيره حسين كامل نفســـه.

ثم باشر حسين كامل في عرض ما يحتويه الملف الذي فتن به رئيسه .. وكان من بين ما قاله :

– ستكون طائرة (عدنان واحد×) جاهزة لكشف حركة أية طائرة معادية، وستكون صواريخنا جاهزة لتدمير مواقع العدو في عقر داره.

بعد ساعات من انتهاء الإجتماع .. تسلم وزير الدفاع (الذي تجاوز سبعين عاماً من العمر أمضى منها خمسين عاماً في الجيش) رسالة من رئيسه يقول له فيها : (لقد حان الوقت لنعيدك إلى موقعك السابق كوزير دولة للشؤون العسكرية) .. وحل الفريق أول الركن سعدي طعمة الجبوري وزيراً انتقالياً للدفاع انتهت مهمته هو الآخر بانتهاء حرب الخليج حيث تولى الوزارة حسين كامل صهر الرئيس ثم على حسن المجيد ابن عمه وكلاهما خدم في الجيش برتب متدنية تقل عن رتبة ضابط قبل صعودهما إلى أعلى المواقع في قيادة جيش دولة يعيش فيها سبعة آلاف ضابط من حملة الرتب العسكرية العليا.

●●●

في تلك الأثناء طلب الرئيس من ثلاثة ضباط أن يجتمعوا يومياً لمقارنة المعلومات المتوافرة أمامهم عن الحرب المقبلة، وهم اللواء وفيق السامرائي ممثلاً للإستخبارات العسكرية واللواء المهندس عامر رشيد ممثلاً للتصنيع العسكري واللواء الطيار خلدون خطاب التكريتي ممثلاً للقوة الجوية .. وبعد عشرة أيام انتهى الثلاثة من إعداد تقرير مفصل عن الجوانب الإستخبارية والتكنولوجية للحرب المنتظرة.

إستجمع الثلاثة كل ما توافر في المؤسسات التي يعملون فيها من معلومات وانتهوا إلى الإقرار بصعوبة (خوض حرب ضد الولايات المتحدة وحلفائها بسبب التفوق الإستخباري والتكنولوجي الهائل) وارفقوا بتقريرهم عرضاً بأنواع الطائرات والصواريخ وأسلحة المشاة التي يتوقعون استخدامها من جانب قوات التحالف ضد العراق.

عندما قرأ الرئيس صدام ذلك التقرير كتب عليه معلقاً : (إنكم تفكرون وتتصرفون كمروجين للأسلحة الأمريكية، وهذه عقلية تجار السلاح .. سننتصـــــــــر عليهـــــم ونهزمهـــــم في كـــل الأحــــوال).

كان ذلك التعليق إيذاناً بأن أي نقد أو تحذير سيؤخذ على أنه مظهر للضعف والخوف والتراجع وأن على دعاة تحاشي الحرب أن يصححوا مواقفهم لأنهم قد يصبحون أكباش فداء في مرحلة انتظار الحرب، ولذلك غابت منذ مطلع تشرين أول "أكتوبر" 1990 أية نبرة واقعية لوصف ميزان القوى واحتمالات الصراع العسكرية وغلبت نبرة استعراضية توهم الجمهور وتوهم الذات بوجود (قدرات كامنة وغير منظورة)، وصار قائد القوة الجوية مزاحم صعب التكريتي يبشر رئيسه : (بأن ذبابة لن تدخل أجواء العراق)، في حين خرج الرئيس أمام عدسات التلفزيون ليعلن في كانون أول "ديسمبر" 1990 وقبل أسبوعين من بدء الحرب : (أن بدوياً في الصحراء يستطيع بتراب يذروه في الفضاء أن يعمي التكنولوجيا وطائرات الأعداء) .. وعاد وزير الإعلام إلى القول (إن أعداءنا سيخسرون لأنهم مجرد عبيد للكومبيوتر.)

●●●

وتم إستدعاء عدد من كبار الضباط الذين أجادوا في مُقاتلة الإيرانيين خلال حرب السنوات الثماني – ثم جرى الإستغناء عنهم وإحالتهم على التقاعد بعد انتهاء تلك الحرب – للإستفادة من خبراتهم والحصول على مشورتهم، وكان من بينهم الفريق أول الركن إسماعيل تايه النعيمي الذي قاد الوحدات العسكرية الأساسية في المرحلة الأولى من الحرب مع إيران، وأوفده الرئيس إلى الجبهة لاستكشاف أوضاع القوات المرمية في صحراء الكويت، فأمضى النعيمي بضعة أيام هناك ليعود بتقرير شامل عن ضعف معنويات الجنود، وارتفاع نسبة الهاربين من الخدمة في الوحدات الأمامية، ونقص الأغذية والمياه، وعدم وضوح الرؤية أمام آمري الألوية والأفواج الذي يعجزون عن معرفة المهمات التالية التي ينبغي عليهم تحملها، وانتهى النعيمي إلى القول (بأنّ الجيش لن يصمد بضعة أيام إذا وقعت الحرب). فما كان من الرئيس بعد قراءة تقرير النعيمي إلا أن طلب منه العودة إلى منزله ثانية، وبعث إليه في اليوم التالي سيارة مرسيدس هديةً من القائد العام إلى ضابط كبير عاد ثانية إلى تقاعده من الخدمة.

وبدا أن الرئيس كان مستاءً من الآراء التي عاد بها الضباط الذين أوفدهم إلى الجبهة، فبعث نائبه عزة إبراهيم وهو شخص غير عسكري،

لإستطلاع أوضاع القوات في صحراء الكويت، وقد أمضى المبعوث الجديد ثلاثة أيام عاد بعدها بتقرير يبشر الرئيس بـ (حتمية النصر وكفاءة المعدات العسكرية وإرتفاع معنويات الجنود ..) .. ومنذ ذلك الحين صار الرئيس يضرب المثل بتقرير نائبه للبرهنة على ارتفاع مستوى الإستعداد القتالي في الجبهة.

أما الفريق أول الركن ماهر عبدالرشيد الذي اشتهر بالمهمات التي تولاها في الحرب مع إيران قبل أن يترك الخدمة بعد تحرير شبه جزيرة (الفاو) فلم يستدعه أحد للإستماع إلى آرائه، بعد أن اختار العيش في البادية الغربية للإعتناء بالماشية متأملاً الصحراء متحاشياً من جانبه النزول إلى بغداد حيث كان يمكن أن يلقى مصيراً صعباً لو صرح بآرائه التي قالها في المرة الوحيدة التي قابل فيها صحفياً لم يتمكن من نشر تلك الآراء التي جاء فيها :

(لقد توقعت خسارتنا للحرب لسبب بسيط وهو عدم وجود قادة ميدانيين لهم خبرة كافية في مجال الحرب واعتماد الجيش على الضباط الصغّار الذي حصلوا على رتب عن طريق التكريم والذين لم يضعوا لمبدأ التدرج العسكري، ..وكذلك تم حجّب قادة الحرب الأولى (العراقية الإيرانية) وعدم إشراكهم في القتال، عدا عن أن العراق دخل في حرب غير متكافئة مع عدم وجود إستحضارات كافية لخوض الحرب).

وأضاف لقد (توقعت أن أرى الجنود يهربون من ساحة القتال ويقبلون من هنا .. عبر الصحراء .. وقد حدث ذلك بالفعل ..)

إنّ أحداً لم يطلب رأيه يومئذْ، غير أنّ الإنتفاضة التي وقعت في معظم أنحاء العراق أعادته إلى ذاكرة الرئيس الذي استدعاه لأول مرة بعد ثلاث سنوات مرت على لقائهما الأخير بعد تحرير (الفاو). ويروي الفريق ماهر التفاصيل الآتية عن لقائه مع الرئيس : (عينني الرئيس مستشاراً عسكرياً غير أنه منذ أن إنتهت معارك الفاو لم أتلقى دعوة واحدة، ولم يسألني أحد أو يستشرني في أية قضية والرسالة الوحيدة التي تلقيتها كانت عقب أحداث الجنوب والوسط حيث حمل قصي ابن الرئيس رسالة من أبيه مكتوبة بخط يده ينتخيني فيها لإعانته في القضاء على الشغب).

وقال بأنه اتجه مع زوج ابنته السيد قصي إلى بغداد وكان يرتدي دشداشةً وعقالاً (وهو الزي الذي عاد إليه بعد خروجه من الجيش وإحالته على التقاعد) وقد تجاوزت السيارة التي تنقلهما بغداد باتجاه منطقة الرضوانية وبعد فترة دخلت في نفق تحت الأرض و(سرنا مسافة طويلة انتهت بفسحة، تركنـــا السيارة ودخلنا غرفة ضيقة لا تتجاوز (3 ط 4) أمتار تحتوي على سريـــر عادي وطاولة صغيرة ومصباح وفوجئت برؤية الرئيس هنـــاك بـ(الروب) وكان يشد كفه بضمادة .. فاستقبلني مرحباً وقال إنه في شدة وأن مدن الوسط والجنوب قد إنقلبت عليه وليس له سوى أبناء عمومته، فراعني منظره وانكساره وقلت له بأنني جندي وله أن يأمرني وهنا طلب أن يجلبوا لي بذلتي العسكرية ورتبتي فاعترضت على وضع الرتبة فوق كتفي وارتديت البذلة في الغرفة تاركاً رتبتي العسكرية على الطاولة، وتوجهت في اليوم نفسه إلى (المحاويل) حيث كان الجيش يعسكر هناك .. وأول شئ استفزني في منطقة التحشد العسكري هو أن طه ياسين رمضان كان قد استقر في (كرفان) لوحده وسلب من الجنود (بطغاتهم)، وحالما دخلت أمر أن يجلبوا لي (بطانيات) من الجنود ودعاني لأنرْ أبيت معه فقلت له بأنه مسؤول كبير ومن حقه أن ينام في المكان الذي يريد أما أنا فسأنام مع جنودي.

وبالفعل نمتُ تلك الليلة مع الجنود وكان لهذا التصرف رد فعل عظيم لديهم).

وواصل يقول : (إنه بعد تطهير مدينة الحلة والتوجه إلى النجف أمسك الجنود بثلاثة مدنيين شباب وقادوهم إلى حيث كنا أنا وطه ياسين رمضان .. فاستقبلهم طه بالسباب والشتائم وكال لهما الإتهامات والنعوت وسحب أقسام البندقية وأراد اعدامهما، فقفزت لأكون بينه وبين الجنود وقلت له : إن هؤلاء أسرى وأنا القائد العسكري للعملية ولست بعثيـاً مثلك، فحاول أن يبعدني قائلاً : إنهم خونة والعملية برمتها سياسية أولاً وأخيراً. فاعترضت وقلت له لستُ بعثياً ولا سياسياً أنا رجل عسكري إذا قتلتهم سأقتلك .. فهدأ .. وأطلق سراح الشباب).

ولم تكن لدى عبدالرشيد فرصة ليقول رأيه في عملية الكويت ثم الذهاب إلى الحرب، فقد عاد ثانيةً ليعتني بماشـــيته في صحـــراء تذكّره كل مرة تـــأمل في آفاقهـــا .. بتلك الصحـــــراء التي ابتـــلعت جنوده وضباطـــه ممكن كان يفخر بهم خلال الحـــرب مع إيران.

●●●

طلب الرئيس تشكيل لجنة استشارية تزوده بقراءات سياسية وعسكرية وترفده بمقترحات عملية لمواجهة المأزق الذي ترتب على عملية الكويت، وعهدپ إلى فاضل البراك (مستشار رئيس الجمهورية والمدير السابق للأمن والمخابرات) رئاسة تلك اللجنة التي ضمت في عضويتها اللواء صادق شعبان مستشار الرئيس والسفير عبدالجبار الهداوي ومدير المخابرات سبعاوي إبراهيم إلى جانب عدد من أساتذة العلوم السياسية، غير أن رئيس اللجنة لم يلبث أن أُعتقل بعد ثلاث اجتماعات للجنة ثم أُعدم بعد سنة من انتهاء الحرب بتهمة التجسس .. وتولى رئاسة اللجنة اللواء شعبان .. لكن تلك اللجنة لم تعش غير بضعة أسابيع، إذْ أمر الرئيس صدام بحلها وطلب استشارات عسكرية منفصلة من اللواء صادق شعبان واللواء المهندس عامر رشيد اللذين توقعا أن تُستخدم صواريخ (كروز) على نطاق واسع في الضربة الأولى وأنّ موجةً من الصواريخ ستسبق القصف الجوي، وسيؤدي ذلك إلى شلّ قدرة الطيران وتدمير مراكز القيادة .. عندئذْ طلب الرئيس إطلاعه على مواصفات هذا الصاروخ ومداه وقوته التدميرية. كما توقعا أيضاً أن تتولى طائرات (الكوبرا) اقتناص الدبابات التي انتشرت في أعماق الصحراء لتشلها عن الحركة نهائياً.. لقد كانا يحاولان جاهدين إفهام الرئيس باستحالة خوض الحرب، وسعيا لدفعه إلى الإدراك بأن الهزيمة واقعة لا محالة مستخدمين في ذلك تعبيرات فنية بحتة لتفادي إثارة غضبه نحوهما ..

حين وقعت الحرب توارت أصوات المستشارين الذين رسموا صورة مبكرة للهزيمة في الحرب .. فقد أُعدم البراك بتهمة التجسس .. وتوفي الهداوي .. وغادر اللواء صادق شعبان العراق نهائياً سنة 1991 بعد أن أدرك أن نداءاته كانت تضيع مع عصف الريح.

يقفلون أبواب بغداد و يبشرون بفتح أبواب القدس ..

غلق أبواب بغداد

كانت مبادرةً غير مسبوقة، أن يستدعي صدام حسين رؤساء تحرير الصحف العراقية، لقد تم جمعنا على نحوْ سريع ليلة الثالث عشر من كانون الثاني "يناير" 1991، وكان أرجح احتمال سيرد في الأذهان هو أن الرئيس قرر إطلاق مبادرة سياسية لمنع وقوع الحرب قبل ثمانْ وأربعين ساعة من انتهاء الإنذار الذي أعلنه مجلس الأمن في الخامس عشر من تشرين الثاني "نوفمبر" 1990 و أمهل به الحكومة العراقية خمسة وأربعين يوماً للإنسحاب من الكويت، وإلا فإن اللجوء إلى القوة العسكرية سيصبح متاحاً بعد منتصف يوم الخامس عشر من كانون الثاني .. إذن ما الذي يدفع الرئيس لملاقاتنا قبل ثمانْ وأربعين ساعة من هذا الموعد .. ؟

بدا الأمر مثيراً للحيرة والقلق .. فمعظم الحاضرين لم يتعودوا توجيه الأسئلة إلى رئيسهم الذي كان يفضل عليهم دائماً صحفيين ثانويين من خارج البلاد مع أن معظمهم كان أقل منهم شأناً، كما أن الرئيس صدام نفسه لم يكن في موقع قبول أسئلة مهنية صحيحة، وبعد أن اعتاد توجيه أوامره لصحف مملوكة للدولة كي يهرع الجميع إلى تنفيذ تلك الأوامر .. لقد مرت لحظات حساسة على نحوْ مفرط، فعندما ستقع الحرب قد لا يلتقي هؤلاء ببعضهم البعض مرة أخرى، لا بل إنهم يشعرون في دواخلهم بضغط هائل من الجمهور الحائر الذي أُغلقت أمامه خيارات النجاة بسبب الرفض المطلق وغير المسوّغ لفكرة الإنسحاب من الكويت .. لقد كان هناك شعور عارم بوجود فرص كثيرة للنجاة تضيع من أمام نواظر

شعب كامل .. وكان من الصعب أن يعترف أحد من الصحفيين والمثقفين بأن الإصرار على عدم الإنسحاب هو موقف قابل للتبرير .. ماذا سنقول لأهلنا بعد هذا اللقاء .. إذا لم تحدث المعجزة السارة ، ويعلن الرئيس أمامنا، وليس أمام سوانا من غير العراقيين، أنه سينسحب ويوقف الإستسلام الجماعي للموت .. لنقل إنه كان سيمنع الانتحار الجماعي بالمرة ..

غير أنّ ذلك كله تبدد في بضع لحظات .. فقد حدثت ثلاثُ مفارقات أظهرت أننا نقف على ضفتين متباعدتين .. الرئيس على ضفة .. ومعظم الحاضرين على ضفة أخرى ..

كانت المفارقة الأولى هي في إكتشاف الأسباب التي دعت الرئيس إلى طلب ذلك اللقاء، فقد دخل وزير الإعلام راكضاً كعادته، واتجه إليّ يحمل سؤالاً مكتوباً، أغلب الظن أن الرئيس كان قد أملاه عليه. وطلب إليّ توجيه السؤال إلى الرئيس الذي لم يكن قد حضر إلى القاعة بعد، قرأتُ السؤال الذي صيغ بطريقة تتيح للرئيس أن يقول أمراً محدداً يتعلق بإحدى الخدع التي كان يخشى لجوء الولايات المتحدة إليها في إقناع الجيش العراقي بالإستسلام عندما يتم توجيه رسالة بصوت مشابه لصوت صدام عبر بث إذاعي قد يتداخل مع بث الإذاعة العراقية أو تلفزيون بغداد، لتحمل هذه الرسالة المفترضة دعوة إلى الجنود للإنسحاب من الكويت.

دفعتُ بالملف إلى يد الوزير ثانية وقلت له : إنّ لديّ أسئلتي .. وأنا لم أعد مسؤولاً عن جهاز الإذاعة والتلفزيون حتى أوجه مثل هذه الأسئلة المعدة مسبقاً.

لقد أغتاظ الوزير، لكن فرصته في الرد كانت محدودة، فركض في اتجاه المدير العام للإذاعة والتلفزيون يومئذْ السيد سامي مهدي وطلب إليه قراءة السؤال مسبقاً وإعداد نفسه لتوجيهه إلى الرئيس.

عندما دخل صدام، تطلع في وجوه الحاضرين. كان يريد أن يقرأ ما تجسده ملامحهم، أما هو فبدا مرهقاً بعد اجتماع استمر ثلاث ساعات مع خافير بيريز دي كويار الأمين العام للأمم المتحدة .. وكان من الصعب بمكان أن يبادر معظم الحاضرين إلى توجيه السؤال الأول .. إنّ السؤال الافتتاحي هنا سيحدد إيقاع لقاء صحفي غير معتاد .. ووجدتُها فرصةً نادرة لأنتزع المبادرة وأسأل الرئيس صدام إنْ كان يعتقد بأن الرئيس الأمريكي جورج بوش سيحصل على موافقة الكونغرس بتخويله استخدام القوة وشن الحرب على العراق .. وهل سيتغير الموقف بعد إعلان موقف الكونغرس الذي كان مرتقباً تلك الساعات. لم يكن سؤالاً ليبعث المسرة في نفس الرئيس. وتوقعت أن يفتح ذلك السؤال الباب أمام الحديث في خياريّ الحرب والسلام، لأن مجرد القول بأن هناك فرصة سياسية كان أمراً محرماً يومئذْ. وصعقت عندما افترض الرئيس صدام حسين أن رئيس الولايات المتحدة يتخذ قراره في الذهاب إلى الحرب أو عدم الذهاب إليها على نحو مماثل لما يفعله زعماء العالم الثالث حيث تغيب الشخصية الدستورية للبرلمانات والمؤسسات الإشتراعية التي توفر الغطاء القانوني للسلطة التنفيذية في حالة إعلان الحرب أو إعلان السلام .. لقد كان الرئيس صدام يرى نفسه ولا يرى خصمه في تلك اللحظة وهو يقول :

– من قال لكم إن بوش في حاجة إلى موافقة من الكونغرس حتى يقرر اللجوء إلى الحرب .. إذا كان قد قرر ذلك فإنه لن ينتظر قراراً من الكونغرس.

ولعل من سخريات التاريخ، أن جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي خلال حرب الخليج، توقف عند مسألة إستحصال موافقة الكونغرس على استخدام القوة ضد العراق من زاوية مطابقة للسؤال الذي أثرته مع الرئيس صدام. وأظهر الوزير مقدار التحول الذي كان سيحدث لو لم يحصل الرئيس بوش على موافقة الكونغرس. فهو يقول في مذكراته بعد أربع سنوات من الحرب : (إذا لم نحصل على دعم الكونغرس لإستخدام القوة ضد العراق، فإن علينا آنذاك أن نعلن عن عزمنا احتواءه واستمرار العقوبات وبقاء القوات كما فعلنا سابقاً في ألمانيا وكوريا .. وإذا حصلنا على موافقة الكونغرس ورفض الرئيس صدام الخروج من الكويت، فإن علينا آنذاك المبادرة بالهجوم) .. ويظهر هذا التناقض في الإطلال على آلية صنع القرار في واشنطن كمفارقة مثيرة بين زعيم دولة من العالم الثالث يعتقد أن رئيس الولايات المتحدة سيتصرف على طريقته فلا يسأل أحداً أو يأخذ موافقته على قرار مصيري مثل إعلان الحرب، وبين كبار المسؤولين الأمريكان الذين كانوا يشعرون بالتهيّب

إزاء القرار المنتظر من مجلسي النواب والشيوخ الأمريكيين حول مسألة استخدام القوة من عدمها ضد العراق.

كانت تلك هي المفارقة الأولى .. إن بداية المساجلة قد بدأت بطريقة مخلة بقواعد العلاقة بين الرئيس وممثلي صحافته الحكومية.

أما المفارقة الثانية .. فكانت تتشكل في ملامح الرئيس نفسه وهو يصغي إلى سؤال كتبه هو بنفسه ، .. وبدا كأنه يستمع إليه أول مرة عندما قرأ السيد سامي مهدي صيغة ذلك السؤال الذي ربما بسببه انعقد اللقاء الصحفي اليتيم بين رئيس الدولة العراقية وكبار صحفيي البلاد ..

ابتسم الرئيس صدام عندما فرغ من الإستماع إلى السؤال ثم صار يطمئن الشعب والجيش إلى أنه لن يكون هناك بيان صادر عنه يجيز الإنسحاب من الكويت .. وإن أي دعوة مسجلة بصوت شبيه بصوته ينبغي أن تؤخذ على أنها خدعة قد تلجأ إليها الولايات المتحدة.

كانت تلك هي الرسالة التي أراد أن يبلغها للجيش من جهة .. (لا انسحاب) .. وللأمريكان من جهة أخرى (.. لقد اكتشفنا اللعبة .. فأعيدوا النظر في خططكم) .. وسنرى أنّ كلام الرئيس تلك الليلة أربك أجهزته المدنية والعسكرية عندما أُذيع بيان حقيقي يعلن الإنسحاب من الكويت يوم السادس والعشرين من شباط "فبراير" 1991 .. إذْ حدث ما كان يعده أمراً مستحيلاً ألا وهو الإنسحاب في لحظة الهزيمة .. لقد جرى ذلك الإنسحاب بطريقة مفجعة عندما اتسم بالفوضى على طريق واحد للموت .. كان هو كل ما تبقى لمن تأخر في العودة ..

أما المفارقة الثالثة .. فقد حدثت حين سأل السيد أمير الحلو، وكان يومها رئيساً لتحرير صحيفة (القادسية) إذْ كانت هناك (مبادرة سياسية في اللحظة الأخيرة) .. حيث أغتاظ الرئيس وأجاب بطريقة جارحة : عن أية مبادرة تتحدث .. وأية لحظة أخيرة هذه .. اقفلوا على أهدافكم .. إنني أرى أبواب فلسطين مفتوحة أمامنا ..

كانت تلك الكلمات إيذاناً بانتهاء لقاء لم يترك المسرة في قلب الرئيس، ولم يبعث الأمل في قلـــوب ملايين العراقيين التي كانت متعطشــــــة لكلمة .. الإنســـــحاب.

كان رئيس الدولة العراقية يتحدث عن فتح أبواب فلسطين في حين تيقّن مستمعوه تلك الساعة أن أبواب بغـــــــــــداد هي التي توصد عليهم ليختنقوا خلف مزالجـــها ...

القســـــم الرابــع

التوســل الى أعداء الامس

تعالوا وحـــــــاربوا معنا فشــــعاراتكم

تـُــرفع اليـــــوم في بغـــــــــــداد ..

من رسالة صدام إلى رفسنجاني

لم يكن في إستطاعة شخص مثل عزة إبراهيم، الذي يحتل من الناحية الشكلية موقع الرجل الثاني في القيادة العراقية، إن يذهب بأفكاره وآرائه هو إلى إيران قبل ثلاثة أيام من إندلاع الحرب. لقد حمل معه تعليمات مكتوبة، كان الرئيس صدام قد أملاها على سكرتيره ليعطيها إلى عزة قبل ذهابه إلى طهران، وحاول في تلك التعليمات أن يحدد بدقة المفردات التي يتعين على مبعوثه استخدامها في لقائه مع المسؤولين الإيرانيين. وربما كان الرئيس حريصاً على عدم خروج نائبه عن سياق تعليماته، ولكن هذه الصيغة في تحريك الأشخاص في مثل موقعه قد ضاعفت من شيق المدى الذي سيتحرك فيه المبعوث الذي ذهب يبحث عن حلفاء في طهران.

جاء في تعليمات الرئيس إلى نائبه : (قُل للإيرانيين إن شعاراتكم تُرفع الآن في بغداد، وقد جاء (الشيطان الأكبر) إلى حافاتنا، ولذلك نتوقع أن تشاركوا في المعركة لأنها معركتكم، وإذا كان الإيرانيون راغبين فعلاً في إقامة علاقة جيرة طيبة ومشتركة فلماذا يغلقون الحدود في وجه تدفق السلع بيننا ؟) .. كما جاء فيها (إذا وجد الإيرانيون أننا في حاجة إليهم .. فليكن الله معهم .. قل لهم الله معكم .. وإننا ننظر إلى الأمر بطريقة تجعل كل واحد منا محتاجاً للآخر .. وإذا استطاعت أمريكا أن تكسرنا فلن يبقى عندئذْ نظام وطني أو حزب وطني في المنطقة إلا وسيُطحن .. وقل لهم .. لماذا تسحبون أنفسكم وكأنكم من خارج المنطقة ..).

لقد حفظ عزة إبراهيم تلك التعليمات عن ظهر قلب، فليس أمامه من خيار غير أن يفعل ذلك، لكي يعد نفسه عند العودة لنقل ردود الأفعال عن كل ملاحظة حملها معه من بغداد. وتلك هي عادته، فإذا حمل رسالةً من هذا النوع ترى أن العالم يضيق عليه، ولا تعود لديه القدرة على إبداء رأيه في أصغر الأمور وأقلها شــأنــاً .. فهو يدلي بحلمــه، عندئذْ، ثم يصمــت ..

●●●

أغلب الظن، أنّ الإيرانيين أكتشفوا مستوى الوعي ونمطه في ذهن المسؤول العراقي ، وعملوا على استخدامه كقناة لتمرير إنطباع محدد إلى رئيسه، فالمبعوث العراقي قد يكون الأدنى كفاءة من بين كل السياسيين الذي قدموا بمن بغداد، ولذلك سنحت فرصة نادرة للرئيس هاشمي رافسنجاني، فقد دخل عليه (عزة إبراهيم) بمعيــة (حسن حبيبي) مساعد الرئيس الإيراني، ومعهما أعضاء الوفد العراقي ومترجم إيراني .. وبدأ المسؤول العراقي على الفور في تحديد أسباب زيارته للرئيس الإيراني :

– لا أريد أن أقتطع الكثير من وقتكم، إنني أنقل إليكم تحيات الرئيس صدام حسين وتمنياته، وحرصه على تطوير العلاقات معكم في مواجهة التحدي الإمبريالي الصهيوني.

ثم استطرد :

– أما أنا فيشرفني اللقاء بكم ولا أريد أن نثقل عليكم بموضوعاتنا السياسة التي سنواصل بحثها مع الدكتور حسن حبيبي وقد حققنا نجاحاً كبيراً في مناخ من الثقة والأخوة.

وبادله الرئيس رافسنجاني عبارات المجاملة، وطلب إليه نقل تحياته وتمنياته الشخصية للرئيس صدام حسين، وكاد اللقاء ينتهي بعد عشر دقائق مقسمة على الكلام وترجمته، وهمّ عزة إبراهيم بالمغادرة لكن رافسنجاني فاجأ الحاضرين بقوله :

– أرجـــــو أن تعطونا الفرصة لنجلس وحــــــــدنا ..

وغادر أعضاء الوفـد ولم يبـــق في الغرفة غير ثــلاثة أشـــخاص فقط : رافسنجاني وعزة إبراهيم والمترجم الرئاسي الإيراني الذين ظلوا خلف باب مغلقة لأكثر من ساعة ونصف، وهو الزمن الذي يُفترض أن رافسنجاني أبلغ فيه المبعوث العراقي رسالـةً (خاصة) للرئيس العراقي حول الحرب التي كانت مرتقبة يـومئذْ. ومضت سنة على الأقل، قبل أن تتسرب إلـيّ معلومات عن رسالة دوّنها عزة إبراهيم إلى الرئيس صدام وقال له فيها : (لقد أراد الرئيس رافسنجاني أن يتأكد أننا مستعدون في معركتنا ضد الولايات المتحدة، وطلب معرفة نوع هذه الإستعدادات لأنه يعتقد بأنه من غيران يعرف ذلك لن يستطيع المضي للتحالف معنا دون أن يعرف ما هي خططنا وما هي أهدافنا، وقد قلت له إن أهدافنا معلنة، لكنه أجاب بأنه يريد أن يعرف الأهداف الحقيقية غير المعلنة حتى يستطيع أن يكون ملتزماً معنا).

وأضاف عزة (إنّ الرئيس رافسنجاني أكد أكثر من مرة خلال اللقاء أن إيران ستؤيدنا إذا تعرضنا للعدوان).

وأستبشـــــــر الرئيس صدام بنتائج زيارة نائبه إلى إيران وعدّها ناجحةً ومفيدة ، وأمر بإصدار بيان يعلن عن (غبطته بنتائج زيارة نائبه إلى طهران) .. لكنه كتب على التقرير الذي أعده عزة : (أتمنى أن تكون وعودهم لنا حقيقيـــــــة فعلاً ..).

في تلك الأثناء، كان وزير النقل محمد حمزة الذي يرافق عزة في زيارة طهران قد طلب من المسؤولين الإيرانيين رسمياً إيداع الطائرات المدنية العراقية لدى إيران في حالة نشوب الحرب، وأجابه المسؤولون الإيرانيون بأنّ رافسنجاني أعطى موافقته على هذا الطلب، غير أنّ أحداً من الجانبين لم يبحث في إحتمال نقل طائرات حربية إلى إيران، وكان الأمر مستبعداً، إذْ أنّ العراق سيكون بأمس الحاجة إلى طائراته إذا اندلع القتال، ولم يكن في بال أحد أن يتم نقلها إلى إيران في ساعات الحرب التي يُفترض أنها أُعدت لها ..

●●●

تلقى المدير العام للخطوط الجوية العراقية السيد نور الدين الصافي تعليمات رئاسية في الأسبوع الأخير لإنتهاء المهلة التي أعطاها مجلس الأمن لكي يوزع الطائرات المدنية العراقية وتلك التي جرى الإستيلاء عليها من طائرات الخطوط الكويتية، في مخابئ كانت محصنة في مطار الموصل شمال العراق ومطار المثنى ببغداد .. ونقل ما يمكن نقله إلى الأردن وإيران وموريتانيا وتونس.

وحين أقلعت من مطار بغداد آخر طائرة مدنية عراقية من نوع (جامبو) منتصف ليلية 15–16 كانون الثاني "يناير" 1991 متجهة إلى مدينة نيودلهي لتختتم آخر نشاط للخطوط الجوية العراقية، طلب منها مقر علميات هذه الخطوط في بغداد الإنتقال إلى إيران للإنضمام إلى أربع طائرات مدنية سبقتها إلى هناك.

لكن أحداً لم يكن قد أدخل في حسابه نقل الطائرات العسكرية العراقية إلى إيران حتى مساء الخامس عشر من كانون الثاني "يناير" 1991.

كان التبليغ الذي تلقاه آمرو القواعد الجوية حتى فجر 1991/1/16 هو تهيئة طائرات النقل العسكرية لتكون جاهزة للإنتقال إلى الجزائر أو تونس أو المغرب. وكانت أولى الطائرات العسكرية التي جرى الإعداد لنقلها إلى دول أخرى هي طائرات النقل روسية الصنع من نوع (اليوشن) وما جرى تحويره منها لتستخدم كطائرات استكشاف للإنذار المبكر مما أُطلق عليه سنـــة 1989 اسم (عدنان واحد).

في ظهيرة 1991/1/16، وقبل عشر ساعات من بدء الحرب، صدر أمر جديد ومفاجئ من سكرتير رئيس الجمهورية يقضي بنقل الدفعة الأولى من الطائرات إلى إيران وهي ستّ من نوع (اليوشن 76) ومنها إحدى الطائرتين المحـوّرتين للإستكشاف من نوع (عدنان واحد) – قادها الطيار عماد الدين حماد – إلى أحد المطارات الإيرانية، في حين مكثت الأخرى في مطار (الحبانيـــة) حيث دُمرت بفعل الغارات الجوية التي وقعت في الساعات الأربع والعشرين الأُول من الحـــرب ..

●●●

يبقى السـؤال .. من ابتدع فكرة الذهاب بالطيران الحربي إلى إيران دون ترتيبات مســــبقة .. ؟

لقد تحادث حامد حمادي سكرتير رئيس الجمهورية ذلك اليوم مع محمد حمزة الزبيدي وزير النقل الذي كان قد عاد منذ ثلاثة أيام من زيارة طهران بمعية عزة إبراهيم، وحاول أن يفهم منه تفاصيل الحوار الذي جرى خلال الإتفاق مع الإيرانيين على إيداع الطائرات المدنية في إيران، ثم عاد حمادي لكتابة مذكرة إلى الرئيس يقترح فيها نقل الطائرات الحربية بدءً من طائرات النقل والإنذار إلى إيران على افتراض أن الإيرانيين قبلوا بمبدأ نقل الطائرات إلى أراضيهم وأنهم أظهروا استعداداً غير مسبوق للتعاون، لكن حمادي لم ينتظر موافقة صدام فأصدر تعليماته (بصفته سكرتير الرئيس) لإقلاع الدفعـــة الأولى من الطائرات قبل بدء الحــرب بعشر ساعات .. ثم توالى تدفـــق الطائرات من مكامنها في اتجاه إيران طوال الأسبوع الأول من الحرب تأسيساً على وعد إيراني غير واضح ودون أن تكون ثمة ضمانات لإستعادتها .. لا بل للإتفاق على عدد الطائرات التي هبطت في المطارات الإيرانية ..

هكذا أتاح الخلل الإداري الهائل في البلاد أن يقرر موظف مدني غير معروف بالكفاءة مصير الطائرات الحربية ليتجرد العراق من جزء فعّال من قدراته ويودعها لدى خصوم الأمس الذين انفق العراق مائة مليار دولار للتسلح ضدهم خلال الثمانينات.

●●●

بعد سنة من الحرب، كان بالإمكان تنظيم صفقات تجارية واسعة مع إيران، بعضها متصل بقضايا النفط، حيث كان هناك اتفاق ثلاثي بين الخرطوم وبغداد وطهران، تزود فيه الحكومة العراقية الإيرانيين بنفطْ مصفى، مقابل أن تزود إيران السودانيين بنفطْ خام، كما جرى ترتيب زيارات أمنية غير معلنة إلى العاصمتين اشترك فيها رئيس استخبارات الحرس الثوري الإيراني. وتدخل وسطاء إيرانيون مقيمون في سويسرا (من أقارب رئيس الوزراء الأسبق شاهبور بختيار) لترتيب صفقـــات بيـع وشراء بالمقايضة بين الجانبين.

لكن التعامل التجاري والنفطي لم يؤثر في اتجاه ما تعده إيران من ثوابت سياستها مع العراق وأبرزها : إخراج المعارضة الإيرانية من العراق، أو على الأقل

غض النظر عن برنامج سريع لتصفية قادتها في الأراضي العراقية بما يُسقط الحرج عن الجانب العراقي ويخلصه من عبء هذه المعارضة، والسماح بقدوم الحجاج الإيرانيين على نطاق واسع لزيارة العتبات المقدسة في (كربلاء)و(النجف) و(سامراء). وعدم البحث في مصير الطائرات العراقية التي نقلت إلى إيران إبان الحرب إلا في إطار التفسير الإيراني لإلتزامات قرار مجلس الأمن (598) لسنة 1987 الذي نظم وقف إطلاق النار في الحرب العراقية الإيرانية.

غير أنّ شط العرب .. الذي كان موضوع التنازع المزمن على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان، فلم يعد من المسائل التي تثير إهتمام الجانبين .. فهو جثة من مياه غير صالحة للملاحة يحتاج فتح مسالكها إلى أموال طائلة ليست في طاقة البلدين، ولذلك ارتضى الجانبان تأجيل البحث في مستقبله، ربما حتى مطلع القرن الحادي والعشرين .. وحينها يمكن أن يعود الشط ثانية ليكون سبباً في تفجير صراع جديد، قد يكون أصغر حجماً وسعة من الصراعات الدامية السابقة .. لكنه سيكون موضوع اشتباك سياسي محتم .. وآخر عسكري محتمل.

أما الإيرانيون فقد انتظروا أقرب موعد قبل انتهاء المهلة التي أعطاها مجلس الأمن للحكومة العراقية، فأوفدوا مصطفى حائري مدير عام دائرة الخليج في الخارجية الإيرانية آنذاك إلى بغداد ليبحث في آليات التنسيق والتعاون ضد الإمبريالية (في حالة وقوع الحرب) ..

وأقترح حائري خلال لقائه مع وزير خارجية العراق ظهر 1991/1/14 أن تُسلم الحكومة العراقية قادة المعارضة الإيرانية الموجودين في العراق إلى سلطات طهران مقابل فتح الحدود بين البلدين لتمرير الأغذية والأدوية وقطع الغيار وإطارات السيارات، وقال المسؤول الإيراني :

– إما أن تسلموهم إلينا أو أن تسمحوا لأفراد منا بالقضاء عليهم في العراق.

فرد طارق عزيز : إننا لا نستطيع أن نربط بين هذا وذاك، وحتى الآن لم نطلب منكم تسليمنا منظمات المعارضة العراقية الموجودة لديكم لأننا نعتقد أن قاعدة التسليم غير صحيحة .. لكننا نقترح أن تتعهدوا من ناحيتكم بعدم وقوع أي نشاط معارض ضدنا ضمن حدودكم وسنتعهد نحن من ناحيتنا بمنع أي نشاط معادْ لكم أيضاً.

وظل هذا الهاجس يشغل الحكومتين، فكلّ منهما كانت تتربص بالمعارضة الموجودة لدى الآخر، وأتيح للإيرانيين بعد سنوات على انتهاء الحرب أن يقصفوا مواقع مجاهدي خلق القريبة من الحدود ويغتالوا عناصرها في قلب بغداد، ويبدو أن الطرفين، على كل ما بينهما من كراهية وعدم ثقة، كانا يستخدمان بعضهما البعض للتلويح للخصوم الآخرين بإمكانية عقد تحالف بين بغداد وطهران، مع أن الأمر لم يبلغ مثل هذا المستوى من التعامل الموثوق بين الجانبين .

لم يخفه صدام حسين شعوره بالمرارة من الإيرانيين وانتهز أول مرة يزور فيها مدينة عراقية قريبة من الحدود مع إيران بعد بضعة أسابيع على إنتهاء الحرب ليعلن في بلدة (الخالص) يوم 13–5–1991 : لقد خدعنا الإيرانيون.

× حاول الفنيون العراقيون تحوير طائرة "اليوشن 76" روسية الصنع من إستخداماتها لأغراض النقل والتحميل إلى إستخدامات مشابهة لوظائف طائرات الإنذار المبكر الأمريكية والبريطانية، وسعى هؤلاء الفنيون منذ مطلع 1989 لتركيب مجموعة من الرادارات المحمولة وأجهزة الإلتقاط الصوري والصوتي بعد أن تم إخلاء الطائرة من كل محتوياتها التي تتعلق بالنقل، وجرت تجربة للطيران بها في شهر آب من 1989 غير أن المحاولة فشلت عندما سقطت الطائرة وقضى الفنيون والملاحون الذين كانوا على متنها ، ثم أُعيدت المحاولة على طائرةْ أخرى من نفس النوع وتمكنت من الطيران حيث أُلتقط لها شريطُ تلفزيوني بعث به حسين كامل إلى مكتبي في الإذاعة والتلفزيون طالباً الإعلان عن نجاح التجربة وعرض الشريط، وأدركت أنّ النزعة الإستعراضية التي تسيطر على صهر الرئيس هي التي تدفعه للإعلان عن نجاح عملية كانت ما تزال في طور التجريب المحفوف بالمخاطر، فطلبتُ من مساعدي حسين كامل أن يأتوني بأمرٍ من رئيس الجمهورية لكي نذيع الخبر ونعرض الشريط، وتدخل وزير الإعلام في تلك الأثناء فتبنى موقف حسين كامل وطلب إعلان الخبر على مسؤوليته، وبعد دقائق من بدء التنويه عن قرب إعلان خبر يتعلق بإنجازْ للصناعة العسكرية بدا أنّ الرئيس الذي كان يراقب التلفزيون قد أُخذ بالمفاجأة، فغضب وطلب على الفور التوقف عن التمهيد لإذاعة الخبر حيث لم يكن صهره قد إستأذن منه لإعلان الخبر كما جرت العادة، ومرت أربعون دقيقة من التوتر والترقب فقد انتبه مشاهدو التلفزيون إلى التغيير المفاجئ في البرامج وإلى التوقف عن الإعلان الذي ينوه بإنجاز صناعي عسكري كبير، وحدثت مفاجأة في القصر الجمهوري عندما هرب حسين كامل من غرفة سكرتير الرئيس وتنصل عن مسؤوليته في طلب إعلان الخبر. ولم يبقَ أمام الرئيس غير التعامل مع الأمر الواقع الذي فرضه صهره ، فأوعز بمعاودة لفت الإنتباه للخبر وطلب إطلاق إسم (عدنان 1) على الطائرة في إشارة إلى اسم وزير الدفاع الذي قُتل في حادث طائرة طالما أُتهم بتدبيره حسين كامل نفسه.

مع حلول الخامس عشر من كانون الثاني كانت البُنية السياسية والعسكرية على وشك التفكك وسط جو عام من البلبلة والحيرة حول الخيارات التي تبقت للبلاد بعد انتهاء المهلة التي أعطاها مجلس الأمن للحكومة العراقية .. مـــاذا سيفعل الجيش على الأرض .. ؟ وماذا ستفعل الطائرات في السمـــــاء .. ؟ وكيف ستكون الحرب هذه المرة .. ؟ .. والأهم من ذلك من سيكون الحليف هذه المرة .. ؟

كانت هناك بلبلة وفوضى حول مسألة استخدام الأسلحة الكيماوية بعد أشهر من التلويح باللجوء إلى هذا السلاح .. لكن الصورة لم تكن واضحة عند المنفذين كما كانت مرتبكة عند المخططين .. نلجأ إلى هذا السلاح .. أم نتحاشى استخدامه .. ولمن نوجه الضربة الأولى .. وماذا سيكون رد الفعل ضدنا .. ؟

وشهدت قاعدة (البكر) الجوية في منطقة (بلد) شمال شرق بغداد جانباً من تلك الفوضى. فقد جرى يوم 1991/1/15 تحميل خمس عشرة طائرة قاصفة من نوع (سيخوي 24) بقنابل تحمل حشوات كيماوية .. وبقيت الطائرات في حالة إنذار وهي تحت حراسة وحدات من أمن الرئاسة .. ودار همس بين الطيارين بأن هدفهم قد يكون إسرائيل .. لكن أحداً لم يعطهم تعليمات حول مهماتهم المحتلمة .. وظلت الطائرات جاثمة فوق الأرض حتى صباح اليوم التالي 1991/1/16 حين تلقت آمرية قاعدة البكر تعليمات جديدة : (انزعوا العتاد الكيماوي من طائرات السيخوي) .. وعاد الطيارون إلى أوكارهم وكأن الحرب لم تكن مقبلة في الساعات التالية ..

لم يكن هناك تفسير واضح لما جرى في تلك القاعدة .. فالأمر يتجاوز كونه مجرد عرض للقوة .. إذْ أنه تم بكتمان شديد ولم يكن متاحاً تسريب ما جرى خارج القاعدة ليُفسـر على أنه جزء من المبالغات التي اتسم بها الأداء السياسي والإعلامي طوال شهور الأزمة .. لكنه يعكس حالة الارتباك في اتخاذ القرارات وتحديد الأهداف.

بعد أربعين ساعة من بدء الحرب انطلقت طائرات (السيخوي) الخمس عشرة جميعها في اتجاه الأجواء الإيرانية ليبحث طياروها عن مطارات إيرانية قريبة من الحدود يستقرون فيها .. ثم ليعودوا وحدهم من غير تلك الطائرات التي قيل هم يوماً إنها ستضرب إسرائيل.

القســـــم الخامس

التنصل من الهزيمة

الحـــــــــــرب

.. ووقعت الحرب .. وتجللت بغداد بغطاء من نار ودخان وكانت أرضها تقتلع من تحت أقدام ساكنيها بفعل ما تساقط عليها من صواريخ وقنابل، فهرع العراقيون إلى أجهزة الراديو يبحثون عن وصف حكومي لهذه الواقعة المفجعة التي حلت بهم، لكن إذاعة بغداد إستمرت في تقديم برامج عادية، وختمت بثها في موعده المحدد قبل قليل من الثالثة فجراً (بعد ساعة من بدء الحملة الجوية على العــراق) دون أن تكون هناك أية إشارة إلى وقوع الحرب من الناحية الرسمية، في حين كانت كل الإذاعات تعلن من مختلف أنحاء المعمورة عن بدء الحرب.

كان هناك من لا يصدق أن الحرب ستقع، إلى الحد الذي ذهب حسين كامل إلى القصر الجمهوري لإعتقاده بأن إنقلاباً قد وقع .. وأن الغارات التي تعرض لها القصر يقوم بها طيارون مشاركون في الإنقلاب ، في حين تجمّد من تبقى من أعضاء القيادة العراقية في إنتظار ما سيصدر عن الرئيس الذي كان وسط حراسه في أحد بيوته السرية، ولذلك إنتظر العراقيون ساعتين أخريين ليعاودوا الإستماع إلى إذاعة بلادهم وهي تبدأ بثها الصباحي لعلها تشرح لهم ما حدث .. غير أن الإذاعة إستمرت في تقديم برامج عادية، تتخللها أغاني فيروز وعبد الحليم حافظ، وكــأنّ الحـــرب تقع على مسافة بعيدة عــن العـــــراق.

عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً جاء مراسل يعمل في معية الرئيس وهو يحمل شريط كاسيت ليقدمه إلى وزير الإعلام، طالباً إليه إذاعة رسالة مسجلة بصوت الرئيس. وحاول وزير الإعلام جاهداً العثور على الرسالة في مكان ما من الشريط الذي إستمع إليه من وجهيه فلم يجد فيه غير أغــانْ غجـــرية.. وأصابه القلق، وبات يصيح :(أين هي الرسالة .. أين هي ..) حتى جاء أحد الفنيين ليجدها له في موضع يتوسط الشريط الغجري.

وحملت الكلمة المسجلة بصوت الرئيس قوله المفاجئ (لقد غــدر الغـــادرون ..) مما أوحى بــأنّ الخصم قد أخـلّ باتفاق أو عهـد من نوع مــا كان يقضي بعدم اللجوء إلى الحرب، فأثار ذلك شكوكاً لدى الجمهور بإحتمال وجود مثل ذلك التعاهـــد، غير أن حقيقة الأمر هي أن الرئيس ظل حتى اللحظة الأخـــيرة يستبــعد وقوع الحرب ويعتقد أن كلاً من موسكو وباريس ستنتــظران إنقضاء الموعــد المحدد لـــزوال الإنذار الذي أصدره مجلس الأمن لكي تقدما عروضاً وسطاً لحل الأزمة، ممـا لـم يحـدث ولـم يكن له ليحــدث ..

لقد إستهل الرئيس كلمتـه الأولـــى في الـــحرب بعبارتـــــه الشهيرة : (يا محلـى النصـر بعون اللـه) في الوقت الذي كانت فيه بغـــداد ومدن العراق تتحطم تحت القصف لتستدير حركة النهضــــة إلى الخلف نصف قـــرن من الزمان على الأقـــل .

•••

لطالما توعد مزاحم صعب الحسن أحد أبناء أعمام الرئيس الذي كان يتولى منصب قائد القوة الجوية بأن تكون هناك (مظلة جوية تمنع إختراق ذبـــابة واحـــدة لأجواء العراق) مردداً عشية الحرب سلسلة من الوعود بمنع طائرات الخصم من بلوغ أهدافها في العراق ، غير أن الذي حصل هو أن ثلث الطائرات العراقية تحطمت على الأرض في اليومين الأوليين للحرب ولم تستطع الدفاعات الجوية مجاراة قوة النيران المهاجمة.

كان ذلك الطيار من ضباط الصف الثاني في القوة الجوية عندما إختاره الرئيس ليكون قائدا للطيران الحربي بعد الحرب مع إيران مغدقاً عليه رتبة (فريق)، في وقت كانت القوة الجوية تزخر بكفاءات عالية وطيارين معروفين بشجاعتهم ومهارتهم، أُستبعدوا دفعة واحدة ليفسحوا في المجال لصعود القائد الجديد. (ثم لم يلبث أولئك القادة المبعدون من وزن اللواء سالم البصو ورفاقه أن أُعدموا سنة 1993 بتهمة التآمر لإسقاط نظام الحكم).

.. ومن الإنصاف الإستنتاج أنه لو شغل موقع قائد القوة الجوية في اليوم الأول للحرب، أي ضابط آخر من غير المقربين لعائلة الرئيس، لكان مصيره الإعدام ولأُلقيت على أكتافه مسؤولية الهزيمة، غير أن الأمر بات مختلفاً مع قائد الطيران الذي خسر طائراته على الأرض، فالرئيس لا يستطيع إنزال القصاص بمن إختاره هو بنفسه وفضّلـــه على عشرات ممن كانوا أمهـر منه وأشــــجع.. واكتفى، آنذاك، بالطلب إلى

(مزاحم) أن ينسحب من موقعه، وكلف بصورة سرية الفريق الطيار حميد شعبان القائد السابق للقوة الجوية بالعمل (مشـــرفا على القوة الجويـــــــــــة).

لم يصب (مزاحم) غير غضـــــب عابر من جانب الرئيس استمر اثنين وأربعين يوما كان قد عُزل فيهـــا عن موقعه، ليعود بعد إنتهاء الحرب، مرة أخرى، قائداً للقوة الجوية لأربع سنوات أخرى إنتهت بإختيار معاونه خلدون خطاب التكريتي ليصح بدءً من 1995 قائداً جديدا للقوة الجوية العراقية ، في حين عاد الرئيس ليختاره في سنة 1996 لمنصب كبير مرافقيه وحراسه بعد أن فشل في تأمـــين حراســـة ســـماء العراق وأرضـــــه ..

قاتلنا ثماني سنوات من أجل شط العرب ثم تنازلت عنه حكومتنا فما الذي سنأخذه بالدم اليوم لتتنازل عنه حكومتنا غداً؟

جندي عراقي في الكويت

وصف الحرب : الهزيمة في الأعماق

كان وزير الإعلام لطيف نصيّف جاسم، قد فقد خمس كيلوغرامات أخرى من وزنه، بعد إدمانه على تناول كميات كبيرة من حبوب مهدئة، فهو يمضي معظم أوقاته ليلاً ونهاراً داخل غرفة محصنة في الطابق السفلي الثاني من أحد الملاجئ التي بُنيت في بغداد منتصف الثمانينات لتحاشي آثار ضربة نووية، وقد بدأ القلق فعله في إظهار شحوب الوجه وإرتجاف اليدين وبطء الكلام، وكانت تساؤلاته المعتادة كلما التقى رؤساء تحرير الصحف العراقية : ما هذا الذي يحدث .. لماذا يفعلون بنا هذا كله .. قولوا لي ماذا يحصل .. وإلى أين سننتهي ؟ .. كانت كلماته تخرج متحشرجة متقطعة أشبه ما تكون بالنحيب، وطالما كنا نخرج من اللقاء معه، لنسأل بعضنا البعض بكثير من السخرية : ما دام أحد قياديي ّ العراق على هذا النحو من الضعف والتداعي فلماذا كان يطبّل لمقدم الحرب ويهدد الخصوم ويتوعدهم قبل أن تقع .. ؟ ولعل أكثر التعليقات إثارة هي (إن الذين اعتادوا على إرسال الجنود إلى الجبهات ليعيشوا هم في مأمن من مخاطر الحروب باتوا اليوم يحسدون الجنود على وجودهم خارج بغداد) .. وكانت لدى كل منا إجابة واضحة لما نثيره من تساؤلات ونحن نخرج من الملجأ الذي انحشر فيه عشرات من الأشـــــخاص.

لقد أدرك الرئيس نفسه، أن مساعديه باتوا على وشك الإنهيار، ولم تكن لديه فرصة لإجراء تغييرات حكومية خلال الحرب، خاصةً في قطاع الإعلام، حيث لم تكن ثـــمـة حكومـة، وكان الوزراء يعجزون عن الإتصال الهاتفي ببعضهم البعض، لا بل إن رئيس الدولة لم يكن يعرف أين يوجد معظم وزرائه، ومن الذي هرب منهم إلى خارج بغداد، أو من ذهب إلى مزرعة نائية ..ومن الذي بقي في بغداد، عدا عن أن بعض أقارب الرئيس غادروا العراق عشية إنتهاء المهلة التي أعلنها مجلس الأمن. في حين اختفى بعض الوزراء نهائياً، ولم يتمكن الرئيس من الإتصال مع مدير الأمن العام وجاء أحد أقارب الرئيس لإبلاغه بأن المسؤول الأمني الغائب كان في إحدى خلواته فقرر عزله في نهاية الحرب وتعيين حاتم العزاوي محله بصورة مؤقتة قبل أن ينقل أخاه غير الشقيق سبعاوي إبراهيم من موقع مدير المخابرات إلى موقع مدير الأمن.

وكان حظ وزير الداخلية سمير عبدالوهاب أفضل من سواه من أعضاء القيادة العراقية، فقد اتخذ له مقراً مؤقتاً في دائرة الدفاع المدني بمنطقة (الصليخ)، حيث توجد قاعة للألعاب الرياضية، بما فيها لعبة تنس الطاولة، وهو أمر جعل مكانه ملتقىً يتجمع فيه عدد من زملائه أعضاء

القيادة، الذين كانوا يصلون عند العشية ليشاركوه بعض الألعاب ثم ينسلون تحت جنح ظلام دامس كان يجثم على المدينة، ليذهبوا من هناك إلى بيوت آمنة غير بيوتهم الموجودة في المجمعات السكنية التي ألزمهم الرئيس الإقامة فيها بمنطقة الكرخ ليكونوا تحت المراقبة الدائمة، إنهم بلا شك يتمتعون للمرة الأولى بقسط من الحرية التي لم ينعموا بها خلال فترات السلم. إن الحرب تبدو ذات متعة لهؤلاء القلة الذين ارتضوا التخلي عن حرياتهم الشخصية وحريات عوائلهم عندما سكنوا في مجمعات سكنية أو قصور أشرفت دوائر الأمن على إيداع لاقطات صوت فيها، ونصبت أحياناً عدسات الكاميرات الســـرية في غرف النـــوم والإستقبال .. وبيوت الراحـــــة ..

إنهم لم يعودوا يعرفون الكثير عن بعضهم البعض منذ بدأت الحرب، حتى أن الرئيس صدام نفسه بات يستنجد بمعلوماته السابقة حول أماكن الراحة الخاصة بكل منهم ليرسل إليهم حامل رسائل بات عليه أن يستقل سيارات صغيرة بعد أن تخلى معظم المسؤولين العراقيين للمرة الأولى عن استخدام سيارات المرسيدس المصفحة وغيرها من السيارات الفخمة خشية تعرضها لهجوم من جانب طائرات التحالف.

لكن خلوة وزير الداخلية في مقره الخلفي انتهت بعد بضعة أيام من نشوب الحرب عندما قصفت الطائرات الأمريكية مقر الدفاع المدني في (الصليخ) ودمرت أجزاء رئيسة منه ثم عادت مرةً ثانية للإجهاز على ما تبقى فيه من مكاتب وقاعات للألعاب الرياضية ..

أما وزير الإعلام فظل تحت المطرقة .. إذ لم تتبقى غير المحطات الإذاعية العاملة من تحت الأرض، وفي المواضع البديلة بعد قصف محطة الإذاعة والتلفزيون في منطقة (الصالحية)، وبعد أن قُصفت معظم المرسلات الإذاعية في جنوب بغداد وشمالها وفي البصرة ومنطقة غرب العراق، ولم تسلم غير تلك المرسلات التي سبق أن جرى تفكيك أجزائها وتقلها إلى المستودعات، وهي الإحتياط الذي تم الإعتماد عليه لإعادة تشغيل الإذاعات بعد انتهاء الحرب.

●●●

كان تسرب الجنود من مواقعهم المـرمية في أعماق صحراء الكويت هو الأمر الأكثر إثارةً للقلق عند الرئيس، لأن مغادرة أولئك الجنود لمواقعهم دون العودة اليها لم يكن يحمل دلالة واحدة، فهو في جانب يعكس إنهيار الحالة المعنوية وسيادة شعور جماعي بلاجدوى المعركة التي جرى زجهم فيها، ولكنه من ناحية أخرى كان ينذر بعودة جيش من الغاضبين والساخطين الذي لن يصمتوا حتى النهاية على المآسي التي وجدوا أنفسهم وعائلاتهم فيها منذ الثاني من آب 1990 وصولاً إلى الحرب ..

وإجتمع الرئيس صدام مع رئيس الأركان حسين رشيد التكريتي ليدور بينهما حوار ، كان أشبه بمناجاة بطيئة الحركة، تعبر عنها أصوات رتيبة مذهولة، وكان ذلك اللقاء من بين المرات القليلة النادرة التي إلتقى فيها مع مساعديه العسكريين في مقر تحت الأرض بمدينة البصرة يوم 1991/1/23.

قال الرئيس : لديّ تقارير عن هروب جماعي من الجبهة.

فأجاب حسين رشيد التكريتي : نعم هناك تسرب من الخطوط الأمامية، خاصة أولئك الجنود الذي يحصلون على إجازات لزيارة عائلاتهم فيذهبون ولا يعودون ..

فعاد الرئيس يطرح سؤالاً كثير البساطة .. وكثير الغرابة : وما هي أسباب هذه الظاهرة .. لماذا يهربون .. ؟ .. هل صحيح أن الغذاء لا يصل إليهم ؟

قال رئيس الأركان : إن لدى المواقع الأمامية طعاماً طازجاً يكفيهم لثلاثة أيام وأطعمة معلبة ومجففة تكفيهم لأسبوع كامل ولديهم أيضاً موارد كافية من المياه ..

فعلق الرئيس : والله إنه لأمرٌ محيّر ..

.. ثم تساءل : لماذا يهربون إذن ؟

هنا، وجد رئيس الأركان ما يثير به إهتمام الرئيس فقال : إن الإذاعات لا تصل إليهم، وهم منقطعون عن العالم .. وهذا أمر يؤثر في معنوياتهم

..

كانت تلك الملاحظة (التي وردت قبل ذلك من لدن علي حسن المجيد الحاكم العسكري في الكويت) كافية لإثارة غضب الرئيس ونقل مسؤولية الهزائم من فوق أكتاف العسكريين إلى أكتاف الإعلاميين وهم من الحلقات الضعيفة في بنية الحكم الذي تتركز بـــؤر القوة فيه داخل المؤسسات الأمنيـــة.. والعائليـــــة ..

لقد صاح الرئيس:

– نعم .. إنها الإذاعات !

ووجه على الفور رسالة إلى وزير الإعلام :

(الرفيق وزير الإعلام .. الرفيق علي حسن المجيد .. الرفيق سبعاوي .. أعرف أن الفنيين لديكم يستطيعون إيجاد الأعذار لكي يبتعدوا عن الجبهة، ولذلك فإن عدم وجود بث إذاعي يصل إلى الجنود هناك هو أمر غير مسموح به وغير مقبول، ينبغي أن يذهب إلى الرفيق علي حسن المجيد أو الرفيق سبعاوي في الكويت من يبلغه لاتخاذ ما يلزم لكي تكون هناك إذاعة ميدانية موجهة إلى الجنود .. ولن نقبل أسباب الفنيين وأعذارهم).

●●●

كان ما يجري على جبهة الصحراء مختلفاً تماماً عن تلك المجادلات التي تجري في بغداد، فقد استغرق الجنود في حالة يأس وإحباط، وبات من النادر أن يمتنع الضباط والجنود عن إبداء تذمرهم، لا بل وسخطهم على قيادتهم السياسية التي ألقت بهم في أتون معركة خاسرة وفشلت في ملاقاة حاجاتهم الأساسية، في الغذاء والمياه، ولم يكن غريباً أن يعتقل بعد أربعة أسابيع مدير التوجيه المعنوي في القوات المسلحة وكبار مساعديه بتهمة (السخرية من التعليمات التي تصدرها القيادة العامة مطالبة فيها برفع معنويات الجنود) .. ففي تلك الأثناء فضّل مئات الجنود إلقاء أسلحتهم والذهاب مشياً إلى مواقع القوات السعودية لطلب الأغذية في واحدة من أكثر المشاهد إثارة في هذه الحرب، ففي الوقت الذي كانت الخطابات السياسية تتحدث عن مواجهة ساحقة بين جبهتين، كان الجنود يؤسسون بأرغفة الخبز لغة مشتركة، ويختار العراقيون منهم المكوث لدى السعوديين، في موقف لا يمكن وصفه بالإستسلام، أو الأسر.. إنه حقاً أسلوب مثير في التعبير عن رفض الخوض في هذه الحرب.

أما عند الحافات الخلفية من الجبهة فكان الوضع مكملاً لما يجري على الخطوط الأمامية، إذْ تسرب في الأسبوعين الأوليين من بدء الحرب 65% من الجنود إلى الطرق التي تقودهم إلى البصرة ومدن الجنوب العراقي وقد ورد هذا الرقم في واحد من أندر التقارير التي خرجت من هيئة الأركان بعد عشرين يوماً على بدء الحرب .. وكان على الجندي الذي يتمتع بإجازة خمسة أيام أن يبدد ثلاثة منها في الطريق ذهاباً وإياباً ويتحمل نفقات تتجاوز مرتبه الشهري بعشرة أضعافه، عدا عن أن الجنود الإحتياط الذين جرت دعوتهم للخدمة العسكرية بعد أن كانوا قد تسرحوا للتو من ثماني سنوات من القتال مع إيران، تحولوا إلى عقل ساخط في بنية الجيش، فقد أتاحت لهم أعمارهم التي تتجاوز الثلاثين عاماً، وخبراتهم السابقة في الحربين وتجاربهم الـمُرّة فيها، أن يكونوا عناصر تعبئة نفسية معاكسة ضد الحرب.

لقد أوقعت القيادة العراقية نفسها في مأزق ناجم عن ما عُرفت به من إستهانة بالإنسان، فرداً أم مجاميع، إذْ لم تنظر إلى نصف مليون جندي من الإحتياط، كجزء من التكوين النفسي والإجتماعي الذي يفترض دراسة أوضاعه في حالتي الحرب والسلام قبل زجه في مهمات خطيرة، بل جرى التعامل معه، كما في مرات سابقة، كقطيع بشري محسوب بالأعداد، وحسب، بل إن إحتساب قدرته النوعية في القتال لم يكن وارداً أيضاً، فهؤلاء الجنود الذين عادوا من الحرب مع إيران، كانوا ينتظرون التمتع بحق العودة إلى حياة سلمية مدنية وإستئناف مشاريعهم الفردية والجماعية التي تعطلت ثماني سنوات، ولم يكونوا قد انتهوا من جمع أشلائهم وجراحاتهم حتى ألقي بهم في أتون حرب أخرى، ولذلك وجدوا أن ردهم الوحيد على إرغامهم للعودة ثانية إلى الخدمة العسكرية هو في إذلال القرار السياسي الذي تسبب في ذلك وشله عبر التسرب شبه

الجماعي من الجبهات وتجنب القتال، فإما الذهاب طوعاً إلى مواقع الطرف الآخر على الحافات الأمامية، وإما العودة إلى منازلهم وتحدي السلطات إذا حاولت إرغامهم على الإلتحاق بمواقعهم ثانية ..

ولذلك فإن أول قرار وقعّه الرئيس صدام حسين بعد وقف إطلاق النار، كان (إسقاط الملاحقة عن كل جندي ترك وحدته العسكرية)، وأذكر أن صهره و مرافقة آنذاك صدام كامل حمل بيده بياناً وقعه الرئيس وجاء به إلى المقر البديل للإذاعة في الملجأ الذري الواقع بحي القضاة في منطقة الكرخ ليطلب إذاعته في خامس يوم بعد وقف إطلاق النار، حيث كانت مواجهة تلك المعضلة في أولويات السلطة، بعد أن تحول الجنود الساخطون الذين عادوا من الجبهة إلى رأس حربة في التمرد المدني الواسع الذي شمل أربع عشرة محافظة من أصل ثماني عشرة في البلاد.

لقد جرى إلقاء نصف مليون جندي إضافي من قوات الإحتياط كعدد مجرد من تكوينه النفسي ومن غير اعتبار لرأيه السياسي، ولم يكن لهذا الجمع غير اللجوء إلى المقاومة السلبية في حرب كان ضباط الجيش يشعرون فيها بأنهم يُستخدمون لغرض سياسي مؤقت ثم يواجهون أحد مصيرين، فإما الموت في الجبهة أو الموت والعزل بعد إنتهاء الحرب .. إذ كانت تجربة الجيش في الحرب مع إيران ما تزال ماثلة أمام الأبصار، فقد جرى تصفية معظم القادة العسكريين بالإعدام أو العزل بمجرد انتهاء تلك الحرب وانتفاء الحاجة إليهم بعد أن جرى إتهامهم (بعدم الولاء وانتقاد القيادة والإنخراط في بؤر تنظيمية ضد الحكم)، أما ضباط الصف والجنود فلم يتمتعوا بما كانوا يستمعونه عن وعود مرحلة السلام، ومرت عليهم سنتان قلقتان بين حرب كانوا ما يزالون يلعقون جراحاتها وأخرى لم يخطر ببالهم أنها كانت ستقع في يوم من الأيام.

وأذكر أن مبعوثاً تلفزيونياً ذهب إلى الكويت بعد اسبوع من دخولها ثم عاد إلينا بحديث مسجل لأحد الجنود كان يقول فيه : (لقد قاتلنا ثماني سنوات من أجل شط العرب، وعندما انتهت الحرب تنازلت الحكومة عن حقنا فيه .. فمن أجل ماذا سنقاتل هذه المرة .. وعلى ماذا سنحصل ومتى ستتنازل حكومتنا عن ما يمكن أن نحصل عليه بالدم). ولم يكن أمام المخرج الذي شاهد ذلك الشريط غير إتلافه وإخفاء أية معلومات عن جندي استبدت به الشجاعة والصراحة في بلاد تعد فيها مثل هذه الصراحة ضرباً من الإنتحار ..

القسم السادس

الإستسلام للفشل

كانوا يتحدثون عن النصر .. في حين كان العراق يتهدم وشعبه يئن وينزف ..ونساؤه يبحثن عن قطرة ماء صالحة للشرب ..ووزراؤه يهربون من بغداد.

بعد أسبوع واحد من بدء الحملة الجوية على العراق، بدا وكأن الرئيس صدام كان يريد التراجع ، أو أنه بات يبحث عن غطاء نفسي وسياسي يرتب تحت مظلته تراجعاً سياسياً وعسكرياً يضمن الخروج من الكويت بأقل الخسائر .. كانت سبعة أيام كاملة قد مرت على بغداد تحت القصف، لم يكن في استطاعة رئيس الدولة أن يجمع فيها أعضاء مجلس قيادة الثورة وأعضاء قيادة الحزب ، فقد وجد بعضهم أسباباً للبقاء خارج العاصمة، وتظاهر آخرون بأنهم منشغلون في مهمات يصعب فيها تأمين الإتصال معهم، لكنه تمكن من إبلاغهم جميعاً عن طريق مراسلين كانوا يحملون تعليمات مكتوبة بخط اليد : (عليكم الإلتحاق لوجود لقـــــاء مهم ..) وكان حامل تلك التعليمات هو أحد العاملين في طواقم الحماية الرئاسية ممن يعرفهم أعضاء قيادة الحزب والمجلس، فيلتحق به أحدهم ليمضي في شوارع بغداد المقفرة دون أن يـــحق له السؤال عن المكان الذي سيذهب إليه، ولطالما ضلل أولئك المرافقون الشخصيات التي كلفوا بنقلها، فدخلوا في شوارع وعادوا منها ثانية حتى وجدوا لهم سبيلاً إلى مكان تحت الأرض في منطقة الكرخ حيث دخل عليهم الرئيس بعد ساعة من اكتمال تجمعهم في ذلك الموقع ..

إنها الساعة السادسة مساءً من يوم 1991/1/24 .. تطلع صدام حسين في وجوه الحاضرين وخاطبهم :

– .. إنهم يقصفون كل مكان .. حتى بيوت الشعر التي يستخدمها البدو صارت أهدافـاً للقصف ..

ثم التفت إلى وزير الإعلام وقال له: يا رفيق (لطيف)..خذ المراسلين الصحفيين إلى البادية في كربلاء حتى يعرفوا مـا أصاب البدو العُزل هنـاك.

فقال وزير الإعلام :إن لدينا أنصار السلام، ومازال بعضهم موجوداً في فندق الرشيد .. أرى أن نأخذهم في جولات أيضاً ..

وكان الوزير يتحدث عن مجموعة من المراهقين، ومطربي الشوارع وبعض أعضاء الحركات الشبابية الشيوعية التي تفتتت في أوروبا الذين بدأوا زيارة إلى بغداد عشية انقضاء المهـــلة التي أعطاها مجلـــــس الأمن للحكومة العراقيـــة .. ، لم يتمالك طه ياسين رمضان نفسه فقال : ومن هم هؤلاء حتى نعتمد عليهم، هل هم علماء أم سياسيون، إنهم أشـــــخاص لا قيمـــة لهم.

فرد الرئيس : ومع ذلك ليطلع هؤلاء على ما يجري ويأخذوا آخر صورة ليقارنوا بين شعارات الديمقراطية وحالة البدو في الصحراء .. فلماذا يذبحون هؤلاء ..إنه إشباع لغريزة القتل ..

وحاول الرئيس أن يغير مجرى الحديث فنظر إلى سعدون حمادي وقال مازحاً :

– إن الدكتور سعدون× مرتاح هذه الأيام، لأن أحداً لم يعد يسأله عن الموارد هذه السنة وما هي النفقات.

ومرت فترة صمت طويلة، إختفت فيها ابتسامة الرئيس الشاحبة التي رافقت تعليقه على (بخل) سعدون حمادي، ثم عاد يخاطب الحاضرين :

– لقد جمعتكم من أجل البحث في قضية كبيرة .. إن لديّ سؤالاً كبيراً أريد منكم الإجابة عليه : هل يستحق العـــــــــــرب كل هذا الذي يحصل .. ؟ .. هل يحتاج وضعنا إلى هذا النمط من المجابهة .. ؟

إنها المرة الأولى منذ دخول الكويت التي يجلس فيها الرئيس قبالة مساعديه ليسألهم سؤالاً تأخر كل هذه الأشهر التي مضت .. سؤالاً كان حريا أن يُطرح عشية اتخاذ قرار الذهاب إلى الكويت .. ثم كان حرياً أن يُثار في الأشهر الخمسة ما بين الثاني من آب "أغسطس" 1990 والسادس عشر من كانون الثاني "يناير" 1991 .. وهو سؤال شغل العراقيين دون أن يجرأوا على إظهاره، وربما يكون قد شغل أعضاء القيادة العراقية أيضاً، وهو ما يفسر تململ الجالسين في ذلك الإجتماع: إنهم في مواجهة سؤال خطير .. ؟ فهل هو فـــــخ منصوب لهم .. وهل كان بإمكان أحدهم أن يقول : إن المواجهة لم تكن ضـــرورية .. لا بل إن كل ما حصــــــل كان ينبغي ألا يحصل .. ؟

لحظات صمت وترقب كانت تظلل الإجتماع .. فقد شهد بعض الحاضرين مناسبات سابقة، طال فيها الموت رفاقاً لهم كانوا قد وقعوا في مثل هذه الأفخاخ عندما أُستدرجوا إلى الإفصاح عن آرائهم في مواقف أقل حساسية من هذا الموقف .. وكان مصيرهم : الموت .. لأنهم (خونة) و (منحرفون) ..

(ما أصعبها من لحظات) كما يصفها لي أحد الحاضرين في الإجتماع.

لم يعلق أحد حتى تلك اللحظة، لأن الرئيس لم يكن قد طلب من الحاضرين إبداء آرائهم، وعاد هو ليقطع الصمت ثانية :

– كيف نصف حال الأمة العربية بعد العدوان الأمريكي العسكري ؟ وهل أن الأمة تستحق مثل هذا الإستشهاد أم لا ؟ أي بمعنى هل يحتاج حال الأمة مثل هذا النمط من الحال وهذا النمط من المجابهة والإستشهاد أم لا ؟

ثم أضاف :

– (إننا "غانمون" في كل الأحوال مثلما يقول المثل الريفي، وحتى عندما أصبحنا نظام حكم بقينا متميزين أخلاقياً، في منهجنا وتفكيرنا، ولكن هل الموضوع هو نحن، وكيف نكون، حتى بافتراض أننا سنحافظ وسط هذا الطوفان على قياساتنا ضمن المجتمع العراقي .. هل الموضوع هو كيف نكون كأشخاص، وعندما نقول لا فلأننا لا يمكن أن يكون لدينا مثل هذا التساؤل .. إذن السؤال كيف نكون كعراقيين، أو كيف نكون كبعثيين في العراق ؟ .. من المتفق عليه، ولا أعتقد أن يحصل عليه خلاف أو نقاش، إن كل حالة هي جزء من شئ أكبر لا يمكن أن تستقيم على طول المدى ما لم يكن الحال الأكبر قد استقر .. المواطن وهو جزء من عائلة، والعائلة وهي جزء من مجتمع، والفرع وهو جزء من أصل .. فهذا هو حالنا .. العرب هو أكبر كتلة لغةً وثقافةً وتاريخاً، حاضراً وماضياً ومستقبلاً، فلا بد أن ننظر إلى الإنسان، على أنه أساس كل هذه الأمور، إلا ما يتعلق بإرادة رب السموات والأرض .. وأيضاً فيها تخصيص للعرب بالأساس كدور قيادي ونموذج تطبيقي، مجتمع تطبيقي، كما يقال وبدون تشبيه، كيف أن الإتحاد السوفيتي أصبح نموذجاً تطبيقياً للشيوعية .. كذلك ينبغي أن يكون العراق البعثي، سيقول البعثيون في كل مكان إن هذا هو نموذجنا الأساسي، وقد يغير هنا أو هناك ..

إن الله جعل الأمة مجتمعه المصغر ضمن العائلة الإنسانية ككل، الذي يجري فيه أول تطبيق، ليس مثل الإنسان، ليرى أين أخطأ –حاشاه– وأين أصاب، وإنما ليطلع الإنسانية على النموذج .. فأعطاهم دوراً قيادياً وحملهم مسؤولية النموذج في التطبيقات .. والإنسان بعد كل هذا له دور كبير .. لنرى هؤلاء الستين مليون عربي الموجودين في مكان واحد كيف تشوه حالهم الذي فرض على الأمة .. إن هؤلاء الستين مليوناً، يتحكم بهم شخص أُمي، مع أن بينهم العلماء والفلاسفة، والناس الذي تعبوا على أنفسهم .. وبالنتيجة يتحكم بهم واحـــد مثل شيخ زايـــد .. "لا يقرأ ولا يكتب" لأنه هو الذي يحدد السياســـــــة ..

أي ليس شيخ زايـد بذاته، وإنما بكل الإمتداد المقصود .. هو وأمثاله في المنطقة والعالم .. أي أن بوش هو زايد وشيخ زايد هو بوش، .. كلهم .. لقد أصبح هناك تداخل إلى الحد الذي أصبحوا فيه ملة واحدة .. فحتى يصبح الشيء الخير ملة، لا بد من مستوى من التضحية يراه الآخرون .. إننا نظام حكم مهما يكن جيداً، إلا أنّ المسألة تبقى نسبية في النهاية ..

فيقولون مثلاً .. في العراق نظام حكم يُقال إنه يختلف عن هؤلاء السيئين، لكنه ليس من النوع الذي يستنهض النفوس إلى الحد الذي تغسل أدرانه، خاصة عندما يمضي زمن طويل علينا، ونحن نظام، من غير أن نستطيع جعل رسالتنا مفهومة والبرهنة على أنها تختلف عن الآخرين جذرياً، أي الحال ونقيضه، وليس الحال والحال المتقدم عليه ..

إن المطروح الآن هو الحال ونقيضه تماماً وبدايته ما زالت صغيرة بالقياس المتوقع، وإن كانت غير هينة .. فإذا سألت أي واحد من بلدان العالم الثالث ، حتى السيء منهم، الذي لم يصل إلى درجة العمالة، فإنه يرى الصورة التي لا يستطيع أن يحققها، بل ولا يجرؤ أن يطرحها كشعار فقط .. إنه يرى فينا صورته التي يتمناها لنفسه، وهو يناقضها في سلوكه، لكنه كإنسان في داخله، ما زال يتمناها ويراها فينا ..)

كانت مداخلة صدام حسين أشبه بتداعي الأفكار الموزعة بين الشك واليقين حول المسألة التي جمع من أجلها أشخاصاً لم يكن ليرى فيهم وزناً، ولم يعتد إستشارتهم إلا في الساعات التي يريد خلالها الوصول إلى ما هو أبعد من الإجابة، فإما كشف جوانياتهم، وإما الحصول على مبرر للتراجع وتحميلهم مسؤولية مواقف لا يريد أن يتحمل مسؤوليتها لوحده ..

بعد ذلك سمح الرئيس للحاضرين بالكلام الذي أنقله من محضر دوّنه أحد الحاضرين وسلّمه إليّ بعد سنة من انتهاء الحرب :

قال عزة إبراهيم :

– يبدو أن مرحلة الثماني سنوات من الجهاد كانت تمهيداً كبيراً لهذه المرحلة .. وكلما نتوقف لحظة مع أنفسنا ومع الرفاق في الإجتماعات الحزبية واللقاءات الثنائية نقول لماذا حصلت هذه المجابهات ؟ بالنسبة لي .. أسترجع دائماً أو استحضر ماضي الأمة ..

يقال إن الشعب الواحد والأمة الواحدة .. كالكيان الحي الواحد عندما يمرض منه عضو يمرض كل الكيان، ولا تمرض اليد فقط ويبقى الجسم سليماً .. إن المرض يؤثر على كل هذا الكيان، وعندما يتماثل ذلك العضو للشفاء، يعم الشفاء كل الكيان .. فاعتقد لو أخذنا الفترة التاريخية القريبة من تاريخ الأمة لوجدناها تضفي تقريباً علينا وعلى مرحلتنا وعلى منهجنا وعلى مبادئنا من نورها ومن روحها ما يجعل مسيرتنا وليداً أصيلاً لتلك المرحلة.

لنذهب إلى مرحلة النهوض العربي أيام إنطلاقة الرسالة الإسلامية .. العرب، سيادة الرئيس، قبل مجيء الرسالة كانوا هكذا ككيان كبير وكانوا كناس وكبشر.

صدام : كمفردات ..

عزة : كانوا متهيئين كمفردات أي كرجال لتلقي أكبر المبادئ وأكبر الشعارات وأكبر المناهج ولكن ككيان عام، كانوا مثل كيان الأمة الآن .. كيان مُجزّأ، مهلهل، متناحر، متطاحن .. تلعب به المادة وتسيطر على حركته والأمور الأخرى، لذلك كان مطلوباً بحكم استحضار عوامل الشفاء لكيان الأمة آنذاك والذي بدأ يدب فعلاً في جسمها وبالتحديد قبيل نزول القرآن الكريم مباشرة فكانت المعجزة الكبرى قد تحققت بنزول القرآن ومبعث الرسول العربي محمد (ص) والتفاف المؤمنين حوله فشكلوا بقائدهم وبمبادئهم السماوية عوامل الشفاء الحاسم. إذن، مرحلتنا اليوم هي كذلك بل أكثر سوءاً من تلك المرحلة وفي كل شئ. ولذلك مطلوب لها نوع من الرجال من ذلك المستوى، ومطلوب لها نوع من البشر، ونوع من المبادئ ترتكز على تلك الحالة التاريخية وتنهل منها كل مستلزمات النهوض من جديد، ومطلوب لأمتنا قيادة من ذلك الطراز تقود الأمة وتستنهض الأمة وتخلق حالة جديدة نقيضة تماماً للحالة القديمة والموجودة في الأمة اليوم.

أريد أن أقول بالنسبة للقرار التاريخي العظيم الذي اتخذناه في استرجاع الكويت كان محسوباً معه إننا سنخوض هذه المعركة بكل أبعادها ..

ولكن عندما ننظر إلى حالتنا اليوم أقول في نفسي أي نوع من القيادة اتخذت هذا القرار بعد أن تبين لها في التحليل والإستنتاج أن تخوض مثل هذا الصراع ؟. فعندما أتأمل في الموضوع أقول لا يمكن لأي قيادة عاقلة أن تعمل هذا الأمر، ولا لأي قيادة غير عاقلة كذلك .. وإنما قيادة من طراز لا يشمل النوعين، قيادة تحظى بحالة إلهامية إلهية، خارج إطار قدرة تفكيرها وقدرة استيعابها .. أي قدرة تفكير الإنسان واستيعابه. ونعلم أن الرسول الكريم (ص) عندما فتح العالم المعروف آنذاك لم يقل لأصحابه لنبدأ بفتحه دولة دولة .. أو مدينة مدينة لأن قدراتنا المادية كذا وقدراتهم المادية كذا .. وإنما أرسل إلى الكل رسائل في يوم واحد .. إلى إمبراطور الروم وإمبراطور الفرس، وإلى إمبراطور الأقباط، وأرسل إلى ملوك العرب، الذين كانوا في الجزيرة وكان ملك في الشام وملوك آخرون في مناطق أخرى في الوطن العربي، أرسل لهم كلهم رسائل في يوم واحد يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب.

صدام : أسلم .. تسلم.

عزة : أما أن يعطوا الجزية أو الحرب ..كلهم في آن واحد .. وأعتقد سيادة الرئيس أنه بالرغم من أنه كان رسولاً يوحى إليه.

وأضاف : لو أخذنا منهجاً مجتزءً من مبادئنا الكبرى .. منهجاً صغيراً وقلنا لأنفسنا وشعبنا إن هذا منهج مرحلي وسنوسعه بعد مدة .. لما حصلت هذه القضية اليوم ولما قامت الحرب العراقية الإيرانية بالأمس .. ولكن كان من الممكن بل ومن المؤكد أن نقع على وجهنا من أول يوم وفي أي يوم من المنازلة ولأي مستوى من المنازلة وتتكسر أرجلنا ونموت وننتهي إلى الأبد أي نظل لقمة صغيرة سهلة الإزدراد من قبل الأعداء ولا نكبر بالسرعة التي تتناسب مع قضيتنا ..

إن دخولنا في الحرب الإيرانية والتي كانت تقف وراءها أمريكا والصهيونية .. خلقت هذه اللقمة الكبيرة الصعبة التي استعصت على أمريكا والعالم كله في أن تأكلها أو تبتلعها.

صدام : هذا هو بالضبط .. فقد صارت الأمة.

عزة : إننا قمنا بعمل نحسد عليه كثيراً .. قبل مدة تحدثت مع الرفاق، ولا أعرف هل كنتم سيادتكم موجودين أم لا، لأنني أنسى، هل تحدثت بهذا أمامكم أم لا .. إلتقيت برؤساء المنظمات الإسلامية الذين جاءوا إلى المؤتمر الإسلامي الشعبي تحدثت معهم بصيغة التواضع، فكنت متواضعاً كثــيراً تقديراً مني لموقفهم، وحتى أشجعهم كثيراً .. وقلت لهم نحن مصممون منذ اليوم الأول على أن نخوض مثل هذه المعركة، ونعتقد أننا سننتصر، وأحد أسباب هذا النصر وبصيغة التواضع .. هو لأنكم معنا ..

فقلت لهم .. أنتم معنا، وكنا في جلسة إعتيادية، نهض شخص منهم وهو من السودان فبكى وقال .. والله أنتم القوم الذين لا يشقى جليسكم ..

مطلوب منا سيادة الرئيس أن نقوم بكل هذا الذي نقوم به وهذا هو قدر الله تعالى وارادته وقدر التاريخ والطبيعة .. إن الذي نقوم به هو حركة التاريخ .. حركة الكون الذي نحن جزء منه .. والمقسوم لنا في هذه المرحلة، هو هذا الذي نسير فيه .. ويكفينا فخراً أنه ليس من صنع البشر .. وهذا ما لا يستوعبه عقلي لأنه ليس من صنع البشر، أنا أفهم الذي نحن عليه تماماً بكل أبعاده فنحن جميعاً فرحون مطمئنون بأن لنا إحدى الحسنيين فرحون، والأهم هو أن الكادر الحزبي .. لم يسأل أحداً لا في ندوة ولا بينه وبين صاحبه، لم أسمع أحداً يقول، كيف نحارب هؤلاء الكبار والأقوياء .. بل الكل يسيح .. نحن أقوى منهم وسننتصر .. كيف يحصل هذا ؟ .. في حين أن من طبيعة الإنسان أن يحسب ويفكر ويشتغل بالعقـــل .. أما في هذه الحالة فإننا لا نعود إلى العقـــل ..

سيادة الرئيس .. أعتقد أن الوضع العربي سينفجر إنفجاراً هائلاً وكبيراً، لأننا بقيادتك وقدراتك وبحكمتك وعبقريتك، سوف نحقق الإنجاز الزمني والمادي والروحي ضد العدو الذي جعل الوطن العربي ينفجر بثورة عارمة.

مضت حتى الآن ثمانية أيام، وكنت أتصور أنها ستة أيام فقط .. مضت ثمانية أيام وفي الأيام الثمانية الأخرى القادمة، والعشرين يوماً الأخرى سنرى ماذا يظهر من الشعب العربي .. وماذا سيطلع من الشعوب الإسلامية ومن العالم، وماذا سيظهر من أعدائنا باتجاهنا ..

وأضاف : نحن نمتلك إمكانيات النصر، فنحن في حالة الإنتصار الدائم وتحدثنا صباحاً مع الرفاق وكنا مجتمعين، وقلت لهم إن انتصارنا قد مضت عليه ستة أشهر وكل يوم يمر من هذه الأيام يمثل إنتصاراً، فلو أخذنا مفردات الأيام فنحن يومياً نحقق انتصاراً وحصيلة الستة أشهر بعد دخول الكويت، تمثل انتصاراً تاريخياً هائلاً.

صدام : واليوم قال بوش هذا .. فقال ما معناه، أن الحرب لم تبدأ يوم 16–17 وإنما بدأت منذ 8/2 .. ويقصد أنه يعطيها زمناً طويلاً.

عزة : نحن منتصرون في كل يوم مضى وانتصارنا درسناه في ما بيننا على أساس التحليل والإستنتاج يوماً بيوم .. إن انتصارنا في تصاعد منذ اليوم الأول.

صدام : كان يمكن أن ينفخوا على كل حالة بدون أساس فـ(تطير).

عزة : إن التاريخ يلعننا والله يلعننا إذا لم نؤد هذا الواجب ونستحق أن نتقدم إلى الأمام في كل يوم لأن الأمة مهيأة لاستقبال هذه الحالة .. وتستحقق كل التضحيات من هذا النوع .. والحزب جاهز وقد أعددنا أنفسنا لنصل إلى مستوى القتال بالحاجة عندما ينفذ الرصاص .. هكذا اتفقنا مع الرفاق ووضعنا خطة نفسية ومادية .. فپسهرڑ إلى الأمام.

صدام : الكلام الآن للرفيق طه.

طه ياسين رمضان : هل كان هذا العمل مطلوباً ليقوم به العراق بالمستوى الذي هو عليه أم أنه لم يكن مطلوباً .. إنني الآن أستطيع أن أقول وبكل وضوح واستقرار وبعد مرور أكثر من أسبوع من وقوع العدوان بأنه كان أمراً مطلوباً، ليس لأن كل إمكانات المواجهة لكل هذه القوى قد

توافرت في العراق بما يوازي القوى المعادية، بل للحالة التي وصلت إليها الأمة كحكام وشعب عربي بالإضافة إلى الحالة الإسلامية والإنسانية بشكل عام، لا بل نكون واهمين إذا تصورنا بأن الحاجة كانت تستدعي وقتاً مضافاً لسنة أو بضع سنوات لكي نطور الإمكانيات وتتطور الحالة العربية الرسمية منها أو الشعبية لكي تكون في حال أفضل .. نعم إن (أم المعارك) مطلوبة الآن وليس في أي وقت آخر، لا أقول بأن قيادتنا قد حددت وقتها وتفاصيلها مسبقاً لكنها جاءت وحصلت في وقتها.

وأضاف : منذ 22 عاماً منذ ثورة تموز وإلى تموز عام 1990 اعتمدنا كل الصيغ بعيداً عن الصدام مع الحكام العرب والقوى التي تدعمهم وبشكل خاص منذ عام 1978، وقررت القيادة التوافق مع الصف العربي بصيغة الحد الأدنى سواء بالنسبة للقضية الفلسطينية وتحرير الثروات العربية وبناء القوى العربية، لا بل وصلنا إلى اعتماد صيغ واضحة منها الحد من نشاط حزبنا قومياً ومنها اتفاقيات عدم التدخل وعدم استعمال القوة. كل ذلك كان لغرض إشاعة الإطمئنان على الساحة العربية وإلى الحد الأدنى والإنتقال تدريجياً بعد ذلك بخطوات جادة إلى أمام وعلى طريق أهدافنا.

ولكن ما هي النتيجة ؟ كان واضحاً أن الصف (المشبوه) من العرب كان يحاول استغلال هذه الروحية من أجل تنشيط تآمرهم علينا ..

نعم المعركة لا بد منها ولو تأخرت لما تحققت قاعدة الثورة وستكون أعجز من أن تواجه حجم قوى معادية كما هي عليه الآن. لنتصور لو تأخرنا سنتين واستمرت السياسة النفطية الخليجية والعراق مدين بـ(50) مليار دولار وأسعار النفط لا تسد 50% من احتياجاتنا ولو بالحد الأدنى مع بقاء المديونية التي تستهلك بحدود 50% من الواردات على ضوء الأسعار المقررة آنذاك وفوائد القروض، دول الغرب وأمريكا قررت إيقاف تصدير التكنولوجيا إلينا منذ نيسان عام 1990 وأمريكا أوقفت تسهيلات الحبوب والغذاء منذ آذار 1990 وبقرار من الكونغرس ويمكن أن يتوسع هذا الحظر لدول أوروبية أخرى كما توسع قرار حظر تصدير التكنولوجيا.

هل كنا سنحافظ آنذاك على ولاء الشعب والتفافه حول القائد وهو يشاهد عجز القيادة عن توفير الحد اللائق للعيش وهو البلد الغني ؟ .. هل حالة من هذا النوع في تصورنا تستطيع أن تقود الجيش والشعب لآية معركة مهما كان مستواها وتحت أي غطاء ؟ .. إنني لا أعتقد ذلك .. إنني لا أنطلق في موقفي من عمق إيماني بالنصر في هذه المعركة بل مهما تكن النتيجة فإذا كان الموت لهذا الشعب ولهذه الثورة محتمًا فلنمت ونحن واقفون ..

سيدي الرئيس القائد .. تصرف الثورة منذ 22 عاماً كان صحيحاً ومطلوباً إلى هذا الوقت فقط وكان مطلوباً لحين أن نصل إلى ما وصلنا إليه لكي نحقق الحد الأدنى من مستلزمات المواجهة، "22" عاماً فرصة كافية للأداء وكسب التجربة وتوفر حداً أدنى من المستلزمات، ولكن بعد 22 عاماً وصلنا إلى حالة من تكوين القاعدة ليس بمقدورنا إلا أن نطورها لا بل أشك بأننا نستطيع حتى أن نحافظ عليها في ظل تآمر آل صباح مع الأمريكان وإسرائيل ضدنا، أي أن الخط البياني للثورة قد بدأ فعلاً عداً تنازلياً.

نعم .. الجميع ضدنا لا يتمنون لنا أن نستمر ولكن منهم من يقاتلنا بشكل مباشر ومنهم من يتفرج أو ينتظر.

وأضاف : لا أقول أن يوم 1990/8/2 كان هو اليوم المفضل لأم المعارك، لم نكن قد درسنا الموضوع قبل سنة أو حتى قبل أشهر استعداداً لأم المعارك ولكن أرادة الله هي التي قررت هذا التاريخ.

إن النصر قد تحقق عندما رفض القائد العظيم الإذعان لقرار مجلس الأمن 678 الذي حدد يوم (1991/1/15) نهاية الإنذار. وقد تحقق للعالم أجمع هذا النصر في ليلة 16–1/17/إ19911 عندما واجهنا أكبر هجمة جوية صاروخية من قبل دولة عاتية.

إن النصر بمعانيه الإنسانية والمبدئية متحقق قبل هذا اليوم وثقتي كبيرة بأن النصر الميداني الواقعي الملموس سيتحقق أيضاً لكي تبدأ الأمة في الإنطلاق ..

صدام : نعم .. الكلام الآن للدكتور سعدون.

سعدون حمادي : سيدي الرئيس .. بإيجاز أنا لا أستطيع أن أتحدث بالطلاقة التي تحدث بها الرفاق .. وجواباً على سؤالك .. هل الوضع العربي يستدعي أو يستأهل هذه المعركة أم لا ..

صدام حسين : العربي الإنساني أيضاً ..

سعدون حمادي : نعم .. والإنساني .. سيادة الرئيس .. إذا أراد أحد أن يصف الوضع العربي بإيجاز .. فهو من حيث الأنظمة والشكل والهيكل أسوأ وضع ..

أولاً : وضع التجزئة قد تكرس .. إننا وحدويون ولكن وضع التجزئة هو الذي تكرس.

ثانياً : القضية الفلسطينية تقريباً عدا وميض أو بصيص المقاومة والإنتفاضة للشعب الفلسطيني، فإنها أصلاً تسير إلى ما هو أسوأ عبر ابتلاع كل فلسطين وتكريس الدولة الإسرائيلية وقبولها عربياً ..

من ناحية الثروة سيادة الرئيس .. أصبح تقريباً قانوناً، أن الدول أو القطر الذي لديه ثروة هي للحاكم، وحتى في داخل الدولة التي لا ثروة لها، أصبح تقريباً شبه مقبول إن الحاكم الذي له سيطرة على كل الثروة هي تقريباً له .. ودولياً سيادة الرئيس .. إن الوضع الجديد الذي نشأ قد نقل العالم إلى حالة شبه توازن إلى نوع من الإستعباد والهيمنة والإنفلات والسيطرة .. سيطرة أسوأ جهة في العالم .. أم تفضيل المصالح على المبادئ .. إنها الولايات المتحدة .. طيب إذن .. ناحية النظام والشكل والوضع الدستوري والقانوني .. وضع العالم هو في أسوأ ما يمكن لأحد أن يتصوره، لكن وضع الإنسان العربي هو أفضل الآن .. تلاحظ سيادة الرئيس بمجرد أن وجد الأمل والمثال الجيد.

إذن .. الأمة كأناس وبشر ليست بوضع سيء وإنما بوضع جيد وبدأت تتجاوب ولكن ، سيادة الرئيس، الإنسان بطبيعته لا يحركه الكلام، بل يحركه إسناد الكلام بالفعل .. والإنسان سيادة الرئيس هذه هي طبيعته .. فهو لا يتغير بالكلام ..

سيدي الرئيس .. ما عملناه هو الذي بدأ بإستنهاض الضمير في كل عربي ، ذلك جواباً على سؤالك سيادة الرئيس .. قطعاً إن الوضع العربي والأمة العربية من ناحية الشكل هو بأسوأ ما يكون، ولكن من ناحية استعداد الناس للنهضة هو الآن أفضل مما كان عليه.

إن لي رأياً في موضوع الوحدة يختلف معه بعضهم هو أن هدف الوحدة يأتي قبل كل الأهداف ويعلو على جميع الأهداف .. إن مبدأ الوحدة بالنسبة لي هو فوق كل المبادئ، وكل شئ آخر وهو الطريق لكل شئ آخر..إذا أردنا أن نبدأ بحفر طريق للوحدة فلا بد أن نبدأ بذلك، ولكن متى وكيف ؟ الوحدة العربية التي نتحدث عنها ستحصل ؟ وما هي نقطة البداية ؟ ومن هو الذي سيبدأ ؟ وكيف تحصل وقد أتت الفرصة فهل نتردد ؟ طبعاً كلا .. هذه المعركة سنخرج منها منتصرين، وبعدها لا بد أن فكر بإستراتيجية وبخطوات أخرى .. تؤدي إلى السير قدماً في طريق توحيد الأمة العربية .. لذلك سيادة الرئيس .. فهذا الأمر يستحق ما قمنا به تماماً، إذا لم نكن نحن بهذا الشكل، ولا نسير في الطريق، عندها نكون مثل أي حزب آخر .. فهناك الكثير من الأحزاب العربية التي جاءت واندثرت .. لأنها لم تسلك طريق تجسيد مبادئها في الواقع، مثل فرض الوحدة بالقوة .. سيادة الرئيس .. أرى أن هذه المعركة يجب أن نسير فيها إلى آخر ما نستطيع ..

وأضاف : لذلك سيادة الرئيس، إذا كنت تريد جواباً .. وأنا كرفيق معكم .. أعتقد أن هذه القضية تستحق تماماً ما نقوم به، والأمة بحاجة إليها .. طيب .. لنفرض أننا لم نقم بكل هذه العملية .. طيب .. ما هو وضع الأمة وما هو الأمل في تحقيق الوحدة النهضة ؟ إن الذي تريد الولايات المتحدة أن تقوم به هو تكريس الوضع المتردي للعرب .. فقد انقسمت هذه الأمة العربية إلى دول وانتهى المر .. ولا يحق لدولة أن تتحدث مع الدولة الأخرى، لأن لهذه الدولة سيادة وهناك قانون دولي يمنع ذلك وبذلك يتجمد الوضع الرديء تماماً مثل عصر (مترنيخ) وهذا الشخص هو سياسي نمساوي كان يمثل الإتجاه الرجعي آنذاك، وكان يريد تجميد الوضع في أوربا، ولا يريد أن تحصل ثورات ..أي إبقاء القديم على قدمه ..

فهذا هو ما تريده الولايات المتحدة تحت اسم القانون الدولي والأمم المتحدة ومجلس الأمن .. ومعنى هذا أن الوضع العربي لا يحصل فيه أي تغيير، وتجمد الأوضاع على ما هي عليه .. والوضع العربي مثلما تعرفون .. يحكمه حكام مثل شيخ زايد الذي لا يقرأ ولا يكتب ويتحكم

بالمليارات سنوياً أو مثل حسني مبارك والآخرين .. وهذا الوضع سيادة الرئيس يستدعي ويستحق ما نقوم به .. وهذا ملخص ما أراه.

صدام : الرفيق طارق.

طارق عزيز : حقائق التأريخ والجغرافيا .. وإرادتنا كقيادة فرضت علينا معارك واخترناها من طراز صعب ومركب .. معركتنا مع إيران وهذه المعركة .. في بداية الخمسينات عندما ابتدأت حركة التحرر العربي بقيادة عبدالناصر .. كانت المعركة بسيطة جداً وواضحة ومفهومة للسياسي المحترف ومفهومة لرجل الشارع في الوطن العربي .. جاء عبدالناصـــر في 1952 وفي عام 1956 صار زعيم حركة التحرر العربي .. جاء في عام 1952، قام بانقلاب مع مجموعة من الضباط الشباب الذين ليس لديهم هدف محدد ، وبعد أربع سنوات صار زعيم حركة التحرر العربي، وبعد معركة خسرها عملياً .. ودخل مواجهة خسرها، لكنه صار زعيم حركة التحرر العربي وزعيماً بارزاً جداً في حركة التحرير العالمي، واستمر يحقق انتصارات سريعة بسبب بساطة الشعارات التي رفعها وبساطة المرحلة في ذلك الوقت .. وهذا أدى إلى أن لا تبنى حركة التحرر العربي بقيادة عبدالناصر بناءً متيناً ومتماسكاً، وبالتالي عندما خضعت المواجهة الحقيقية وحينما قررت الإمبريالية والصهيونية أن تضرب هذه الحركة وجدتها هشة وفارغة من الداخل .. فهزمت وأدت إلى الهزيمة الروحية للأمة العربية عام 1967.

تعرفون أننا جيل عشنا هذه مرحلة حركة التحرر العربي ومنها حزبنا، كانت معنوياته وأمله بالمستقبل قبل عام 1967 أفضل كثيراً من مرحلتنا بعد عام 1967 .. والهزيمة بدأت من شعور المواطن والمناضل العربي بالفارق الشاسع بين الشعارات والإدعاءات وبين ضعف التهيئة العملية التي هيأتها القيادة .. فأصيب بالإحباط .. وهنا حصل ما نسميه نحن بالعامية العراقية (الكسيرة) التي أدت إلى نمو الدور التخريبي للعناصر المنحرفة والفاسدة في المجتمع العربي سواء في بلدان الإمارات وأنظمة الجزيرة العربية .. لأن الرجعية كانت موجودة في الخمسينات .. والإنكليز كانوا موجودين، وهو وضع بالقياسات النسبية أسوأ من وضع الشيوخ الذين أصبحوا دولاً .. كان الإستعمار البريطاني في الخمسينات موجوداً .. وكل الخليج العربي وجنوب اليمن .. والإستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا، لكن أمل الأمة العربية في النهاية كان أقوى .. وحالة الإنكسار والإحباط نمت بعد عام 1967 .. وطبعاً بعد عام 1973 .. وهي حرب تحريك كما أسميناها، وليست حرب تحرير استخدمت نتائجها البسيطة لمزيد من التنازلات للإمبريالية والصهيونية.

نرجع إلى طبيعة المعارك التي كُتبت علينا واخترناها نحن أيضاً .. بسبب واقع الجغرافيا وواقع التاريخ، نحن بإمكانياتنا، لو كنا مجاورين لإسرائيل وخضنا المعركة مع إسرائيل مباشرة لكنا قد حققنا نتائج أسرع في جمع التأييد من الساحة العربية.

ولنتذكر المراحل الأولى وليس الأيام الأولى من معركة (القادسية) كيف أن الكثير من الذين يفترض أن يكونوا معنا ، وقفوا ضدنا، لأنها كانت معركة غير مفهومة .. لم تفهم بالنسبة لهم ..كانت معركة مركبة، لم يكتشفوا حقيقتها إلا بعد صمودنا فيها .. وصمدنا وقاتلنا وكنا في فترة من الفترات نكاد أن نكون معزولين.

إن الغرب لم يؤيدنا، بل تواطأ مع إيران في مؤامرة إيران غيت ولكنه كان ينفث السموم ضدنا بنفس الوقت، والذي يفترض أن يقف معنا، لم يتخذ موقفاً معنا، ولكن بعد مرحلة طويلة وتضحيات كثيرة .. اكتشف الشعب العربي والأمة العربية حقيقة هذه المعركة وقالوا .. طيب .. لو لم يتصدى العراق لهذا الخطر .. ماذا سيكون هول هذا الخطـر على الأمة العربية ؟ ولاحظنا في السنوات 1985 و 1986 وفي ما بعد جاء الكثيرون الذين انتقدونا ونهوا عن خوض المعركة لأنهم وقفوا موقف الحياد، جاءوا يشيدون بدور العراق وما أنجزه في هذه المعركة لأنه لو لم يقاتل بها لكانت قد حلت كارثة كبرى بالأمة.

في بداية هذه المعركة الجديدة حاولت الأوساط الإمبريالية وأنظمة الحكم العربية الخائنة والـمنحرفة، إضافة إلى عدم التهيئة السياسية، تصوير المعركة، وكأنما العراق طامع بالكويت .. أي أن يقولوا أن العراق البلد القوي الذي يعاني من مصاعب إقتصادية، يحل مشكلته بأخذ الكويت .. هذا البلد الصغير، وقالوا لكن هذا خطأ، يجب أن لا يحل الخلاف بين العراق والكويت بهذه الطريقة .. فالكثير من الذين يُفترض أن يكونوا معنا كانوا مترددين أو قلقين .. يقولون لماذا تعالجونها بهذه الطريقة وليس بتلك الطريقة . لم يكتشفوا الجوهر الموجود في هذه

المعركة ..أي أن الكويت ليست أرضاً وبترولاً وليست ساحلاً على البحر .. نعم فيها هذا الجزء الجيوبولتيكي وهو من حق العراق كدولة .. فعندما يصبح العراق دولة يُفترض أن تكون له إطلالة على البحر وله ساحل، لكن المعركة مع ذلك هي أبعد من هذا ..

وأضاف : أعتقد أن صمودنا هذا الأسبوع .. بداية النصر وهو صمود ليس مادياً فقط، سأرجع إلى الماديات للحديث عنها فيما بعد، وإنما في الصمود المعنوي، إن العراق لم يخف أولاً قبل المعركة، وربما كانوا يفسرون أنه لم يخف لأنه يتصور أن الآخرين لن يضربوا .. حصلت الضربة في اليوم الأول ..

ومن ملاحظتي السياسية .. أنه في اليوم الثاني بدأ الناس يتصلون، يتصل الواحد بالآخر .. قولوا للعراق لينسحب الآن .. على أساس أن الضربة حصلت .. أي إذا كانت تقديراته أنه لا يعرفها، فإنه ما دامت قد حصلت الآن، فالمفروض أن ينسحب، لكنهم عندما وجدوا أننا نتحدى ونضرب صواريخ، وننفذ التحذير بأنه بعد أول إطلاقة على بغداد سنضرب تل أبيب، ونفذناه خلال 24 ساعة .. فأعطى هذا مصداقية للمواقف السابقة .. وبعد 1000 طلعة أو 2000 طلعة أو 3000 طلعة أو 4000 طلعة يرون أن صدام حسين يظهر على شاشة التلفزيون ويلقى خطباً ويوجه رسائل .. والإتصالات السياسية التي أجروها، تصوروا أنها يمكن أن تجعلنا نتراجع، وهذا الإعمام الذي أرسلناه اليوم إلى بعثاتنا وأبلغنا به الكثير من السفراء والدول .. لم نرد فيها أن يأتوا ليقوموا بعمليات إنقاذ لنا ، وإنما أردنا أن يأتوا ليكتشفوا طبيعة المعركة.

والبعد القومي الآن أولاً، ومن ثم البعد الإنساني .. لم يتحقق إلا بالمزيد من الصمود ..هذه معركة تحتاج إلى وقت .. طبعاً لا أقصد نفس الوقت الذي احتاجته معركتنا مع إيران .. لا .. إن معركة إيران، بسبب سخف الإيرانيين وطبيعة الحرب بين بلدين هما أصلاً من العالم الثالث .. لا تكون الإستنتاجات فيها سريعة، وتحتاج إلى زمن طويل، إلى أن تظهر .. لكن هذه المعركة حرب عالمية .. نحن من جانب يمثل شيئاً في الوقت الحاضر .. وفي الجانب الآخر، وفعلاً الآن أعد رسالة سأعرضها على سيادتكم، إلى وزراء خارجية بلدان عدم الإنحياز .. إن الذي يحاربنا الآن هو الإستعمار القديم .. الدول الإستعمارية .. التي تزعزعت إمكانياتها الإسْتعمارية ولجمت بعد ظهور حركة التحرر العالمي بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة التوازن الجديد الذي خلقه وجود الإتحاد السوفيتي، ففرنسا قلصت إمبراطوريتها وإيطاليا بدأت تحاول أن تظهر وكأنما هي دولة غير استعمارية .. وبريطانيا تقلصت إمبراطوريتها وحاولت أن تتصرف تصرفاً جديداً، من حيث الشكل وليس من حيث المضمون .. والولايات المتحدة بقيت أكثرها ذات طابع إمبريالي، والآن بعد انحسار الدور السوفيتي ، رجع الشعور .. وداء الكلب الإستعماري ..عند الأمريكان والبريطانيين والفرنسيين والإيطاليين والهولنديين .. رجع لها المرض الإستعماري ولكن استخدموا هذه المرة الأمم المتحدة أو ما يسمى بالنظام الدولي الجديد، الذين يريدون أن يفرضوه على شعوب العالم .. وهذا الجانب من المعركة لا يظهر إلا بعد أن نصمد، لأنه مثلما تفضلتم سيادتكم، العراق معروف أنه بلد صغير من 18 مليوناً ولديه جيش كما يسميه (تشيني) وهذا هو الواقع إنه يمثل رابع قوة في العالم . جيد أن رابع قوة في العالم، ولكن أولاً .. كيف استطاع بلد صغير أن يبني رابع قوة في العالم .. إذن هناك شئ غير اعتيادي .. طيب .. هذا البلد الصغير، وهو رابع قوة في العالم والمعزول والمقاطع لمدة ستة أشهر ويحمل عليه تحالف عالمي ولا يهزم سياسياً ولا نفسياً لا قبل 1/15، ولا عندما حصلت الضربة .. لم ينهزم نفسياً .. إذن لدينا قضية، ونحن ليس مثلما تقول الدعاية الغربية وبوش .. أن صدام حسين هتلر ودكتاتور ويفرض إرادته على الشعب العراقي، ولا يسمع من أحد .. هذا غير معقول ..

إذن هناك قضية .. ما هي هذه القضية ؟ ستسمع الآن، وبعد صمودنا عندما نقول للناس هذه هي القضية، سنجد أذاناً صاغية أكثر من المرحلة السابقة .. وعلى الصعيد القومي، نحتاج إلى أن نصبر قليلاً .. أسابيع أخرى .. فالآن هناك شعور بالعطف علينا .. وأعتقد أن أسوأ مواطن عربي الآن – من غير الفاسدين المنحرفين السفلة الذين نعرفهم .. من المغرب وإلى المشرق – يُبدي عطفاً على العراق ويتصور أننا مجروحون ..حالنا حال الذي لديه أخ وجرح، يعطف عليه ..لم ينمُ لدى الجماهير العربية والقوى السياسية العربية الشعور بالثقة، حتى يتحول هذا العطف إلى فعل مؤثر .. من الآن وصاعداً سينمو هذا عندما يرون العراق واقفاً على قدميه وثابتاً، ويقاتل، وترتفع معنوياتهم وبالتالي يتشجعون على الشيء الذي كانوا يتهيبون بالعطف ولكن العطف حالة سلبية .. هي حالة إنسانية جيدة، ولكن يمكن أن تكون سلبية وهي حالة إنسان يعطف

على آخر، ولكن لا يستطيع أن يفعل له شيئاً، والمطلوب أن ينقل حالة العطف إلى الفعـل، وأتوقع أن المرحلة المقبلة ستشهد الأعمال الكبيرة التي انتظرناها ..

صدام : الإيمان بالقضية يتسع.

طارق : نعم .. يتسع ويتحول إلى فعل لأننا بحاجة إلى فعل ، وعندما يجد هذه التحالف فعلاً جماهيرياً وسياسياً في أكثر من موقع عربي وإسلامي سيخشى وسيعيد حساباته .. سيحصل هذا على الصعيد الإسلامي، وعلى صعيد العالم الثالث ..

إن كل الدول تستمر في الحروب أو تتوقف عنها، أو تنهزم نتيجة الخسائر .. ولكن مسألة الخسائر نسبية عند الفرد وعند الدولة حسب قراره في ذهنه فالذي لديه برنامج وقضية، خلاف من ليس لديه قضية حيث إذا خسر خروفين يُعد هذا كارثة .. وإذا انقلبت سيارته تحصل (مناحة) في البيت، ولكن صاحب القضية، إذا قالوا له خمسة من أولادك السبعة استشهدوا يقول (فدوى)..

المسألة نسبية .. المهم أن لا تحصل هزيمة في النفوس .. تتذكر أننا حللنا حرب عام 1967 .. فهل هزمت مصر عسكرياً في عام 1967؟ .. ومن يقول أن كل الطائرات ضربت ؟ .. أنا أشك أن كل الطائرات المصرية ضربت على الأرض .. لأننا نعرف الطائرة وكفاءتها .. إن الطائرة تضرب .. تصيب وتخطئ .. ربما ضربوا 50–60 طائرة من 200–300 طائرة .. كان لدى مصر جيش ومدفعية وبشر، ومليون كيلومتراً مربعاً من المساحة، ولديها 40 مليون آدمي في ذلك الوقت .. فكيف يسحقهم، ويطاردهم اليهود ويحتلون مواقع بدون قتال ؟ .. اخذوا كل سيناء بدون أن يحاربوا، مع أن سيناء يستطيع الواحد أن يحارب فيها بالبندقية .. بما فيما من مضائق وجبال وتضاريس أرضية .. لا يستطيع اليهود أن يأخذوها إذا حصل فيها قتال، رجل لرجل .. فأين هي التكنولوجيا عام 1967 من التكنولوجيا في التسعين ؟ .. هناك 23 سنة من النمو التكنولوجي .. وهذه تكنولوجيا أمريكا .. ونحن نقول أن إسرائيل تأخذ من أمريكا .. وربما لا تعطيها ..

صدام : كل الحلقات ..

طارق : صحيح أنه يجب أن لا يستهان بالتكنولوجيا .. يتحسب لها ولا يستهان بها .. إذنّ أن العاقل والمدير لا يستهين بها، ويتحسب لها .. إنهم بدأوا يكتشفون – من تصريحاتهم – أنهم لم يتمكنوا من إخافتنا قبل 1991/1/15 وقد أحسوا أننا غير خائفين .. إذن ستبدأ الآن الحسابات الواقعية .. إن الطيارين الذي سيرسلونهم في مهمات، قد شحنوهم بالتأكيد، بأنه لديهم هذه الإمكانيات.

صدام : قالوا لهم .. إنه أسبوع واحد أو أسبوعان ثم ترجعون.

طارق : أو أنكم سترهبون هؤلاء بهذه الضربات، وأول نزولكم على العراق، بأسراب الطائرات الكبيرة، ستكون حال العراق فوضى وهزيمة .. الخ وبالتالي فإنّ مهمتك أنت أيها الضابط سهلة .. وحتى لو وقعت بالصدفة، فإنّ مهمتك بشكل عام سهلة. وعندما جاء الطيارون، ورأوا لهبة نار أينما يذهبون .. في اليوم الأول والثاني والثالث والرابع. وهم عندما يرجعون إلى قواعدهم يتحدثون .. ويقولون يبدو أن هؤلاء متهيئون ..

صدام : معلوماتي أن أحداً من زاخو إلى البحر لم يترك سلاح المقاومة الأرضية للطيران في أشد لحظات النيران التي تنصب على المقاومات .. صحيح ترفع هذه المقاومة الأرضية وتنسحب قاعدة الصواريخ تلك، لكن البقية كل واحد على رشاشته .. هذه هي معلومات حتى الآن ..

طارق : وعندما يرجع الطيارون يجلسون في النادي و في المهجع .. ويتحدث كل واحد عن مهمته أنا ذهبت إلى الشمال مثلا وتعرضت إلى كذا وكذا ، والثاني يقول أنا كنت فوق القاطعات بالكويت والثالث يقول أن مهمته على بغداد .. وعندما يطلبون منه الحديث ، يقول هنا وهنا مدافع .. الخ .. وتتذكرون سيادتكم ، أننا في كل التحليلات السّابقة قبل الحرب ، قلنا أن مخططهم هو مخطط إرهابي – تخويف وعندما ينتهي حاجز الخوف ، تبدأ الحسابات الواقعية .. وفي الحسابات الواقعية سيكتشفون أن خسائرهم في هذه المعركة أكثر بكثير من الأهداف التي كانوا يتوخون تحقيقها .. وهنا ستظهر البراغمـاتية الغربيـــة .. لم تظهر في السابق ، لأنه كانت هناك مراهنة على التخويف وكانوا يتصورون أننا في مرحلة ما قبل الحرب أو بعد الحرب سنخشى..

صدام: كانوا يتوقعون هذا إلى يوم 1991/1/14.

طارق: أي يتصورون أننا سنخاف .. وبعد الحرب بيوم أو يومين سنخاف أيضا ونتراجع وستبدأ الحسابات في ما بعد .. ولكن إذا حصلت الأعمال النضالية الكفاحية التي أعددنا لها في الساحة العربية طبعا لن تجعلهم يعيدون حساباتهم فقط وإنما سيصابون بالرعب، لذلك علينا أن نضع مستلزمات إطالة المعركة .. يراد لنا تدابير .. سيادة الرئيس .. تتذكر أنني دائماً أرجع إلى هذا الجانب العملي .. التدابير .. الذي يبدى حماســـة وإيماناً في المعركة .. هذا على العين والرأس وشئ جيد ومطلوب وطبيعي .. ولكن ليقترن بعمل، فلا نكتفي من القائد ومن المدير العام ومن الوزير أن يقول لنا أننا منتصرون في هذه المعركة هذا مطلوب ولكن أيضاً، عليه أن يساهم .. ويقدم المفردات، لأن هذه المعركة طويلة .. الماء فيها مطلوب والكهرباء مطلوبة والبنزين مطلوب والخبز مطلوب والعتاد مطلوب والعمل الإعلامي مطلوب .. كلها مطلوبة فيفترض مثلما جاء في رسالة عممتموها للمسؤولين .. يفترض أن تكون المساهمة ليس بالكلام .. إن الكلام مطلوب، والإنسان بحاجة إلى كلام، ولكنه ليس العدة الرئيسية .. كل واحد من موقع عمله وخاصة الحزب .. وندرب رفاقنا على الكلام بالإتجاه الصائب والعمل بالإتجاه الصائب سنوفر المستلزمات المادية والعملية للمعركة الطويلة مع ثبات الإرادة حتى نحقق النصر.

طه محي الذين معروف : إن الحرب التي أشعلها الأمريكان وحلفاؤهم يجب أن نخوضها بكل إمكاناتنا وأعتقد بأنها فرصتنا التاريخية لكسبها وإن شاء الله بقيادتك وحكمتك سوف ننتصر على الأعداء في النهاية .. بعد انتهاء الحرب مع إيران وانتصارنا فيها أصبح العراق القوة الإقليمية الكبيرة في المنطقة الذي يملك الإرادة السياسية المستقلة والقدرة العسكرية المتطورة لأن العدو الصهيوني يستمد قوته إقتداره من أمريكا فهو تابع لها ومسنود من قبلها ولأن تركيا الدولة الكبيرة الثانية بعد إسرائيل تابعة للحلف الأطلسي وليست لديها قدرة ذاتية كبيرة ولا سياسة أو إرادة مستقلة.

وأضاف : إن الأيام القليلة الماضية منذ اندلاع الحرب قد أثبتت بأننا تمكنا بنجاح من مقاومة وصد الضربة الأولى برغم الدعاية الكبيرة التي سبقت وأحاطت بالقوة الأمريكية والقدرة الفائقة لها وما تتمتع به من تطور تكنولوجي، والآن نرى أن الرئيس الأمريكي بوش والآخرين من قادة الحلف يتكلمون بلهجة أخرى ويصرحون، بعد أن لمسوا قوتنا وصمودنا، بأن الحرب ستكون طويلة الأمد وشاقة وتحتاج إلى تضحيات كبيرة وخسائر، كل ذلك يدل على أنهم يشعرون بالإحباط لأنهم كانوا يتوقعون ركوعنا والقبول بالإنسحاب بعد أيام من الضربة الأولى.

إننا نخوض حرباً عالمية بمفردنا وهي حرب تشترك فيها (30) دولة وتساندها مادياً ومعنوياً كل الدول الكبرى أو المتمكنة إقتصادياً رغم ذلك فإننا جميعاً واثقون من النصر وهزيمة الأعداء، ومن الذين خرجوا من بغداد في أول أيام العدوان بدأوا بالعودة وأصبحت الحياة الإعتيادية تعود إلى مجراها الطبيعي شيئاً فشيئاً بل وأصبح ظهور الصواريخ والطائرات المعادية في السماء حالة اعتيادية لا تدعو إلى الخوف أو الهلع مما يدل على الروح المعنوية العالية لدى الناس وهذا إن شعبنا ينتظر بفارغ الصبر المعارك البرية، برغم حشدهم الكبير، لثقة شعبنا بقوة سلاحنا وشجاعة جندنا الميامين ومعنوياتهم العالية التي جعلت العدو يتردد في شن هجومه البري.

محمد حمزة الزبيدي : سيدي .. الحقيقة أن التاريخ سيسجل بأحرف من نور كل خطوة من خطوات القيادة وعلى رأسها سيادتكم .. من البداية وحتى الوقت الحاضر. سيدي إنني فرحت كثيراً .. وغمرني بالفرح ثلاث مرات فلقد فرحت يوم 1988/8/8 .. يوم انتصرنا على إيران ..وفرحت وبنشوة عالية يوم 1990/8/2 وهو اليوم الذي عادت فيه الكويت إلى أحضـــــان الوطـــن العزيز .. وفرحت سيدي يوم 1991/1/17 .. وربما ستسألني لماذا فرحت بالرغم من أنه اليوم الذي ضربتنا فيه أمريكا وحلفاؤها ؟ لقد شعرت بالفرح لأن التهويل الذي نشروه عن قوتهم في العالم تبين أنه مجرد دعاية مضخمة. لقد كانوا ينشرون أخباراً غير اعتيادية من أجل أن يرهبوا شعبنا وكانوا يدعون بأنه بمجرد أن تحصل الحرب وبمجرد أن توجه أمريكا ضربتها الأولى للعراق فإن الشعب العراقي سينتهي .. وأن الإمكانيات التي تمتلكها القوات الأمريكية وقوات الدول المتحالفة معها رهيبة وأسطورية وستحسم الموقف لصالحهم بشكل خاطف .. وها هي النتيجة واضحة فقد جرى امتصاص الضربة الأمريكية في اليوم الأول .. سيدي وتعايش معها شعبنا بشكل اعتيادي فاجأ العالم كله، لقد اعتبر شعبنا هذه الضربة نتيجة للتشويش ونتيجة للتهويل والأمور التي طرحت ومع هذا فقد رأى شعبنا هذه القضية بأنها اعتيادية ..

سيدي .. الحقيقة أن كل واحد منا تقريباً وإنطلاقاً من مسؤوليته ووضعه ومنذ البداية .. ساهمنا بشكل أو آخر فيما يخص إرباك شعبنا، فخرج الناس من بغداد بأعداد كبيرة لكنه بعد مرور (7–8) أيام عاد المواطنون لممارسة حياتهم الطبيعية والإعتيادية وعادوا إلى مساكنهم وأماكن عملهم بصورة تدريجية ..

لقد كانت وسائل النقل ووضعها وظروفها يومي 17 و 18 مرتبكة وضعيفة، وأنا تمكنت من إعادتها للعمل بشكل طبيعي يوم 1/19 واستفاد منها أكثر الناس الذين قرروا العودة إلى حياتهم وأعمالهم الطبيعية وهكذا بدأت الحياة الطبيعية تسير في وضعها الطبيعي بشكل أو آخر.

سيدي .. لقد آمن شعبنا بأجمعه بالنصر وليس سيادتكم والقيادة فحسب بل كل الشعب واثق من النصر .. ونحن الآن كسرنا أنف أمريكا .. فالإمكانيات على أروع ما تكون وهذه الحالات يا سيدي .. والله وأقولها لك بشكل صريح، فحتى أثناء الحرب مع إيران وبعد الحرب مع إيران لم يكن شعبنا بهذه الدرجة من الحماس، وبهذه القوة من الإندفاع وبشكل غير اعتيادي، فهذه الفرصة هي بداية النهوض وأنا أعتبرها فرصة رائعة وستسجل لسيادتكم تاريخياً وتذكرها الإنسانية جمعاء لآلاف السنين. هذه فرصتنا الحقيقية للقضاء على الخونة الموجودين الآن من الحكام العرب.

لقد قال الرفاق وأنا أعتقد كذلك كلما تطول المعركة تتصاعد همة الشعب العربي وتكون الإنفجارات داخل الوطن العربي لصالحنا .. إننا يجب أن نبذل الجهد بإمكانياتنا وقدراتنا سنحقق النصر ..

الجانب الآخر الذي أريد ذكره وتطرق له الرفيق طارق هو أن من الضروري أن يفكر كل واحد من موقعه كيف يعيد الحياة إلى وضعها الطبيعي ويقدم الخدمات للمواطنين في هذه المرحلة ..

إنك تلاحظ سيدي أن الحياة الإعتيادية تعود إلى وضعها الطبيعي بعد الغارة سواء ضرب الصاروخ أو لم يضرب وتحصل الغارات والمواطنون في شوارع بغداد بشكل إعتيادي .. إنه يجب علينا أن نبذل جهدالإمكان للتأكد من الجانب الأمني والقضايا التي يستفيد منها العدو وضرورة تجنبها وأن نكون سريعين في تقديم الخدمات للمواطنين في هذا الظرف لأننا بحاجة لها.

سيدي .. أما بالنسبة لوضع سير الدوام في الدوائر فقد جاء توجيه من الرئاسة وأعتقد أن كل مسؤول منا يجب عليه أن يأخذ الموضوع بشكل جدي ويبدأ المحاسبة والمتابعة ..

صدام : الكلام للرفيق لطيف ..

– لطيف نصيّف جاسم : عندما تقول سيادتكم إننا منتصرون يكون إيماني بأن الأمر محسوم ..نحن منتصرون إذن، ولا أناقش .. لأنني أعرف الحس والهاجس والإمكانيات وكل الإعتبارات التي ينطلق سيادتكم منها، ولذلك نكون بمستوى هذا القول.

وأضاف : بدأت المؤامرة تتصاعد، ولكن ولكي نكون دقيقين، أقول أن المؤامرة تصاعدت بشكل قوي بعد وضوح أهداف العراق وسياسته المعلنة على حافة الكيان الصهيوني، وعلى مقربة من منابر القدس ..فانتبهت أمريكا وانتبه الأغنياء وانتبه الرجعيون العرب، وبدأت المنازلة واضحة، وثارت عاصفة المدفع العملاق .. وبازوفت، وأرجعوا سيناريو حلبجة وسيناريو حقوق الإنسان والأكراد وغيرها من الأمور .. وكنتم سيادتكم توضحون وبقوة. وكانت المجابهة الصريحة والعلنية هي القول في 4/1 الذي جعلناه 4/2 ، وهو أن إسرائيل إذا اعتدت علينا فسوف نحرق نصفها .. فصار واضحاً أن هذه القوة منظورة وخصائص القائد معروفة، وإمكانيات العراق معروفة ونياته أصبحت مقروءة ومترجمة بعد أن بدأ يحرض الجماهير .. عملية تحريض للفقراء على الأغنياء وتحريض للإنسانية والعالم الثالث، والإسلام .. وعادت كل الأمور وكل الشعارات التي سُحبت منا تحت أي ظرف من الظروف ..

وأضاف : لقد طمأنا الآخرين نسبياً، فقلنا ليكن هذا .. اتفاقية عدم التدخل والأخوة وغير ذلك، فكان مع هذه الوساخة الموجودة في الوطن العربي، وبعد انفراد أمريكا التي أخذت تومىء على الناس بالعصا وليس بالإصبع، وكان الذي كان .. لا أطيل سيدي .. لأن كل شئ واضح

والإجابات واضحة، وسيادتكم قلتم أن كل واحدة من هذه المسائل التي ذكرتموها تستحق ثورة .. وقال أحد الرفاق أن كل واحدة من هذه القضايا تستحق نبياً .. ولكن الله قال بخاتم الأنبياء فقد أرسل كذا نبياً على قضيتين أو ثلاثاً أو أربع قضايا في مجتمع من المجتمعات، لكن الأمة العربية لا تحتاج إلى نبي واحد حتى تتطهر .. وصارت المنازلة وصار التخويف .. وفعلاً وبعمق أقول أن الشعب العراقي لم يخف منذ يوم 1990/8/2، وإلى 1991/1/15 لم يخف لأن القيادة لم تخف، ولكن في الجانب الآخر، كانوا يتوقعون أننا في اللحظة الأخيرة سوف نقول شيئاً.. وسُئلت .. عندما قال الصحفيون هل لديكم شئ بعد كذا ساعة .. بهذا السؤال .. فقلتُ لهم .. ما هو الشيء الموجود لدينا حتى نعطيه ونقايض به ؟ إننا على موقفنا الثابت وإذا حصلت المنازلة فنحن مستعدون للمواجهة ..كان هناك عقل يتصور أنه بعد هذا الحجم من التخويف الهائل وترسانة الإعلام والحرب النفسية .. الخ أنه سيصدر قرار من جانبنا .. ولم يصدر قرار .. إذن لا بد من أن يقوموا بالضرب حتى يقنعونا بأن هذا الضرب هو لأن بوش كان ينطلق من مصداقية .. كم استغرقت حرب 5 حزيران ؟ .. استغرقت يومين ..

علق أحد الحاضرين :

– خمسة أيام.

– لطيف : إنهم أضافوا ثلاثة أيام ..

صدام : ولا يوم واحد .. لأنه لم يكن هناك رد فعل عربي .. إنهم أنهوها من طرف واحد بعد ستة أيام.

لطيف : ضمن حالة الدفاع طرحت كل هذه العناوين، وهي مبادئنا .. مبادئ الحزب، مبادئ الأمة، مبادئ الإسلام .. طرح موضوع الوحدة، وموضوع حق موجود وتاريخي هو الكويت ..إنها عراقيـة ضمن الحالة الدفاعية ..طرح أنها عراقية .. ولا يوجد في الوثائق والكتـب، ما يشير إلى أن هذا القضاء الذي جعلناه محافظة ليس عراقياً .. إنها عراقية منذ القدم .. منذ فجر السلالات.

هـــذه المعركة هي حرب عالميـــة بكل معنى الكلمة .. الحلفاء لم يكونوا بهذا القدر والمتحاربون لم يكونوا بهذا القدر والأسلحة لم تكن بهذا القدر وكذلك نوعها .. إن اليابان قدمت اليوم 9 مليارات .. فلماذا هذا الغضب ..

صدام : إننا أناس مساكين وصغار، لكننا جماعة الله .. وهذه هي كل القصة .. إنه يقاتلون الله وهو أكبر منهم.

وتهــدّج صوت لطيف نصيّف وكاد أن يبكي ثم قال : وبشر الصابرين .. ويليق بسيادتكم، بأن تتوج بهذه المواجهة وهذه المنازلة التي لا يوجد في الجانب الآخر فيها إنسان شريف .. من هو الشريف ؟. هل هو بوش .. ميتران .. فهد، زايد، قارون والذين جمعوهم من كذا دولة ؟. الطهر أمام كل الحالة القذرة، أتأمل أحياناً .. كل هذا الحشد الذي حشده الأشرار في العالم والقطب الآخر عربي .. فلا أعتقد أن الله يخذله .. لدى يقين راســخ .. العالم يتجمع على عربي مؤمن .. إن العربي سوف ينتصر .. وفعلاً نعمل بتوجيهات سيادتكم، كل واحد من موقعه، وأنا ألاحظ أننا هادئون، الحمدلله .. وقد أعطانا الله السكينة .. وإلا فإن هذا الجمع يرهــب .. فالنصر إن شاء الله معقود في راية الله أكبر .. والنصر كبير .. وهذا تتويج للقادسية التي دثروها بدثار كبير (8) سنوات، وجعلوا اسمها الحرب المنسية .. من يحلم أن أمريكا تأتي إلينا إلى هنا ونحاربها ، من الذي أرسلنا إلى أمريكا وبريطانيا وفرنسا وهولندا والهندوراس والباكستان ؟. من الذي جاء بهم إلى هنا ؟. ما هي القصة ؟ لله إرادة فيها .. وعلينا أن نصبر ونتحمل ونتكل والنتائج كبيرة .. إن النصر في الأيام الثمانية التي مضت .. اعتبر يوم 1991/1/15 عيداً بالنسبة لي .. وانتهى .. لم تستطيعوا أن تحسموا وليس لدينا شئ ، ولكن إعتبرته نصراً .. وعبرنا ولا يوجد لديهم شئ .. وكل يوم مضاف الآن إلى الأشهر الستة التي أمضيناها معهم (ملاواة) ولم نقصر معهم .. ولم نكن هينين .. وسيادتكم يومياً تخرجون على العالم في غسل دماغ وفي توضيح الصورة وفي تأجيج المبادئ .. وأوصلتم رسالتكم إلى العالم .. وبعد الكلام عن الفقر والفساد والثروة والمبادئ .. ويقول (اندريوتي) البارحة .. وهو ملعون طبعاً .. يقو ليجب أن يحصل ربط ..

صدام : قال .. لا يجوز في خهضم معـــارك وقضية الخليج أن ننسى قضية فلسطين .. أليس هكذا ؟. هكذا قال .. إنه يتحدث عن الربط ..

لطيف : إنه يتحدث عن الربط .. وإن هذه المنطقة يجب أن تحل القضايا فيها كلها بهذا المعنى ..

صدام : في كل الأحوال .. سيقول لإسرائيل كلُ ربيعهـا بعد فترة (إحمدي ربك يا إسرائيل لم يطـح بعنقك بهذه الشغلة وربما تخرج واحدة من هذه بشكل آخر فأعطي الحق لأهله وعيشي بسلام).

لطيف : سيدي .. منذ عام 1948 وإلى الآن، من يتجرأ للحديث مع إسرائيل ومن ينتقدها، ومن يتحدث .. وإسرائيل الآن وصلتها صواريخ .. وانتهى .. أليس هذا انتصاراً؟. أليس نعمة كبرى ؟ .. أليس هذا تاريخاً وبصمة كبيرة معلّمة بالمجد ؟ وإن شاء الله القادمات من الأيام أفضل .. والنصر بجبينك .. ونحن سيدي عندما نراك، يصبح لدينا يقين واطمئنان وسكينة .. عندما نقول منتصرين .. فنحن منتصرون بالتأكيد.

صدام : متنصرون بعون الله .. ولا يوجد شئ غير هذا ..

سعدي مهدي صالح : نعـــم .. الأمـــة العربيـــــة تستحق هذا .. إذا ما نظرنا إليها، فنريد منها شيئاً كبيراً .. فلو كانت في حالة طبيعية فإنها تستطيع أن تقوم بهذا الشيء الكبير، ولا تحتاجنا أصلاً، لأنها بوضعها الطبيعي ولا تحتاج إلى معركة تاريخية، إنما تحتاج إلى تعديل مســـار وتصحيح من ينحرف إلى اليمين أو اليسار بشكل أو بآخر .. أما الحالة التي تصفها دائماً سيدي فهي سيئة جداً ..حالة الشعب العربي .. ووضع الإنسان العربي .. إنه فاقد لكل شئ .. وفقد كل صفاته المعروفة لأن حكامه وبالتعاون مع الإستعمار أوصلوه إلى هذه الحالة.

صدام : فقد مواصفاته يا رفيق سعدي .. المرأة فقدت مواصفاتها، والرجل فقد مواصفاته .. ووصلت إلى هذا الحد فحتى الخلقة الإلهية صار يلعب بها .. أي الرجال ليس كالرجـــال، والنساء أيضاً، ليس كالنســـــاء العربيات.

سعدي : إذن .. من أجل تغيير هذا الواقع السيء، لا بد من معركة تاريخية بنفس المواصفات التي تحملها معركتنا – أم المعارك .. وفي الجانب الآخر .. لا ننسى سيدي أنفسنا .. ليس فقط .. الأمة تستحق هذه المعركة وإنما نحن أيضاً، سيادتكم والقيادة والشعب العراقي يستحق أن يخوض هذه المعركة، لأنه ليس هناك في الأمة من هو قادر على القيام بدور تاريخي كهذا الدور .. عدا سيادتكم وقيادتكم .. أما الآخرون فهم غير مؤهلين ليلعبوا دوراً تاريخياً .. فهل حسنى مبارك .. أم الحسن .. وكل الآخرين مهما كانوا .. إذا كان لدى أحدهم ذرة من الوطنية، فهو يعبر عنها بالأسلوب التقليدي، ويحسب، وحتى عندما يعبر عنها يحسب، كم يخسر، وكـــم يربح .. ولا يحسب كم تربح الأمة بهذا الموقف أو ذاك الذي يتخذه ..وإنما يحسب كم يربح لنفسه .. وأنت سيدي .. لا تحسب هكذا .. بل تحسب، كم تربح الأمة، وكم يربح المسلمون .. وكم تربح الإنسانية من هذا الموقف، لذلك فإن القادة التاريخيين هم الذين يغيرون مجرى التاريخ ومسار الحياة ويبنون أسس الحضارة ..

سيـــدي .. أنت تعمل ضمن هذا المنهج .. وذلك فأنتم والعراق – بلدك وشعبك – تستحقون أن تخوضوا هذه المعركة .. أما النصر .. فهو أكيد بإذن الله وهو بأيدينا .. لأننا مصممون على أن ننتزعه .. إنه لا يأتي تلقائياً سيدي .. لا يوجد نصر يبحث عن أناس من تلقاء نفسه ..

صدام : يمنح الله المؤمنين بقدر إيمانهم .. ويستطيع الرفيق عزة أن يسندها بآية أو حديث، ولكن هكذا أعتقد .. إن كل شيء بقدر إيمانك، وما بداخلك ..

عزة إبراهيم : "لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ...

سعدي مهدي : إنها منزلة تاريخية سيدي وهي التي ستغير ليس مسار المنطقة وسياسة المنطقة ووضعها فحسب وإنما العالم كله .. وتخلص الإنسانية من الظلم الذي لحق بها عبر عدة قرون .. منذ أن انتهى دور الأمة العربية وإضمحل وذهب، ظلمت الإنسانية وهذه هي نقطة البداية، ونقطة الإنطلاق التي ستأخذ العالم بالإتجاه الصحيح ..

صحيح بالنسبة لشعبنا .. أقفلت الناس محلاتها .. ولكن المعنويات ليس بفتح باب الدكان أو القيام بعمل تقليدي كالأيام الأخرى، وإنما نقرأ هذا في عيون الناس سيدي ..

صدام : وقدر التحمل.

سعدي : وقدرة الإنسان على تحمل الصدمة .. إننا تحدثنا سابقاً .. ولكننا إذا امتصصنا الصدمة – الضربة الصاروخية والطيران في اليوم الأول : ينتهي الأمر .. والآن انتهت .. والإنسان هنا بدأ يشعر أن أمريكا الجبارة وصواريخها لا تخيفـه .. وأصبح صاروخها يقع وطائراتها تقع

.. وصاروخها مثل الصاروخ الإيراني يوقع بيتاً ولا يوقع دور بغداد كلها ..

إنني إلتقيت بالرفاق .. وكانوا في الليلة الأولى كلهم، وفق الشيء الذي إتفقنا عليه، واتفقنا على عدم استعمال التلفون .. والرفيقات بعد نصف ساعة وصلن المقرات، ونحن لم نبلغهن .. والبارحة وبعد الساعة الثانية عشرة زرتُ الرفاق وتحدثت معهم .. وبدلاً من أن أتحدث أخذوا هم يتحدثون .. وقال لي أحدهم .. عند لقائك بالسيد الرئيس أبلغه سلامي وقل له، نحن (عد عيناك) .. وقل له يجب أن ننتصر وأكيد سننتصر، مع العلم أنه من الطبقة الفقيرة المسحوقة .. فلم يهتم للماء الذي انقطع أو للخبز الذي لا يحصل عليه أبداً ..

هذه يومها سيدي .. ومثلما قال الرفاق كل المبادئ فيها، ونحن مررنا بفترة شوهت فيها صورتنا، والكثير من الذي معنا كانوا يعتقدون أننا غادرنا المبادئ، وربما في طريقنا إلى أن نتحول إلى نظام اعتيادي كالأنظمة الأخرى ونسير بنفس المسارات، ولكن الحمد لله بوجودك لا نسمح لمثل هذا أن يحصل بفضل حكمتك سنبقى حملة المبادئ والمدافعين عن الأمة قيمها، ونحن حاضرون سيدي ..

صدام : الكلام للرفيق سمير ..

سمير محمد عبدالوهاب : سيدي الرئيس القائد .. أجاب الرفاق على السؤال الذي تفضلتم به، إجابات علمية دقيقة وفي إطار رؤية سياسية شاملة للمنازلة الراهنة، ومنطلقها واقع الأمة، وهدفها رفعة شأنها ومكانتها، وإعلاء كلمة الحق والعدل ..

ولديّ ملاحظات أود التحدث بها تتناول جانباً آخر للحوار .. فأقول أن (أم المعارك) هي الحلم المستقر في ضمير كل بعثي آمن بمبادئ حزب البعث العربي الإشتراكي وأدرك جوهرها وحاجة الأمة الملحة إليها.. فهي من هذه الزاوية، من أخطر المعارك لتحقيق أهداف الحزب في الوحدة وتحرير الأرض العربية المغتصبة في فلسطين .. لقد ناضل البعثيون لتحقيق هذا الحلم، وكان كل واحد منهم يدرك أن طريق تحقيق الحلم طويل وشاق ويتطلب التضحيات، والسهر والتعب .. وكانوا يدركون أيضاً أن بلوغ الأهداف وتحقيق الحلم يتطلب إجراء التغيير الثوري الشامل في بني المجتمع الفكرية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية كشروط لا بد منها لتأسيس القاعدة المادية والمعنوية للدخول في مرحلة نضالية أرقى من سابقتها وأقدر على الفعل والتغير .. وقد تحقق ذلك من خلال حدثين تاريخيـــين أولهما ظهور القائد التأريخي الرمز الذي أحدث انعـــــطافاً نوعياً جديداً في أساليب القيادة وإقتدارها، وثانيهـــما ثورة السابع عشر – الثلاثين من تموز المباركة التي أنجزت بناء القاعدة المادية والعلمية والسياسية والإقتصادية للثورة العربية، بفعل قيادتكم التاريخية لها، وفي مجال إثراء عقيدة الحزب عن طريق نظرية العمل البعثية، في كل مراحلها وفق طراز رفيع ونادر من الفعل القيادي الذي أعاد الحياة مترعة خصبة لتلك الأمجاد الشامخة في تاريخ أمتنا ..

الرفيق العزيز صدام حسين حفظه اللـه .. إنها إذن معركتنا التي نجمع فيها كما قلتم في مناسبة سابقة كل أهداف الأمة مرة واحدة .. ولنواجه من خلالها نيابة عن الأمة، كل قوى الطاغوت والفساد والظلم، ولتتطهر نفوسنا في أتونها، ولترتقي إلى قيم الأجداد وصدر الرسالة، ولتتفوق على كل مظاهر الضعف البشري باتحادها مع منبع الحول والقوة ومصدر السلطان والنصر .. الله الواحد الأحد ..

إننـا بإذن الله المنتصرون .. لطالمـــا اخترنا أن نكون جند الله في الأرض ..

إنها سيدي الرئيس القائد .. مناسبة تزدحم فيها الأفكار والمشاعر والعواطف وقد لا يجد اللسان ما يسعفه في التعبير عن ذلك، لكن قلوبنا وضمائرنا عامرة بما يكفي للتعبير عن إيماننا البعثي بعون الله بكل الأهداف التي تنطوي عليها هذه المنازلة، وفي مقدمتها الإصرار على تحقيق النصر، ومواصلة العطاء بلا حدود، لكي تأخذ مبادئ الحق والعزة والشرف والعدل طريقها في الحياة العربية الجديدة.

نسأل الله عز وجل .. أن يؤيدنا بنصره ويثبت قلوبنا، وإن يحفظكم بحفظه، يمد في عمركم ويرزقكم العفو العافية، وإن يتوج عملكم بالنصـــر المبين .. والله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..

صدام : الرفيق مزبان.

مزبان خضر هادي : سيدي الرئيس القائد حفظم الله ورعاكم إنّ الأمة تستحق هذه المنازلة الكبرى ، نعم تستحق هذه المنازلة والمعركة

المقدسة التي نخوضها بقيادتكم هي معركة الإيمان كله ضد الشرك والشر كله وأنا واثق بأن هذه المعركة هي تشريف لنا جميعاً بل هي إرادة الله سبحانه بأن يحمل العراقيون بقيادتكم الحكيمة لواء الدفاع عن الإيمان والحق والعدل والأمة والمقدسات .. ولا أكتم سيدي بأنني ومنذ الساعات الأولى وبعد إستماعي لندائك قد سجلت النصر الأول لسيادتكم ولم أتمالك نفسي فبكيت .. نعم بكيت .. فرحاً وخرجت أهزج وأرقص ومعي حمايتي من الجنود يرددون ويهتفون للنصر .. كيف لا أهزج وأنا أرى جمع الشر الولايات المتحدة الأمريكية والصهاينة والأطلسيين الذي خيلت لهم أوهامهم بأن العراق لا يمكن أن يقاوم لساعات وأن ضربه سيكون سهلاً لا يتطلب إلا أياماً معدودة، كيف لا أبكي فرحاً وأنا أرى هذه الأوهام السوداء تتلاشى بعد أن إصطدمت بجدار صلب من إرادة قائدهم الشهم جدار لا يزول ولا يحول ولا يلين، وإنني – والله سيدي – لواثق الثقة كلها بأن النصر آت لا ريب فيه وأردد قولك الكريم (إنني أرى النصر وكأنني أحتفل به).

اليوم ذهبت إلى محافظة ديالى والتقيت مع المنظمات المهنية والجماهيرية وطلبت منهم أن يواصلوا اهتمامهم بشؤون الناس وإيجاد علاقات وتفاعل تام مع المجتمع، كما التقيت بجمع كبير من الناس وتحدثت معهم فوجدتهم يتمتعون بمعنويات عالية تملأ قلوبهم محبة القائد فقد رددوا وبصوت واحد بلغوا تحياتنا للسيد الرئيس .. سلموا لنا على السيد الرئيس ونحن نتمنى له العمر المديد والصحة التامة وهو منصور بعون الله. قولوا للسيد الرئيس (إحنا عند عيناه) .. هذه هي معنويات شعبنا .. فسيدي أنت منصور بعون الله وأعتقد أن الرفاق قد وصفوا الوضع العربي والعالمي.

النصر المؤزر لكم وللعراق بقيادتكم وسنحتفل بيوم النصر مثلما إحتفلنا بنصرنا يوم 1988/8/8 أنا واثق سيدي بأن يوم النصر قريب وسيتحقق قولك (إنني أرى النصر وكأنني أحتفل به).

إسلم لنا سيدي ولكم وافر الشكر والتقدير مع تحياتي الخاصة وتمنياتي لكم بالعمر المديد والصحة والعافية والله حافظك وناصرك ..والسلام.

أحد الحاضرين : هل يمكن طرح ملاحظة تخصك ..

صدام : نعم

المتحدث : سيدي .. إننا نقدر العدو وإمكانياته، وهذا الموضوع والقدرة الأمريكية والفرنسية والإنكليزية .. وهناك أقمار صناعية تتحرك وترى .. وبإمكانها أن تشخص .. سيدي .. الشيء الذي أريد أن أقوله .. إنني غير مرتاح لحركتكم، وأقولها بصراحة ..

قاطعه أحد الحاضرين : أرجوك .. الله يحفظه.

المتحدث : طبعاً الله يحفظه ولكن سيدي .. هناك بعض الأمور .. أرى أن تكون بطريقة أو بأخرى .. حركة من بغداد أو إلى الجنوب، إلى الجبهة .. الخ والآن العدو يتابع حتى الأماكن والبيوت وحتى بعض الأمور، وأين يتوقع أن يكون صدام حسين .. وكذا هذه ملاحظة فقط وأرجوك سيدي .. والله يحفظك ..

صدام حسين : لو كنت أعرف أنكم تضعونني بهذا الجو الإنساني الرفاقي المؤثر، لحاولت أن آخذ فرصتي في الكلام إبتداءً، لأنه سيصعب عليّ الإسترسال بالشكل الذي أعبر به عما أريد قوله مثلما أتمنى، لأفيد بما أقوله وأطرحه من ملاحظات .. أقول في مثل هذه الأيام، لا يوجد هناك يوم يكرر يومه .. بل اليوم هو بيومه، والحالة بحالتها، وعمركم طويل إن شاء الله، لتروا الإنتصارات، مثلما قلنا في لقاءاتنا في مناسبات سابقة .. وكان قسم كبير منهم آنذاك في المؤتمر الإسلامي الذي إنعقد في بغداد ليس من العرب، ولكن لم نخجل من القول أمامهم، أن العرب قد فسدوا إلى الحد الذي لا بد من حدوث إصلاح من داخلهم، ليواصلوا دورهم الإنساني، وليس القومي فقط .. قد لا نكون كبعثيين، فهمنا هذه الصلة الحميمة والترابط الروحي والحضاري والإنساني بين الوطني والقومي والإنساني من قبل مثلما فهمناها اليوم، إذْ لا يمكن للوطنية بالمعنى العربي، والقومية بالمعنى العربي أن تتحقق بمعانيها الروحية والحضارية العميقة ما لم تكن إنسانية بكل قيمها وبمداها أيضاً.

ففي هذا الجانب أرجوكم أن تحرصوا على هذا الترابط، طالما أنتم بصدد هذا الدور القيادي الرائع، وبهذه المكانة التي أنتم عليها في هذا الدور، وهو شرف عظيم من الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بمثل هذا الشرف، أي أن نقوم بهذا الدور .. فعلينا أن لا ننسى الصلة بين الوطني والقومي والإنساني بكل شموليتها، وحتى لما يحتاجه الإنسان الفرنسي وهو في فرنسا، والأمريكي في أمريكا أو أي مكان آخر، عندما نستطيع أن ننقذه من سوء، علينا أن لا نضيع مثل هذه الفرصة .. ومثلما علينا مسؤولية واضحة المعنى في أن نصلح أنفسنا، فلا بد أن أنفرد من بينكم في القول، إنه ربما يحبنا الله كثيراً في أنه أعطانا هذا الدور لنطهر بقايا ما ينبغي تطهيره من داخل أنفسنا، لأن الحالة القيادية لا يمكن أن تكون بالمعنى الذي ترضي الله والناس ما لم تبلغ المدى الذي هو ضمن القياسات التي تحدثت عنها.

إذن .. كل هذه بركات .. ليس في العنوان الذي يسجل في الأرض فقط، أو في ما يقدره الله من مكانة لكل واحد منا، أياً كانت، وإنما أيضا وبمستوى آخر من الأهمية في عملية الإنقاذ التي نقوم بها للحالة الإنسانية، سواء في العراق أو في الأمة ككل أو في العالم بدرجة أو بأخرى ..

وقبل أن أذهب في الحديث إلى الجوانب العملية الصرف كمفردات نحتاجها في عملنا، لابد من عملية تذكير بتسلسل الاهتمام، ليس لوضع فروقات بين الشعب والحزب، وإنما لإيجاد الترابط الحي .. أو لعدم نسيان الترابط الحي .. ومثلما قلنا، انه لا يمكن أن تستكمل الصورة التي نريدها في الدور القيادي، ما لم يكن حزب البعث العربي الاشتراكي طليعيا في مسيرتنا التي نتحدث عنها .. وحتى يكون طليعياً، لا بد من تهيئته ليلعب هذا الدور، لأنه عندما يفقد دوره الطليعي لا تكون الصلة بيننا، وبينه وبين الشعب كما تحتاجها المعركة التاريخية بالوصف الذي وصفته .. وعليه لا بد من الاهتمام بحزبنا الذي أصبح حزب الشعب، أي بمعنى أن نكون قريبين منه في التحليلات والتوعية والتهيئة والإعداد ودعوته المستمرة لأن يلعب دوره .. وان لا يتأخر عن دوره في مفردات الإنسانية والعمل العملي اليومي .. أي يجب أن يكون طليعة في كل شيء، ليس فقط بالتضحية عندما يستدعي الواجب حمل السلاح، وإنما بالإيثار الذي من دونه لا يكون حمل السلاح ذا طابع جهادي نضالي عميق التأثير، وفي التصرف اليومي بمفردات من الإيمان تكون ملموسة عند القاصي والداني بحيث تشكل حالة إشعاع وتواصل روحي إيماني، بينه وبين المواطن الذي يقوده.

ولا بد أن نحمد الله، كقيادة، على أن الله قد وفر لنا مثل هذه الفرصة.

يجب أن نحث حزبنا على العمل الجماعي .. لأن العمل الجماعي يعطي مستوى من الأمل، لا يمكن أن يقدمه العمل الفردي.

فعندما (نهوّس) يجب أن (نهوّس) جماعياً، وعندما نأكل يجب أن نأكل جماعياً. وعندما يجلس عضو قيادة الفرقة في الجيش الشعبي، مع المؤيدين والأنصار، ويأكل معهم اللقمة التي يجلبها معه، فإنها تقدم مدداً معنوياً في تصرف الإنسان بالشكل الذي لا يقبل الشك في أن هذه المفردات جزء من الإيمان العميق داخل صدر الإنسان وداخل نفسه .. فتجعل للعمل الجماعي، بما في ذلك الإستشهاد جماعياً، معنى غير المعنى الذي يستشهد به الإنسان فردياً ..

هذا ما أعتقده، أي أنه بغير هذا لا يمكن أن تخلق قضيه كبيره ذات معنى ودلالات تاريخية عميقة .. أي تخلق حالة جديدة هي غير حالة همة المفردات .. فالهمة الجماعية ليست حاصل جمع همة الأشخاص، وإنما هي حاصل تفاعل روح الإستعداد الجهادي والنضالي الجماعي عند الأشخاص، أي أنها حالة تعلو وتكبر بهمة وتفاعل الجماعة .. فتصبح فوق وأكبر من كل طاقتهم كمفردات مجمعة، وحالة روحية غير الحالة التي هي داخل روح أي واحد منهم بمفرده ..

كلنا نفكر لوحدنا، ونتخى أنفسنا .. وهذه من القوانين التي تفيدنا في حياتنا، وحتى في صلتنا مع الناس، يجب أن نقول مع أنفسنا دائماً عندما نفكر لوحدنا، لو كنت أنا في الحالة التي عليها فلان ماذا عساي فاعلاً وبماذا أتأثر سلباً أو إيجاباً، وهذه الحالة تبعدنا عن الكثير من الأخطاء وتقلل الإنزعاج أو الرضا في غير مكانهما كثيرا.

وأضاف : نقول للناس لقد وصلتم إلى مرحلة وإذا ما تدحرجتم من القمة، فلا يمكن أن تتوقفوا عند الحلقة أو الدرجة الثانية في مساركم، وإنما

سترجعون القهقرى .. إلى الخلف، وستكون (الدحرجة) غير منتظمة، أي لا تكون دحرجة رياضية وإنما دحرجة بالدفع، وسوف تنسلخ روحكم عنكم وحتى لو عشتم كبشر فأنتم هذا الجيل خاصة، عشتم على قيم لا يمكن أن يقبل العدوان تستمروا في عمل أي جزء منها .. ولا يمكن أن يعطيكم المفردات التي يحلم بها حتى الناس الذين يركزون على الجانب المادي دون المعنوي من الحياة وعلى الدنيا من غير خلفية الآخرة، ولا مجال لحيازة شروط الدنيا الصحيحة، أي الحياة الهانئة إلا بربح المنازلة، وربح المنازلة يقتضي إصراراً على الإستمرار بها حتى النهاية قال صدام حسين :

إذن أيها الرفاق .. هناك أناس، إذا دققتم جيداً ستجدونهم .. فعدا هناك أناس وهم قلة .. إنهم من البساطة بحيث يقولون .. إذا كانت القصة هي أن نعطي الكويت .. لنعطه الكويت ونرجع إلى ما كنا عليه .. وهنا يجب أن نقول لهم إن ما كنتم عليه قبل الثاني من آب هو عراق من غير كويت، وقد تآمروا عليكم ليجوعوكم بعد أن يجردوننا من قدراتنا الإقتصادية .. وان الكويت التي هي الجزء المقتطع من العراق قد تحولت إلى ساحة تآمر في خاصرة العراق، ولذلك عندما صممنا خطتنا العسكرية فلا بد أن يتخذ من الكويت المدخل إلى مهاجمة خطط العدو ومؤامراته وأصبحت عن ذلك الكويت جزءاً حياً من العراق .. لذلك فان خلاصة الموضوع هي أن مسيرتكم قد أوصلتكم قبل الثاني من آب إلى مستوى إمتلاك إرادتكم فامتلكتم إنسانيتكم، وبعد أن إمتلكتم إرادتكم، إمتلكتم دوركم، وعندما إمتلكتم دوركم امتلكتم إنسانيتكم، وهنا بدأ الهجوم المقابل عليكم بكل معانيه العنيفة، وبدأت المؤامرة التي إشترك فيها حكام الكويت .. ولكن واحداً من الأمور التي وردت في الطريق، في موضوع 2 آب، هو أن حياتكم التي كنتم عليها يجب أن نحافظ عليها ونستمر فيها ونطورها إلى ما تكون فيه حالاً أفضل.

إن الحالة التي كنتم عليها قبل يوم 2 آب ليست الحالة النهائية التي ستبقى بأيديكم، وإنما خططوا لأن يرجعوكم إلى مستوى لا تجد فيه النساء أحيانا الحد الأدنى الذي يحفظهن من الزلل .. وهذه واحدة من أهم الأمور التي جعلتنا نثور يوم 8/2، لأن إنسانيتنا قد أصبحت مهددة بينما كان يسعى ليحصل على أعلى مستوى الأمة ويعدل دورها الإنساني ويسترجع حقوقها المغتصبة، وإذا بنا نصبح مهددين في إنسانيتنا داخل العراق، ففرض علينا هذا الحال أن نثور ..

أقول نثور وليس مجرد أننا جيشـّنا على الأعداء المعتدين، هذا هو الحال الذي كنا عليه قبل وفي يوم الثاني من آب الأغر، وليس في تصورنا أن يوم 8/2 هو عبارة عن تحريك جيش ليطرد الحكام الكويتيين الخونة المتآمرين. بل إننا في يوم 8/2 ثرنا دفاعاً عن القيم العليا ومن بينها الحالة الـتي كنتم إليها ..

إننا لم نرد قبل يوم 8/2 إلا أن نحافظ على الحالة التي كنا عليها ونطورها نسبياً كأن تكون بنسبة 1% سنوياً أو 2%، ولكنهم كانوا يريدون إرجاع الحالة حتى التي لا نقبلها للعراقيين ونريد أفضل منها .. حتى هذه الحالة التي كنا عليها حتى في مستوى المعيشة كانوا يخططون لإرجاعها إلى الخلف في مؤامراتهم الدنيئة .. لسحقنا معنوياً لنضطر للتخلي عن دورنا .. أريد أن نشرح هذه الحالة .. لماذا ؟ من أجل أن يتحمل العراقيون الأشهر الصعبة .. وما نحن فيه ليس حالة الصعوبة كلها، إن ما نحن فيها هو أصعب حال في جهد العدو الجوي .. ولكن هي ليست الحالة الأصعب في حياتنا الإقتصادية وإمكاناتنا الفنية .. أقول الآن وليس إدعاء نظرياً .. إذا ما جمعنا الطلعات الجوية ضدنا فإننا نراها في تناقص .. فنحن جالسون منذ الغروب والساعة الآن وصلت إلى العاشرة .. لم تدق صافرات الإنذار سوى مرتين، ولكن لم تصل طائرات إلى بغداد .. وخاصة إذا ما تذكرتم كيف كانت الحالة في اليوم الأول والثاني والثالث والرابع .. إذن هناك تراجع .. أي أن العدو يتراجع في قدراته، ولكن في الآثار التي قام بها العدو خلال هـذه الأيام في ضرب محطات الكهرباء ومحطات المياه والتلفونات .. الخ .. قد يكون العراقي أمام حالة تشبه كرة الثلج .. فكلما يمضي يوم إضافي يحس بعبء وثقل نقص الخدمات، وهي مسألة إنسانية ويجب أن أتوقعها، برغم أنني رأيتُ بعيني عندما ذهبت إلى البصرة البارحة للقاء بأعضاء القيادة العامة، أناساً في القصبات يملأون الماء من (الغدران) التي تقع في الوسط بين الشارعين، فقد رأيت أنهم يأخذون من الماء النازل في الوسط من الشارعين، وقد رأيت النساء شخصياً وبعيني يأخذن الماء من هذا المكان .. ولذلك أرجوكم أن توصوهم بأن يغلوا الماء من هذا الطراز قبل أن يشربوه .. وسيجد كثير من العراقيين وربما أغلب المدن الكبيرة أن لا كهرباء

في بيوتهم، فقولوا لهم عليكم بالصبر الذي يعيد الضائع ويفتح الباب الأكيد للمزيد مما يعز الإنسان، الذي فقدناه وسيجعلنا نفقد أعز ما نعتبره عزيزاً علينا في الجوانب المادية والروحية ..

إذن .. عليكم رفاقي أن تحثوا رفاقكم .. المدير العام والوزير ووكيل الوزارة بأن يبتكر ما هو جديد ومفيد من خلال الإعتماد على تطوير الأساليب وقدرة الفعل المؤثر بالإمكانيات الحالية التي توفرها لها الجهات الأعلى منه، ويجب أن ينسى الإمكانية التي كانت موجودة قبل ليلة 16 – 1991/1/17 ويعمل بالإمكانيات الحالية .. فكيف نصلح المكسور وكيف نخرج حلقة واحدة، إثنتين ؟ فبدلاً من أن تكون هناك عشر حلقات معطلة في المعمل الفلاني وفي المدرسة الفلانية، وفي المزرعة الفلانية، نجمع من الحلقات العشر حلقتين صحيحتين، والرفيق الذي يفعل هذا يكون رفيقاً جيداً. أما إذا كانت الحلقات الموجودة أمامه كلها جريحة ولا يمكن أن تقدم خدمة، ويجلس ينظر إليها دون أن يخرج منها إثنتين، فإنه رفيق غير جيد ..

بالنسبة لكهرباء محطة (الهارثة) في البصرة .. كما تحدثنا عنها إلى الآن، وفي الحرب مع إيران ؟ .. ولكن إذا ذهبتم إليها، ترون مداخنها بيضاء، وما يحيط بها أخضر وبساتين .. لماذا لا نطليها ليكون لونها أخضر مثل البستان ؟ حتى في الأقل ربما يخطئ من يسدد عليها عن بعد، وبدلاً من أن يصيب ثلاثاً منها، يصيب واحدة.

إننا الآن أمام حالة عملية .. وأعتبر الرفيق المسؤول عنها لم يستوعب، برغم أنك عندما تقول له اذهب إلى الموت، يقول نعم أذهب وأقاتل إلى أن أستشهد .. ولكنني أريد أن يوفر هو من موقعه مفردات تديم الأبطال الذين وضعوا أنفسهم موضع إستشهاد لزمن إضافي أكثر ..

إذا كان لدينا وقود يشغل العجلة العسكرية لمدة سنة، يكون أفضل مما يشغلها لمدة ستة أشهر، ويكون أفضل إذا كان لمدة سنتين أو ثلاث سنوات .. ويكون أفضل إذا شغل الوقود العجلة العسكرية وقليلا من المدنية .. إذن هكذا نكون ونحثّ رفاقنا على .. كيف يقدمون مفردات في الحياة العملية وكل واحد من موقعه .. راعي الغنم من موقعه، والمدير العام في الصناعة من موقعه، والكل تحت شعور مشترك بالمسؤولية .. أي أن يكون تصميم راعي الغنم والمدير في الصناعة ورئيس الدولة، والقيادة كيف نربح المعركة، ولا مجال لتساؤل بغير هذا الإتجاه والنصر قريب بعون الله، فنحن لا نستطيع أن نقول (لأنه ..) ولا نستطيع أن نقول كيف لا نربح المعركة .. بل نقول يجب أن نربحها، وبعد هذه المنازلة سترون أن إنعكاساتها ستغطي الإنسانية ككل .. فيقيمون وزناً للسنغال، ويقيمون وزنـاً لموريتانيا والسودان وللعراق ولفلسطين.

الحمد لله .. إنني محظوظ بكم أيها الرفاق، مثلما محظوظ بشرف مسؤولية القيادة ولا ننسى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .. والله لو كان لدينا ربع القوة المادية التي لديهم، لخضنا عليهم البحر، لنصححهم داخل البيت الأبيض نفسه .. ونحن نؤمن .. أن صمودنا يصلحهم داخل البيت الأبيض ولكنني قلت هذا تحت إحساس مواطن، وليس تحت إحساس قائد .. قلت تحت إحساس مواطن، لو كانت لديّ ربع القوة العلمية والتقنية التي يملكونها لخضنا عليهم البحر لنصححهم داخل البيت الأبيض، أما تحت إحساس القيادة، فيكفينا أننا نصمد ولا نتنازل لينهزموا داخل البيت الأبيض.

وتوقف الرئيس صدام قليلاً : فعقب عزة إبراهيم : إن هذا سيجعل الفرنسيين والألمان حكومة وشعباً (آدميين) ويستقلون وهكذا بالنسبة للإيطاليين .. لأنهم سيذكرون هذه الدولة الصغيرة ..

فقال الرئيس صدام : والسوفييت أيضا يجعلهم مستقلين ..

وعقب أحد الحاضرين : لديّ ملاحظة أخرى .. بموجب توجيهاتكم، أرى أن قسماً من الوزراء ذهبوا خارج بغداد، فمثلما نحن موجودون في بغداد ..

صدام (مقاطعا) : وهل لدينا وزراء خارج بغداد ؟

عزة : نعم كل الوزارات .. وكل الوزراء تقريباً .. وهناك تبليغ ..

صدام : أعتقد أنها تعليمات فُهمت خطأ .. إذ قلنا في الضربة النووية يخرجون .. ولكن لم تحصل حتى الآن ضربة نووية ..

عزة : سيادة الرئيس .. إن بغداد آمنة.

صدام : إذا ذهبت القيادة، فمن الصعب أن تقود الوزارات، القيادة تظهر من الحزب، وليس من الوزارات الفنية .. فليرجع هؤلاء الوزراء من حيثما ذهبوا ويستقروا داخل بغداد.

طه رمضان : قد يغير الوزير موقعه، فيأخذ بناية أصغر مثلاً.

صدام : هناك مدارس .. دعوا هؤلاء الوزراء يستقرون فيها .. يجب أن تضعوا برنامجاً للشباب الذين ليس لديهم دراسة أو خدمة عسكرية .. سواء كان برنامجاً تدريبياً أو تعبوياً أم في الحراسة، عليكم أن تشغلوهم ..

أحد الحضور : ولدينا الآن 32 قاطعاً للتدريب العسكري من طلاب الجامعة.

صدام : نعم وطلاب الثانوية أيضا ينبغي إلحاقهم بالتدريب العسكري أيضا. × × ×

هل يخرج قارئ هذا المحضر بغير الملاحظات الآتية ؟ ..

أولاً : إن اللغة التي يتخاطب بها أكبر المسؤولين المعنيين بتخطيط السياسات العلُيا وتقرير مصائر البلاد لا ترقى عن لغة الشعارات التي تتسم بالمبالغة والتهويل وتبتعد بالتمنيات مسافة كبيرة عن الحقائق الموجودة على الأرض، كما يظهر أن المبالغة وتبرير الخطأ والإعتزاز بالإثم مما يطبع الدعاية الحكومية كان موجوداً أيضاً في الغرف المغلقة التي يفترض أنها مخصصه في تلك الساعة الخطرة للبحث عن معالجات للمأزق الذي وضعوا البلاد فيها، بحيث بدا القياديون في وادٍ والشعب الجريح في وادٍ آخر.

ثانياً : أن الإجتماع تكرس للإشادة بشخص الرئيس أكثر مما تعرض لمعالجة الأوضاع الكارثية التي أصابت الشعب بعد إنهيار البنية التحتية كما لم يبحث في الخيارات البديلة في حالة سقوط خيار (القتال حتى النهاية) فقد إستسلم الحاضرون جميعاً لخيار واحد، إلى درجة إيهام الذات بأن النجاح في هذا الخيار هو أمر ممكن ومحتمل.

ثالثاً : إستخدم الحاضرون في الإجتماع لغة قذف شخصي منفعل ضد الزعماء العرب كما يفعل العوام في المتدني من لغتهم، وهي لغة لا تنقذ أصحابها من العجز ولم يكن لها أن تطور موقفاً سياسياً وعسكرياً، أو أنها كانت ستخفف من معاناة الشعب تحت القصف، أو أنها قادرة على تحويل منحى النزاع وإتجاهه، وليس من المبالغة القول إن هذه اللغة تعكس الشعور الكامن بالهزيمة والعجز عن ملاقاة إستحقاقات الحرب.

رابعاً : يكشف الحوار أن بعض المسؤولين العراقيين كانوا يعوّلون على ما يعرف بدهماء الشارع في صنع السياسة، وأنهم بالغوا كثيراً في تقييم أهمية خروج تظاهرات مؤيدة هنا أو هناك، كما أنهم كانوا يتوقعون عمليات جرى ترتيبها سراً في مناطق مختلفة من العالم، ويدل كلام بعضهم على أنهم إعتقدوا بأن (تحولاً في اتجاه المعركة) كان سيقع فور حصول تلك العمليات .. التي لم تقع.

●●●

دارت تلك المناقشات في ساعاتٍ كان العراق يتهدّم فيها .. جسوره، مصانعه، مزارعه، محطات تحلية مياهه، ومراكز اتصالاته الهاتفية، ليعود الإنسان العراقي إلى عصر ما قبل الصناعة .. يعود مرة واحدة إلى نصف قرن من الزمان، في حين كان الجنود يهربون من الجبهة في رفض جماعي لخوض هذه الحـــرب ..مثلما يهرب الوزراء من بغــداد ليُخلّفوا الشعب وحيداً تحت النــــار .

كان الشعب يئن، وينزف، ويتيه في حيرة مواجهة المستقبل، في حين كانت قيادته تتحدث بلغة هُلامية عن (نصــرٍ) لم يكن يعني أحداً .. ولم يكن بين العراقيين من ينتظر نصراً من معركةٍ كانت خاسرة قبل أن تبدأ ...

القسم السابع

بــوابـــة العــامــريــة

..وأندفع المئات يبحثون عن أقارب وأصدقاء
دخلوا ملجأ العامرية ولم يخرجوا إلاجثثاً مفحمة.
.وشهد المكان أول عرض ساخط ضد ظلم مزدوج
من داخل البلاد وخـــارجها..

تنازع على فرص الحياة

كان ثمة تنازع على الحياة .. شعب يلهث للحصول على الخبز والأمن والمياه الصالحة للشرب، ليجد نفسه في كثير من الأحيان في تنافس غير عادل مع أجهزة الدولة ومؤسساتها التي باتت هي الأخرى تبحث عن الفرص ذاتها .. في الملاذ الآمن والمياه النقية والطعام ..

وكانت أكثر المشاهد إثارةً هي تلك التي تتعلق بالحصول على مهجع تحت الأرض في ملاجئ بنُيت للوقاية من القصف الجوي خلال الحروب وأُنفق عليها مليار دولار ..

عُرفت تلك الملاذات بـ (الملاجئ الذرية) للدلالة على قدرتها في حماية المستجيرين بها من ضربات نووية موجهة من الطائرات أو الصواريخ، وبلغ عددها في بغداد أربعاً وعشرين ملجأ وزعت على مناطق سكنية متفرقة بعد أن كانت العاصمة العراقية قد تعرضت منتصف الثمانينات لرشقات متكررة من القصف الإيراني بالصواريخ بعيدة المدى، لكن تلك الملاجئ لم تُستخدم من الناحية العملية إذ إكتملت في أُخريات سنوات الحرب مع إيران، وتحولت بعد إنتهاء الحرب إلى عبء وقررت الحكومة البحث عن حلول للإستفادة منها في مرحلة السلام ..

وقد تشكلت سنة 1989 لجنة مركزية ضمت ممثلين عن عدد من الوزارات والدوائر الحكومية لتقرير البدائل المتاحة لإستخدام هذه الملاجئ المكونة من ثلاثة طوابق تحت الأرض تفصلها عن محيطها الخارجي حيطان وأسقف بنيت بالخرسانة الإسمنتية المسلحة وزودت بنظام لتوفير الأوكسجين وتفريغ الهواء الفاسد، وكان يفترض أن يتسع كل منها لألف وخمسمائة إنسان يستطيعون البقاء بضعة ليالٍ يحصلون في خلال على أغذية معلبة وأدوية أساسية مخزنة فيها .. وفوجئت اللجان التي فتشت تلك الملاجئ قبل سنة من اندلاع أزمة الخليج أنّ وزارتين على الأقل هما (التجارة) و (الصحة) كانتا تتنافسان على استخدامها كمخازن لإيداع مواد تابعة لهما، في حين إستخدمت اللجنة الأولمبية بعض مساحات الملاجئ كقاعات رياضية مغلقة للألعاب الخفيفة، وجرى تخزين الفائض من أشرطة الإذاعة والتلفزيون في أماكن أخرى منها ..

جرى ذلك كله بعيدا عن إهتمام سكان المناطق التي شُيدت فيها تلك الملاذات، مع أن مرآها كان يُذكر بحرب انتهت .. وأخرى قد تقع يوماً ما .. وربما تعلقت آمال أولئك السكان بالمظهر الخارجي الأصم للملاجئ الذي يمنح شعوراً ما بالاطمئنان حتى لو وقعت حرب أخرى حيث كان يفترض أن المدنيين سيجدون سبيلهم للمبيت فيها والوقاية من آثار القصف الجوي والصاروخي ..

●●●

خمسة أشهر من الخوف

شهدت الأشهر الخمسة التي سبقت الحرب سعياً محموماً للعثور على ملاذات آمنة، كانت الوزارات والدوائر الحكومية تتصرف مثل الفرد العراقي العادي الذي تلبسه الخوف والقلق وهو يراقب قدوم الحرب وسط صرخات التهديد والوعيد .. لا بل والتهليل لخوض معارك لم يكن هناك من يتوقع الفوز فيها ..

ولأول مرة، أطل السكان المدنيون برؤوسهم لمشاهدة المداخل المؤدية إلى تلك الملاجئ، ليمنحوا أنفسهم قدرا من الشعور بالإطمئنان .. حتى لو كان ذلك ضربا من إيهام الذات ..

غير أن الذي حصل في تلك الأشهر الخمسة كان مثـيرا لريبة السكان .. ثم غضبهم فقد كانت ملفات حكومية ومعدات لدوائر رسمية تنقل تباعاً تودع في تلك الملاجئ، ثم جرى منع السكان من دخولها أو حتى الإقتراب منها .. وعندئذ بدأ نمط جديد من التنازع على هذه الملاجئ التي غدت رمزا للخلاص من الخوف الجماعي الذي ساد العراق في إنتظار ملاقاة حرب كانت تزحف نحوه ..

كان ثلثا السكان قد غادروا بغـــــــداد إلى المدن والقرى القريبة، موزعين بين (بعقوبة) و (جلولاء) و (زرباطية) و (المقدادية) شرق بغداد و (الرمادي) و (عانة) و (راوه) و (حديثة) غرب بغداد و(المحمودية) و (اليوسفية) و (الحلـــة) و (المحاويل) و (النجف) و(كربلاء) جنـــوب بغداد .. وفضل كثيرون اللجوء إلى الأضرحة الدينية التي ظلت طوال الحرب مع إيران في منأى عن القصف فأنتقل إليها المسؤولون الحكوميون هذه المرة كما فعل المواطنون العاديون أيضا ..

أما ما تبقى من السكان، فقد صحوا منتصف ليلة السادس عشر على السابع عشر من كانون الثاني "يناير" 1991 ليجدوا أن هناك من سبقهم إلى بعض الملاجئ التي عدّوها ملاذهم في الحرب.

انتقلت مكاتب وزارة الخارجية إلى ملجأ حي (اليرموك) واستقر المقر البديل للإرسال الإذاعي في ملجأ (حي القضاة) .. وكان سكان المناطق الأخرى أوفر حظـاً لأنهم وجدوا سبيلهم للدخول قبل الدوائر الحكومية إلى الملاجئ ..

وتجمهر السكان حول الملاجئ التي سبقتهم إليها تلك الدوائر لقد كانوا ينظرون بغضب وإستنكار لما كان يحدث، وسمح لسكان حي (العامرية) الملجأ المشيّد في حيهم دون أن يخطر ببال أولئك المدنيين أنهم سيدخلونه مرة ثم لا يخرجون منه إلى الأبد ..

وبات الخوف مرادفاً للغضب .. إذ أن وجود مكاتب حكومية في بعض تلك الملاجئ كان ينبئ بإحتمال تحولها إلى أهداف للقصف بالطائرات والصواريخ مما يهدد حياة السكان القاطنين حولها .. ثم تولد شعور آخر لعله نقيض لذلك كله، فحين تهدم ملجأ (العامرية) تنفس كثيرون الصعداء وعدّوا أنفسهم محظوظين لأنهم لم يجدوا مكاناً لهم في تلك الملاجئ .. وأن الفرصة التي ضاعت عليهم في الاحتماء به قد أنقذتهم من موت محقق. لقد حصل أن شغل السكان ملجأ (العامرية) واعتادت النساء أن يذهبن عند المساء مع أبنائهن وبناتهن لتمضية الليل في قاعات الملجأ دون أن يخطر ببال أحد أن الرئيس كان قد زاره قبل يومين على الأقل من تاريخ قصفه حيث إجتمع مع عدد من المسؤولين الأمنيين الذي سبقوه لإخفاء ملفاتهم في بعض ردهات الملجأ. ولم يمكث الرئيس طويلاً حيث لم يعتد البقاء أكثر من ثلاث أو أربع ساعات في مكان واحد طال الأيام الاثنتين والأربعين التي استمر فيها القصف.

وكان ملجأ (مدينة الشعب) الواقع شمال شرق بغداد قد تعرض هو الآخر لضربة جوية أصابت المدخل المؤدي إليه دون أن تلحق به أضرار كبيرة بعد أن ترددت سيارات حكومية مرات عدة على نقل بعض المسؤولين الحكوميين إلى ذلك الملجأ ..

إنه الأسبوع الأخير من الحرب .. حيث سيدفع المدنيون الأبرياء ثمناً باهظاً لأنهم صنعوا الكثير من الآمال والأوهام حول ملاجئ اعتقدوا أنها سبيلهم إلى الخلاص .. فإذا بها تصبح مقبرة جماعية لهم.

●●●

بوابة (العامرية)

عند صباح 13/ شباط "فبراير"/1991 كان أربعمائة شهيداً قد احترقوا في (العامرية) .. . إندفع مئات من العراقيين يبحثون عن أقارب وأصدقاء ومعارف دخلوا ملجأ (العامرية) ولم يخرجوا منها إلا جثثاً مفحمة، ووجدوا أنفسهم في مواجهة المسؤول حكومي يصل إلى المكان عند الفجر، الا وهو وزير الإعلام السيد لطيف نصيف جاسم الذي إندفعت النسوة إلية ليشتمن الحكومة أمامه في أول عرض علني ساخط للغضب خلال الحرب، كان كافياً للكشف عن عمق الهوة بين شعب سحقته خديعة قيادته واستباحت أمنه وحرماته النار التي كانت تهطل عليه بلا رحمة من السماء .. لقد توزعت مشاعر الكراهية والغضب على قيادة ورطت شعبها في الكارثة، وعلى دول التحالف الغربي التي

كانت تعاقب الشعب العراقي كله بجريرة الأخطاء التي ارتكبتها قيادته ..
بلع الوزير شتائم المتجمهرين .. وانسحب إلى الظل لا تسعفه الكلمات ليقول شيئاً مع أنه كان الناطق الوحيد الذي يحق له الكلام بإسم الحكومة في تلك الساعة.
ولم يعد السكان إلى الملاجئ ثانية .. فخرجوا يبحثون عن ملاذات يأمنون فيها من قصف الطائرات الأمريكية، وذهبوا لإفتراش الأرض تحت الجسور التي تربط الطرق السريعة، وتوزع آخرون على المزارع القريبة من بغداد .. أما ما تبقى منهم فقد ارتضى المكوث حيثما كان هناك سقف فوق رؤوسهم في إنتظار ملاقاة المجهول ..
وتخلّف في (العامرية) ليلة 13/ شباط "فبراير" / 1991 شاهد لن يندثر عن كارثة مفجعة تمخضت عن ظلم الحكم .. وظلم العالم الخارجي.

جنود صالحون ..وجنود فائضون عن الحاجة

إنه لأمر مفجـــــع أن تـميّـز القيادة العراقية بين نوعــين من الجنود .. ونوعين من الشعب .. مــوالين وغير موالـــين لهـــا .. وقد جرى ذلك في مناخ اليأس أمام العالم والشعور العميق بالعزلة أمام الجمهور في الداخل، ولم يكن صعباً على القيادة العراقية إلتقاط المشاعر الحقيقية للشعب، إذ لم يعد الأمر مجرد مــس بشخص الرئيس يصدر عن العراقيين الساخطين كما اعتادوا أن يفعلوا دائماً، لكنه بات هذه المرة شعورا مركباً و غريباً يتلذذ فيه بعض الجمهور بمشهد إنكســـار قيادته و غرقها في ذل الـهـزيمة بعد أن عجـز هـذا الجمهـــور عن ثني تلك القيادة عن سياساتها مع العالم وإسلوب تعاملها معه في الداخل، فارتضى قبول الأذى لنفسه ما دام هذا الأذى قادراً على إذلال قيادته السياسية .. انه شعور نـــادر .. وغير ســـوي أيضاً لكنه كان من نتائج إتساع الفجوة بين شعب مستلب الإدارة وقيادة يتلبسها وهم الزعامة ووهم النصر، وعلى الرغم من العداء الغريزي للشعب العراقي ضد أي هجوم عسكري خارجي وغضبه ضد الولايات المتحدة التي لـم تفرق بين حاكم و محكوم في معاقبتها العراق، إلا أن الجمهور كان يبحث في لجة كراهيته للخصم الخارجي عن عقاب ينزل على القوة التي ألقت به في أتون الكارثة حتى لو جاء هذا العقاب بيد الخصم الخارجي نفسه .. ولا أقصد بنقل هذا الوصف – الذي شهدناه في قلوب الجمهور وألسنته – تبني إتجاهه، لكن توثيق تلك المرحلة العصيبة من تاريخ البلاد تفرض إعطاء وصف أمين للدوافع الكامنة في سلوك جمعي كان ينحو إلى تكرار القول (إننا لن نذهب بعد الآن في أي طريق يختاره أولئك الذين قامروا بحاضر البلاد ومستقبلها وتسببوا في إعطاء الخصم الأسباب التي تذل شعب العراق وتمـس كرامـــته).

●●●

لا شك أن صدام حسين كان في حاجة عارمة لتغطية قراره المتأخر لسحب القوات المتبقية من الكويت ، فقد ظل طوال إثنين أربعين يوماً من الحملة الجوية على العراق في إنتظار وقوع معركة برية تحسب لها كمعركةطويلة يواجه فيها هجوماً برياً تقليدياً تشتبك فيه القوات بعضها بالبعض الأخر فيستطيع عندئذ إيقاع خسائر كثيرة في صفوف القوات الأمريكية و المتحالفة معها ، كما إفترض أن المعركة البرية المنتظرة ستمكنه من أســر آلاف الجنود الامريكان وحلفائهم ليجعل منهم مفتاح التسوية التي تنهي الحرب بطريقة متعادلة سياسياً وعسكرياً.

غير أن شيئاً مما إنتظره لـم يقـع ، فقد استمرت الحملة الجوية ستة أسابيع بعد أن كانت تقديرات القيادة العراقية تذهب إلى أن أقصى مدة سيستغرقها القصف لن تزيد عن اسبوعين ، أمـا الجنود العراقيون فقد اختاروا موقفهم مبكراً..لاجدوى من القتال..دون أن ينطوي ذلك الموقف على أي قدر من الضعف الإنساني أو الرغبة في مجاراة الطرف الآخر ، ولكنهم تصرفوا تحت وطأةالظرف العراقي وتعقيدات معركة لـم يقتنعوا بجدوى خوضها ..

أما القوات الأمريكية فكان أسلوبها في الهجوم البري إمتداداً لـمنطق الحملة الجوية من خلال فرض تفوق ناري مطلق وقطع خطوط الإتصال وعزل قطعات الخطين الأول والثاني ، عدا عن مهاجمة جبهات لـم تكن متوقعة في المرحلة الثانية من العمليـــات البريـــة وخاصة في جبهة الناصرية وغرب العراق .

كان على الرئيس أن يتخذ قراراً علنياً بالإنسحاب من الكويت بعد الإنهيار السياسي والمعنوي والعسكري..غير أن الأمر كان أشـــبه بولادة عســيرة بعد أن بـات الحديث في الإنسحاب أمراً محرمـاً ——————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————————————————

——————————————————————

.. في المشهد الأخير للهزيمة كان هناك تفريق بين عراقي وآخر .. بين جندي وآخر، فثمة جندي كان مطلوباً له أن يعيش وآخر كان عليه أن يواجه الموت والذل لأنه مبوب على خانة (غير الموالين للقيادة).. فقد صدرت الأوامر منذ الثاني والعشرين من شهر شباط "فبراير" 1991 لإكمال إنسحاب فرقتي الحرس الجمهوري (نبوخذ نصر) و(المدينة المنورة) للتمركز مع دروعهما شمال البصرة، ثم جرى يوم الرابع

والعشرين من شباط "فبراير" 1991 سحب لوائي الحرس الجمهوري قوات خاصة الثالث والسادس عشر، وهما (اللواءان اللذان أُستخدما في دخول الكويت فجر الثاني مـــــن آب "أغسطس" 1990) .

في حين تُركت فرق الجيش النظامية بمنسوبيها من الجنود المطوّعين والإحتياط لملاقاة الموت المحتم على طريق (المطلاع) بعد أن تلقت تلك الفرق إيعازاً متأخراً في السادس والعشرين من شهر شباط "فبراير" 1991 للخروج من الكويت حيث لم يعد هناك غير طريق واحد تعرض لقصف كاسح كان يستهدف إبادة النوع العراقي و سقط على ذلك الطريق أكثر من ألف شهـــيد من أولئك الجنود الذين عدتهم قيادتهم رجالاً أقل ولاءً ونفعاً من جنود الحرس الجمهوري المفضلين في لحظـة الإختيار بين المــوت والحيــــــــاة.

لقد تحملت الفرق المنسحبة نفسها عشرة آلاف إصابة خلال وجودها في الخنادق الأمامية، التي أصبحت أرضا متخلخلة بفعل القصف الكثيف من جانب طائرات (بي 52)، في حين تحولت دباباتها المنغرزة في الرمال إلى مجرد فوهات مدافع غير قادرة على الحركة تنتظر الإحتراق تحت نيران طائرات(الكوبرا)، وكأن معدات تلك الفرق كانت هي الأخرى في منزلة جنودها من أبناء الناس غير المفضلين في دولة تفرق بين جندي وآخر . ×

●●●

عــاد من بقي من الجنــود .. وقادتهم ليواجهوا أياماً عصيبة أخرى .. فالسياسيون الذين أذلوا الجندية العراقية لم يكونوا في موقف يتيح لهم الإعتراف بالهزيمة ولذلك فإنهم استداروا ليحمّلوا المقاتلين نتائج ما حدث .. لماذا تسرب (65%) من الجنود وعادوا إلى منازلهم ؟ .. لماذا اختار (100) ألف جندي الذهاب إلى الأسر .. ؟ لماذا رفض العسكريون سلسلة من المهمات التي كلفوا بها .. ؟ .. لكن أحداً لم يسأل صانع القرار عن الحديث الذي إبتدعه وفتح شدقيه لإبتلاع ثلاثة وثمانين ألف عراقي قضوا نحبهم في حرب كان ينبغي أن لا تقع .. وكان ممكناً أن لا تقع بالفعل ..

عاد من الكويت ثلاثة ضباط كبار وهم الفريق الركن كامل ساجد قائد قوات الخليج العربي التي سيطرت على الكويت واللواء الركن عصمت صابر عمر مدير صنف القوات الخاصة ومعاون قائد قوات الخليج واللواء الركن بارق عبد الله الحاج حنطة رئيس أركان تلك القوات .. مكث الأول في البصرة حيث انقطع عليه سبيل العودة بعد سقوط سيطرة الدولة على المدينة .. أما (عصمت) و (بارق) فوصلا بغداد، حيث طلب إليهما الرئيس الذهاب إلى كردستان لتحمل مسؤولية أخرى جديده .. لكنهما كانا يفكران على نحو مختلف، فقد عادا محملين بمشاعر الهزيمة والمذلة وكانا–على طول الطريق من البصرة إلى بغداد – يتحدثان أمام ضباط آخرين عن خطأ إحتلال الكويت .. وسوء إسلوب الإنسحاب وتوقيته ..

قال عصمت : لقد ورطنا قادتنا..

أما بارق فقال : انتهت مهمة الكويت .. وعلينا الآن أن ننجز المهمة الأكبر في بغداد ..

وعلم الرئيس بحديث الضابطين، فغضب عليهما .. ثم اتهمهما بالإنسحاب من الكويت قبل صدور الأمر إليهما تاركين جنودهما عرضة للهلاك .

واستدعى الرئيس الضابطين من شمال البلاد ليمكثا في مقر مديرية القوات الخاصة، ثم جاء من يقول لهما إنهما مدعـــوان على العشـــــاء في القصـــر الجمهوري..

دخل عليهما الرئيس مع عشرة من حراسه، وكانا قد قيُــدا في أيديهما وأنزلت أغطية الرأس العسكرية عنهما وبقيــا بملابس القوات الخاصة .. وبادرهم بالقول : ها أيها الخونة ..

فقال بارق : سيدي لستُ خائناً ولا جباناً.. أنا بطل معركة (أم الرصاص) .. إنني من أبطال الحرب مع إيران .. وأنا مخلص لك ..

فقاطعه عصمت : أسكت يا (بارق) .. لسنا نحن الخونة ..

عندئذ أشار الرئيس بيده إلى الحراس ليبدءوا بنحر الضابطين، وغرز (روكان رزوقي المجيد) الخنجر الأول في أمعاء عصمت .. ليتناوب

الآخرون على تفريغ جسدي الضابطين من أحشائهما ويقطعانها بالسكاكين من كل جانب حتى خرا كومتين من لحم غارق بالدم ُألقي به بعدئذ في مستشفى (اليرموك).

ولم يكتفه الرئيس بإعطاء الأمر لذبحهما .. وحسب، بل عبّر عن سخطه على صنف القوات الخاصـــة كله وأمر بتجميده بضعة أشهر ووصفه بـصنف الفئـران ..

وكان الحظ حليف الفريق كامل ساجد الذي عُين بعد سنة من إنتهاء الحرب محافظاً يتنقل بين محافظة وأخرى بعد أن تخلص من ملاقاة المصير الذي واجهه مساعداه اللذان كانـــا في يوم من الأيام من أقـــرب الضباط إلى رئيس الدولة..حتى ليبدو أنّ الاهتمام الذي خصّ به الرئيس اللواء بارق من بين جميع الحاضرين في لقائه مع القادة العسكريين في الكويت عشية الحرب كان مقدمةً للمصـــير الذي ينتـــظره.×

× أنظر النص الكامل للقاء صدام حسين مع القيادات العسكرية في الكويت عشية الحرب ص113

الذهاب إلى سفوان

لعب الوسطاء السوفييت دوراً أساسياً في التمهيد لإجتماع يعقد بين القادة العسكريين لكل من دول التحالف من جهة والعراق من جهة أخرى لوع تدريبات وقف إطلاق النار، وبات على الرئيس العراقي إختيار الوفد الذي سيمثله في هذا اللقاء في أكثر مراحل الصراع العسكري والسياسي تعقيدا وصعوبة .. فقد سقط عشرة آلاف جندي عراقي على طريق الموت بعد أن صدرت إليهم أوامر متأخرة للإنسحاب من الكويت، في حين أُعطيت الأفضلية لسحب قوات الحرس الجمهوري قبل ثلاثة أيام على الأقل من الموعد الذي أُعطي للجنود الآخرين .. والتهبت مدن الوسط والجنوب عندما التقى الجمهور بالجنود العائدين من الكويت محملّين بالغضب والســـخط.

وكان أول ضابطين إختارهما صدام حسين للذهاب إلى الإجتماع في خيمة (سفوان) الأول هو الفريق الركن نعمة فارس المحياوي وهو عسكري محترف كان قد أعطى أول دروس في الأركان لصدام حسين نفسه عندما كان ما يزال نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة. ثم تدرج محياوي بعد ذلك ليصبح قائداً لأحد الفيالق وعميداً لجامعة البكر للدراسات العسكرية وعضواً في القيادة العامة للقوات المسلحة .. أما الضابط الثاني فهو الفريق صابر الدوري الذي كان يشغل يومئذ منصب مدير الإستخبارات العسكرية.

غير أن ضباطاً بمثل تلك الرتب العالية لم يكونوا قادرين على قطع الطريق من بغداد إلى (سفوان) فقد إنتهت سيطرة الدولة على ذلك الطريق وسقطت معظم المدن والقرى الممتدة على جانبيه وباتت خارج السيطرة الحكومية وأصبح الضباط من ذوي الرتب العالية هدفاً للإعتقال والقتـل.

ولم يجد الرئيس حلاً غير البحث عن ضباط آخرين موجودين في قاطع البصرة، فعثر هناك على إثنين من الضباط الكبار، الأول هو الفريق الأول

الركن سلطان هاشم أحمد الذي كان معاوناً لرئيس الأركان والفريق صلاح عبود قائد الفيلق الثالث فأصدر إليهما تعليماته ليمثلانه في إجتماع سفوان .. دون أن يتمكن من اللقاء بهما وإعطائهما تعليمات مفصلة كتلك التي كان سيحصل عليها أولئك الذين جاء في باله أن يمثلوه أول مرة .. إتسم تاريخ الضابطين بأداء فني عالٍ وعلاقات مستقرة مع زملائهما وإبتعادهما عن التورط في أية عمليات قمع ضد مواطنين محليين كما أنهما لم يحصلا على مواقعهما القيادية بسبب صلة القرابة مع الرئيس بل إنتزعا مراتبهما عبر سلسلة من المراحل التي إجتازاها، كلُ من موقعه، على مدى خمس وعشرين سنة. وقد حاول الفريق هاشم أن يحصل على أكبر قدر من الحقوق للقوات المسلحة العراقية خلال لقاء (سفوان) دون أن يتمتع بتعليمات مسبقة من القيادة العامة، إذْ لم تزد تلك التعليمات عن إعطاء الموافقة على تسليم الأسرى والفصل بين مواقع القوات لمنع الإحتكاك والمواجهة وتبادل جثث الضحايا ، في حين وجد سبيله لإثارة مسألة إستخدام الطائرات المروحية من جانب العراق، وهو أمر قبله الجنرال شوارتزكوف على الفور دون أن تظهر أية إشارة على إعتراض أي عضو آخر في وفد قوات التحالف.
لقد أظهر هاشم أقصى درجات التماسك للحفاظ على كرامة الجندية العراقية التي وضعتها قيادتها السياسية في أصعب مأزق مر عليها طوال تاريخها، وأدار المفاوضات على نحو لم يظهر فيه طرفان : أحدهما منهزم .. والآخر منتصر مع أنّ نتائج الحرب كانت قد اتضحت في تلك الساعة.

.

تفرق الضباط الأربعة .. فعزل صابر الدوري من مناصبه ليمكث في منزله سنة 1994 قبل أن يُعين محافظا لكربلاء في صيف 1996، وعين نعمة فارس سفيرا في الفليبين ثم النمسا، وشغل صلاح عبود منصب محافظ بعضا من الوقت .. في حين صار سلطان هاشم وزيراً للدفاع منذ أواسط 1995.

× كان حمادي مسؤولاً عن اللجنة الإقتصادية التي تنسق بين وزارات المالية والتجارية

القسم الثامن

مقطع عرضي بعـــد الحرب

بماذا وشوّش الامريكان في أُذنك..وماذا أبقيت لي من صلاحيات وأنتپ تعلن برنامجاً لحكومتك..؟

صدام مخاطباً رئيس وزرائه

دعا الرئيس صدام حسين إلى عقد مؤتمر إستثنائي لحزب البعث كان الأول بعد الهزيمة في حرب الخليج وما تبعها من أحداث في أربع عشرة مدينة عراقية ، وتم جمع أعضاء المؤتمر الذين يقربون من مائتي عضواً على وجه السرعة في كلية الأمن القومي التابعة لجهاز المخابرات بعد سلسلة من الإنتخابات في فروع الحزب ومكاتبه المدنية والعسكرية.

لقد حضر أعضاء المكتب العسكري في الحزب وهم معبأون في إتجاهات محددة مسبقاً بعد أن إستمعوا إلى الملاحظات التي أدلى بها حسين كامل صهر الرئيس بإعتباره عضواً في المكتب العسكري حول عدد من أعضاء القيادة القطرية في الحزب، وكان معظم النقد الذي صدر عنه موجهاً ضد الدكتور سعدون حمادي الذي عُين بُعيد حرب الخليج رئيساً للوزراء، ودعا كامل صراحةً إلى إسقاط عضوية حمادي من قيادة الحزب بعد أن اتهمه بالعجز الإداري والفشـــل في معالجة الوضع الإقتصادي والتمييز بين الوزراء ..وكان يرد بذلك عليمواقف حمادي المتقاطعة مع رغباته في تصريف شؤون وزارات التجارة والمالية والنفط والصناعة والإسكان.

عند بدء المؤتمر القطري الإستثنائي جرى إختيار عزة إبراهيم وعلي حسن المجيد لرئاسة المؤتمر وإدارته، بعد أن كان قد تم توزيع الأدوار على أقارب الرئيس ومساعديه ليتناوبوا في توجيه النقد إلى أعضاء محددين في القيادة القطرية من خارج الدائرة المحيطة بالرئيس وعائلته، وكان واضحاً منذ البداية أن هناك قصداً مسبقاً في نقل مسؤولية الهزيمة من أكتاف مخططي عملية الكويت لتُلقى على كاهل أشخاصْ آخرين كانوا في صورة ما حدث ولكنهم لم يكونوا متمتعين بالحماية المعنوية من جانب الرئيس كما هو الحال بالنسبة لأقاربه والمتحدرين من قريتـــــــه..

فقد وقف حسين كامل وسط المؤتمر ليخاطب طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية قائلاً :

– إنّ كلينا عضو في هذا المؤتمر الآن ونتمتع بحقوق متساوية ولذلك سأكون صريحاً معك .. فقد كنتَ جباناً ومتردداً في قمع التمرد في محافظتي كربلاء والنجف .. وقد أضعتَ الكثير من الوقت عندما كنتَ مسؤولاً عن ذلك القطاع في تلك العمليات العسكرية.

ثم إلتفت إلى بعض القادة العسكريين المشاركين في المؤتمر وخاطبهم بأسمائهم قائلاً : إذا كنتُ مخطئاً فهؤلاء هم القادة العسكريون الذين كانوا في المنطقة ويستطيعون أن يصححوا لي في هذه الحالة.

عندئذْ تناوب العسكريون على إظهار عيوب الإدارة لدى نائب الرئيس متهمين إياه بالتردد والخوف من إقتحام المدينتين.

ثم عاد حسين كامل ليخاطب طه رمضان : أنتَ لم تستطع أن تفعل شيئاً قبل أن أتولى أنا مسؤولية إقتحام المدينتين.

ثم إلتفت إلى طارق عزيز وقال له :

– أما أنتَ يا رفيق طارق فهل تستطيع أن تقول لي ماذا فعلت الدبلوماسية العراقية، وهل تستطيع أن تبرر الفشل الذي مُنيت به في كل مكان .. إنك منشغلّ بأمورك الخاصة ويعنيك كثيرا أن تدخن السيجار وكأن تدخينه جزءّ من العمل الدبلوماسي، لا بل لم تكن تتردد في تدخين السيجار أمام الرئيس القائد كما لم تكن تتردد في وضع الساق على الساق وأنت تجلس في حضرة سيادته.

والتفت إلى الدكتور سعدون حمادي ليقول له :

– إنـــــك يا دكتور سعدون مسؤولّ عما يعانيه العـراق من مشاكل إقتصادية .. وهل تعتقد أن مشاكل الإقتصاد ستحلها شهادتك في الدكتوراه .. إن أولادك يهربّون العملة خارج العراق ومن لا يستطيع أن يسيطر على أولاده لن يستطيع إدارة عمل الحكومة.

وقال حسين كامل :

– إنك تفرق بين الوزراء، ولديك مجموعة مدللة وأخرى غير مدللة..

وأشار إلى وزير المالية مجيد جعفركمثال للوزراء الذين يخصهم الدكتور حمادي برعايته، وهو موظف تربوي صغير أصبح سكرتيراً للجنة الشؤون الإقتصادية قبل أن يصبح وزيراً للمالية بعد إنتهاء الحرب.

ثـم أخذ الكلمة سبعاوي إبراهيم الأخ غير الشقيق للرئيس وكان قد أصبح مديراً للأمن العام فقال :

– .. نعم .. لطالما رصدنا أولاد الدكتور سعدون حمادي وهم يعملون في التهريب ويتعرضون لمصالح الناس .

عندئذْ عقب الرئيس صدام على ملاحظات صهره وأخيه غير الشقيق مخاطباً الدكتور حمادي :

– هل تستطيع أن تقول لي يا دكتور سعدون بماذا وشوّش الأمريكان في أذنك .. ! .. منذ متى كنتپ تهتم بالتنظيمات الحزبية فوجدناك تذهب إلى المحافظات لتجمع التأييد في فروع الحزب .. ماذا كان في بالك ؟ .. ثم ما الذي جعلك تطرح ما أسميته برنامج الحكومة بعد توليك منصب رئيس الوزراء .. إذا كان هذا هو برنامجك فماذا سيبقى لي وهي نسيتني .. هل نسيت صلاحيات رئيس الجمهورية ؟

سكت صدام حسين قليلاً ثم قال:

– أما الملاحظات التي قالها الرفيق حسين كامل حول الرفيقين طارق وطه ففيها الكثير من الصحة لكن ما يشفع لهذين الرفيقين هو تاريخهما النضالي وولاؤهما الذي لا نشك فيه.

ثم باشر في توجيه اللوم إلى وزير الداخلية سمير محمد عبد الوهاب :

– لقد نسيتپ الأمن في بغداد، وكان يكفيك أن ترسل سيارات شرطة النجدة لتقف في الشوارع حتى يشعر الناس أن هناك سلطة قائمة .. لقد أبلغتك أكثر من مرة دون جدوى، أنتپ وزير فاشل، وليست لديك روح المبادرة .. أين كنتپ خلال الحرب ..

فعلق عزة إبراهيم : لقد طلبتُ منه أنا أيضاً أن يوزع سيارات الشرطة في الشوارع.

فعاد الرئيس ليقول : إذن لستُ وحـــدي من طلب منك ذلك .. إنك أنتپ المسؤول عن غياب الأمن وإنتشار الجريمة ..

ثم إلتفت إلى وزير الإعلام لطيف نصيف جاسم فأنتقد أداء وسائل الإعلام وقال له : إنكم لم تستطيعوا تصوير القصف على بغداد ولا نيران المدفعيات المضادة للجو .. ولم تكن إذاعتكم تصل إلى الشعب أو الجيش.

تأمل صدام حسين طويـــــلاً في وجوه الحاضـرين من أعضاء الحـــزب ثم قال:

– لا تتوهموا فتعتقدون بأنكم أنتم الذين حميتم الحكم من السقوط بعد انتهاء الحـرب عندما واجهنا صفحة الغدر والخيانة.. الحزب لـم يحمه نظامنا من السقوط لكن الذي حمـاه هي الأجهزة الأمنية ، وقد ترون أحياناً أنني أُوكل مهمات كثيرة إلى أقاربي .. نعم هذا صحيح ..إنني لا أرجوهم لكي يقوموا بأعمالهم .. و لا أقول لهم أيها الرفيق العـــزيز رجاءً قُم وأذهب إلى واجبك الفلاني ، بـل أقول لهم أركض يا حسين ..واسرع يا علي ..وهم يعرفون أن عليهم أن ينفذوا دون تلكؤ ، لذلك لا تقولوا يوماً إن تنظـيمات الحزب هي التي منعتنا من السقوط في الساعات الحرجة.

في كل مرة كان ينتقد فيها أحد أعضاء قيادته يعطي الإشارة واضحةً إلى أعضاء المؤتمر للإمتناع عن إنتخاب أولئك الذين أُلقيت عليهم تبعات الأداء السياسي والعسكري والإقتصادي المضطرب خلال الحرب.

بإنتهاء المؤتمر سقط سعدون حمادي من رئاسة الوزارة وأُقيل وزير المالية .. وطُرد عبد الحسن راهي فرعون من عضوية القيادة القطرية، وحصل طارق عزيز وطه رمضان على أقل نسبة من الأصوات التي تؤهلهما للإحتفاظ بعضوية القيادة القطريـة.

القسم التاسع

تجميـل الفجـيعـة

مــا أحــوج الضحــايا ليُنقــذوا من آثــار الكــراهية..

إنتهت الحرب، وتوالت الإجتماعات المغلقة التي يرأسها صدام حسين، وتباينت مستويات تلك الإجتماعات حيث حضر بعضها أعضاء في القيادة السياسية وحضر بعضها الآخر وزراء وكبار الموظفين الذين يتولون مهمات تنفيذية في أجهزة الدولة، وتباينت أيضاً الموضوعات التي جاءوا للبحث فيها، غير أن الأمر الأكثر أهمية هو أن اللغة المتداولة في الإجتماعات لم تتغير، كأن الحديث ما يزال يدور حول حرب لم تكن منتهية، .. إذْ ثمة منطق يكرر نفسه حتى بعد الهزيمة في هذه الحرب، كان يكفي أن تصدر عن الرئيس كلمة ما ليدور حولها كلام الحاضرين، بمعنى أن المشاركين في الإجتماعات كانوا يرطبون مسامع الرئيس بما يرضيه من أراء أو إقتراحات أو إجتهادات.

ربما كان هناك ما يفسر لهجة الأمل خلال الحرب عندما لم تكن الهزيمة قد وقعت بالكامل، أما بعد الحرب حيث جللت الفجيعة البلاد كلها بآثارها القاسية فلم يعد هناك ما يبرر لغة التمني، بل إن الأصوات التي تخرج من مستنقع الهزيمة لتتحدث عن النصر كانت شاهداً على آثار الفجيعة التي فرّخت تشوهات حادة في بنية الوعي ونمط السلوك، وبات على الذين يتلقون سياط الجلد أن ينشدوا ملء أفواههم للجلاد متلذذين بالعذاب وكأنه إحدى هبات النصر، كما أن الوطن المرشح للتقسيم بات في منطق تبرير الهزيمة هو أكثر البلدان تماسكا وتوحداً، وبات الشعب الجائع المحاصر هو الشعب الحر الوحيد وسط شعوب العالم المستعبدة .. حتى ليبدو أن هذا اللامنطق في الوعي وتبرير الخطأ هو أحد النتائج الموجعة لهزيمة لا يعترف بها أصحابها والمتسببون في وقوعها ..

بعد خمس سنوات، وتحديداً في منتصف شهر تشرين الثاني "نوفمبر" 1995، دعا الرئيس صدام إلى إجتماع تحضره القيادات الوسطى من وكلاء الوزارات والمحافظين والسفراء والمديرين العامين في لقاء موسع بعد إعلان فوزه في إستفتاء على منصب الرئيس لم ينافسه فيه أحد وحصل فيه حسب الأرقام الحكومية على نسبة 96،99% من أصوات الناخبين، وهو الإستفتاء الذي أُعد له أصلاً لإمتصاص بعض آثار الإنهيارات المتتالية في بنية الحكم بعد إنشقاق عائلي كبير نجم عن هروب صهري الرئيس وإبنتيه إلى الأردن .

ومن المناسب عرض ما دار في هذا اللقاء، لتبين الشبه الكبير مع اللقاء الذي جرى في 1991/1/24 ..

النصوص والأوصاف هـناك منقولة عن أحد وكلاء الوزارات الذين حضروا الإجتماع ..

●●●

أُستدعي وكلاء الوزارات والمديرون العامون وبعض السفراء عند التاسعة صباحا وأستغرق إعدادهم لمقابلة الرئيس عشر ساعات استقلوا في خلالها حافلات نقل أُسدلت الستائر الداكنة على نوافذها حتى لا يكون في مقدورهم معرفة الطرق التي تمر فيها والعنوان الذي يذهبون إليه، كما خضعوا لتفتيش دقيق .. نزعوا ملابسهم ثم عادوا فارتدوها، غسلوا أيديهم بمعقمات طبية، فحصوا أسنانهم، ونزعوا كل ما كان معهم من أقلام وساعات وقلائد وأحزمة .. ويفترض أن ألسنتهم ظلت في أماكنها.

دخلوا إلى القاعة لينتظروا طويلاً قبل أن يأتي سكرتير الرئيس ثم حراسه ليفحصوا الكراسي والستائر وبلاط الأرض على المسرح الذي سيجلس عليه الرئيـــس .

عند الساعة السابعة مساءً وصل رئيس الجمهورية إلى قاعة (الخلد) ليستقبله كبار موظفي الدولة بالتصفيق والهتافات فيرد عليهم بحركة يمينه المعتادة مبتسماً ودافعاً صدره إلى الأمام، وكانت أول عبارة قالها للحاضرين : أهلاً بشـــباب الدولة.

فأبتسم عندئذٍ الوكلاء والمديرون الذين أكل الزمن من ملامحهم وإزدادت أوزانهم منذ تبوأوا مناصبهم الحكومية وتخلوا عن إيقاع حياتهم السابقة عندما كانوا موظفين صغاراً لا يحظون بالإمتيازات ولا تنهال عليهم الولائم.

كان يُفترض أن هذا اللقاء الذي يجري بعد إعلان نتائج الإستفتاء الرئاسي سينطوي على تبادل معمّق للآراء حول المشكلات الإقتصادية والإدارية في الدولة وإقتراح حلول لمواجهة تفتت المجتمع وإنهياره المعنوي والقيمي ، هذا ما توقعه الجيل الثاني من مهندسين وإقتصاديين كانوا بين الحاضرين، إذْ أنها فرصة لكي يقولوا لرئيس الدولة إن الوضع الكارثي الذي تمر به البلاد يحتاج إلى عمليات جراحية شاملة، وربما افترضوا أن شعور الرئيس بالنشوة بعد إعلان نتائج الإستفتاء قد يصبح سبباً ليجعله أكثر إسترخاءً وتسامحاً مع نفســه وشـــعبه وموظفي الدولة.

غير أنّ نـمطاً آخر من الحاضرين كان يجد في مثل هذا اللقاء مناسبةً لإسترضاء الرئيس وبث مسامعه بما يرضيها من كلمات الإشادة والمديح، فنهض السيدكريم وهيب وهو مدير عام في المنظمات الشعبية ليمتدح الرئيس ويمجد سيرته قائلاً له : أنا ابن الفقراء وأنتب قائدنا.

فضحك الرئيس وقال : إنني أعرف (كريم) منذ كنا في السجن حيث كان يعد لنا طعاماً طيبـــاً ..

عاد وهيب فقال :إننا نحن– المديرين العامين في المنظمات الشعبية –نعيش بلا عمل ولا يجوز لنا أن نبقى كذلك وألتمس من سيادتكم إعطائي الفرصة لأعمل في مجال السياحة الدينية لإستقدام الزوار إلى الأضرحة المقدسة وسنحصل على مليار إلى ملياري دولار من هذه السياحة ..

ثم جاء دور الشاعر لؤي حقي وهو أيضاً مدير عام في المنظمات الشعبية فألقى قصيدةً في مديح الرئيس. وتلاه مولود جابر الدوري وهو أيضا من المديرين العامين المفرغين للعمل الحزبي فتباكى أمام الرئيس وقال إنه جاء ومعه قصيدة لمدحه غير أن الحراس أخذوها منه مع حاجاته الأخرى قبل الدخول إلى القاعة .. عندئذ أشار

الرئيس لمرافقيه كي يجلبوا قصيدة المديح وتمكين مولود من قراءتها.

وتحدث السيد نوري المرسومي وكيل وزارة الإعلام فقال : إنّ الذين انتخبوا صدام حسين إنما عبروا عن تأييدهم لبرنامجه وأكدوا أننا سنصمد في مواجهة الأجنبي وأطماعه وأننا قادرون على حرق أوراقهم التي سيستخدمونها في المرحلة التالية.

فعلق الرئيس صدام ساخراً :

–لم تبق لديهم أوراق كثيرة .. إنما لديهم الآن أدوات صغيرة فحسب.

ثم امتدح السيد فهد الشكرة (وهو من القياديين السابقين في الإتحاد الوطني للطلبة) المواطنين الذين صوتوا لصالح صدام حسين في الاستفتاء .. وعبر عن ولائه للرئيس وإستعداده لإفتداء نفسه من أجله .. (عينه الرئيس صدام رئيساً للدائرة التربوية في ديوان الرئاسة فور إنتهاء الإجتماع) .

وتوالى المتحدثون بين مدير عام في وزارة المالية وآخر في وزارة التجارة وآخر في وزارة الإسكان دون أن يأتوا بأفكار أو حلول لركام من المشاكل التي تُثقل كاهل المجتمع ومؤسسات الدولة إنما أفاضوا بمدح الرئيس والتعبير عن الولاء له بعبارات مكررة وجاهزة.

أما الرئيس فقال في نهاية الإجتماع إن الهدية التي ينتظرها من هذا اللقاء هي أن تقدم له خلال ستة أشهر فقط خطط من الوزارات لا يطلب فيها واضعوها أي تخصصات مالية بحيث يبحثون عن سبل تمويلها ذاتياً. وطلب أن تُرسل هذه الخطط إليه مباشرة لدراستها.

ثم دعا كبار موظفي الدولة إلى وليمة أُقيمت في الحديقة الملحقة بقاعة (الخُلد) حيث وضعت أشهى الأطعمة أمام الحاضرين .. وانتظر الإداريون وموظفو المراسم إنتهاء الوليمة ليجمعوا بقاياها ويذهبوا بها إلى منازلهم ..

أما الوكلاء والمديرون والسفراء فانتظروا ليحصل كل واحد منهم على مائة وخمسين ألف دينار هديةً من رئيس الدولة في وقت كان العراقي خارج تلك القاعة يأكل الحجر ويبيع كليتيه ولحم أبنائه.

•••

لم يفت أولئك الموظفين، كالعادة دائماً، ترديد ما يسر الرئيس : لقد إنتصرنا .. وأنهزم الآخرون .. وبدا أن الفجيعة ليست في وقوع الهزيمة فحسب .. بل في الإعتقاد أن الهزيمة لم تقع بعد ...

انقضى الاجتماع دون ان يتمكن حراس الرئيس من جلب قصيدة المديح التي أمر صدام حسين بإحضارها..فإما أنّ رئيس الدولة ضحك على موظفه وأعطى إشارة عكسية لمساعديه، و إما أنّ الأمر الذي يصدر عنه لم يعد مُطاعاً من معيته حتى لو تعلق الأمر بقصيدة مديح...

الخاتمـــة

كانت أكثر العبارات التي يرددها صدام حسين في أُخريات سنوات الحرب العراقية – الإيرانية :

– يمنْ يا تُرى، سيبقى في اللقطة الأخيرة من الحرب ؟

واللقطة الأخيرة التي يعنيها هي المشهد الإفتراضي الذي كان سيظهر فيه من تبقى حاضراً من اللاعبين المشاركين في الصراع السياسي والعسكري مع إيران يومئذْ. كان الأمر بالنسبة له هو محاولة لقياس درجة المطاولة لدى مساعديه والمؤتمرين به بعد أن حرقت نيران تلك الحرب طواقم من أولئك المساعدين وكبار الضباط والمسؤولين السياسيين، ولا شك أنّ بين الحرب مع إيران وعملية الكويت مسافةً معنوية وسياسية شاسعة، ففي الأولى تدحرجت الرؤوس بنيران السنوات المستديمة للحرب، أما في الثانية فقد غادر الكثير من المساعدين وكبار الضباط والسياسيين مواقعهم لأنهم استنتجوا مبكرا أم متأخرا أن هذه المعركة لا تعنيهم وأن الخروج من مواكبها سيبرئهم ويبرئ العراقيين جميعاً من آثامها، في حين لم تكن لأخرين من أولئك اللاعبين فرصة الإختيار إذْ كانت رصاصات الإعدام هي الأسرع في إنهاء حياتهم في بعض محطات الموكب الجنائزي الطويل الذي بدأ صبيحة الذهاب إلى الكويت.

يمنْ بقي في المشهد حتى الآن .. ؟ .. وجهمنْ الذي سيبقى في اللقطة الأخيرة ؟

قد تكون ثمة حاجة لوصف (اللقطة الأخيرة) .. فإما أن تكون لحظة إقفال نهائي لملف الكويت وإرتضاء ما ترتب عليه من نتائج .. وإما أنها ستغدو لحظة العودة لفتح هذا الملف ثانية والتورط في كارثة جديدةْ كبرى .. وقد تكون هذه اللقطة، أيضاً، هي لحظة مغادرة المسرح السياسي من قبل كل الذين إشتركوا في صناعة الكارثة .. أو أنها ستكون لحظة الاقتناع ببلوغ الخط الأخير مما كان يرمي إليه هؤلاء من أهداف عندما يتيقنون من إستحالة تجاوز الخط الذي إنحشروا خلفه ..

قد يكون هناك خلافٌ على وصف (اللقطة الأخيرة) غير أنّ موعد حلول هذه اللقطة سيقع حتماً ..

•••

يمنْ تســـاقط حتى الآن من أولئك الذين إشتركوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة في إعداد اللقطات الأولى من الكارثــة التي بدأت في الثاني من آب سنة 1990 ؟

■ علي حسن المجيد : نائب ضابط في ا لجيش ترقى إلى رتبة فريق أول ركن وشغل منصب وزير دفاع، إشترك في وضع الخطة العسكرية لإحتلال الكويت وأصبح حاكمها العسكري، وهو ابن عم الرئيس وبات يشغل، بعد ست سنوات، عضوية مجلس قيادة الثورة إلى جانب مسؤوليات حزبية هامشية.

■ حسين كامل : ترقى من رتبة رقيب عسكري إلى فريق أول ركن، شغل منصب وزير دفاع ورئيس هيئة التصنيع العسكري ووزير الصناعة ومشرف على وزارات التعليم العالي والنفط مع انه لم يكمل دراسته المتوسطة، وهو أحد أولاد ابن عم رئيس الدولة وزوج إبنته الكبرى، إشترك في وضع الخطة العسكرية لدخول الكويت، وأشرف على قوات الحرس الجمهوري فيها، انشق عن العائلة في آب 1995 وعاد إلى بغداد بعد العفو عنه في شباط 1996 حيث أُعدم مع عدد من أفراد عائلته.

■ سبعاوي إبراهيم : أخ غير شقيق لرئيس الجمهورية، شغل موقع مدير المخابرات يوم الثاني من آب ومدير الأمن العام بعد الحرب ،كان أحد ثلاثة أشخاص يديرون العمليات العسكرية والمدنية في الكويت، أُقيل من منصبه في تشرين أول 1995.

■ صابر عبد العزيز الدوري : كان مديراً للاستخبارات العسكرية وعلم بخطة إحتلال الكويت قبل إثني عشر يوماً من 1990/8/2، أصبح مديراً للمخابرات بعد إنتهاء الحرب، ثم أُقيل من منصبه أثر الخلاف بين مجموعتي (التكارتة) و (الدوريين) في صيف 1994. ثم عُين محافظاً لكربلاء منتصف 1996.

■ عزيز صالح نومان : تولى منصب محافظ الكويت بعد إحتلالها، ثم أصبح عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث بعد الحرب، أدار سلسلة من عمليات الإعدام والسرقة داخل الكويت.

■ إياد فتيح الراوي : كان قائداً للحرس الجمهوري عندما إشترك في وضع الخطة العسكرية لعملية الكويت قبل أسبوعين من تنفيذها، ثم أصبح رئيساً للأركان بعد الحرب، و أُقيل من منصبه سنة 1995 ثم أُعيد إلى الواجهة الإدارية المدنية ليصبح محافظاً للتأميم مطلع 1996.

■ حسين رشيد التكريتي : أصبح رئيساً للأركان بعد منتصف آب 1990 وعلم بقرار دخول الكويت قبل أسبوع من موعده وأُبعد عن منصبه بعد الحرب، وهو يشغل حالياً موقع أمين سر القيادة العامة للقوات المسلحة.

■ فاضل البراك : شغل موقع مدير الأمن العام ومدير المخابرات وكان مستشاراً لرئيس الجمهورية عند الذهاب الى الكويت ولم يكن من بين المشاركين في الإعداد للعملية، ثم عُين رئيساً للجنة إستشارية خاصة لتحليل الآثار السياسية والعسكرية لعملية الكويت قبل إعتقاله سنة 1992 ثم إعدامه بتهمة التجسس لصالح مخابرات أجنبية.

■ سعدي مهدي صالح : كان عضواً في القيادة القطرية ورئيساً للمجلس الوطني عندما حضر أول إجتماع سياسي يوم 1990/6/28 بحث في خيار إستخدام القوة العسكرية ضد الكويت، توفي بمرض سرطان الدم في إحدى مستشفيات عمان نهاية 1995.

■ سمير محمد عبدالوهاب : كان وزيراً للداخلية ولم يكن له دور مباشر في صياغة قرار 1990/8/2، وعُزل بعد انتهاء الحرب بتهمة التقصير والمسؤولية عن تدهور الأمن وإنتشار الجريمة داخل العراق.

■ لطيف نصيف جاسم : كان وزيراً للإعلام عندما أشترك في الإجتماعات المحدودة التي مهدت لعملية الكويت وتولى مسؤوليات سياسية وإعلامية رئيسة فيها، وخرج من عضوية القيادة القطرية لحزب البعث 1991 بعد أن أُتهم بتقصيره في الإعلام، أُعيد إلى المسؤولية الحكومية سنة 1993 كوزير للعمل والشؤون الإجتماعية.

■ مزاحم صعب حسن التكريتي : رُقي من رتبة عقيد طيار إلى رتبة فريق طيار ليصبح قائداً للقوة الجوية قبل دخول الكويت، عُزل مؤقتاً في اليوم الأول للحرب ثم أُعيد إلى منصبه بعد إنتهاء الحرب، قبل أن يعين مستشاراً لرئيس الجمهورية ثم مسؤولاً عن حمايته، وهو من أبناء عمومته، وكان على علاقة وطيدة مع حسين كامل، لم يحاسب على الكارثة التي حلت بالطيران العراقي وعن تقصيره في الحرب.وتولى أيضاً الإشراف على وحدات شبه عسكرية تُعرف بـ (فدائيي صدام).

■ سعدون حمادي : كان عنصراً أساسياً في بحث الخيار العسكري ضد الكويت بعد عودته من زيارتها يوم 19909/6/27 ، عين رئيساً للوزراء بعد الحرب، عُزل بعد خمسة أشهر وخرج من عضوية القيادة القطرية للحرب، ثم عُين مستشاراً برتبة وزير ولم يعد له غير دور إستشاري ثانوي في مجلس الوزراء حتى أُعيد ليصبح رئيساً للمجلس الوطني في نيسان "إبريل" 1996.

■ حامد حمادي : أتاح له موقعه كسكرتير لرئيس الجمهورية أن يكون من أكثر الأشخاص إطلاعاً ومشاركةً في بلورة الفعاليات السياسية والأمنية عشية الثاني من آب 1990، عُين بعد الحرب وزيراً للإعلام ثم أُقيل من منصبه مطلع 1996.

■ الفريق ساجد كامل : قائد قوات الخليج المسؤولة عن العمليات العسكرية في مدينةالكويت، أُحيل إلى مهمة مدنية وعُين محافظاً بعد إنتهاء الحرب.

■ اللواء الركن عصمت صابر عمر : كان رئيساً لأركان قوات الخليج العربي، أُعدم بعد إنتهاء الحرب بتهمة رفض تنفيذ الأوامر.

■ اللواء الركن بارق عبدالله الحاج حنطة : معاون رئيس أركان قوات الخليج العربي في الكويت أُعدم بعد إنتهاء حرب الخليج.

أما وطبان إبراهيم الأخ غير الشقيق لرئيس الجمهورية فتولى مسؤوليات أساسية خلال الحرب عندما أصبح وكيلاً لوزارة الداخلية ثم وزيراً لها قبل إقالته من منصبه في شهر تموز 1995، أطلق ابن أخيه (عدي) النار عليه خلال حفل ليلي يوم 8-8-1995 فأصابه في ساقه وأقعده في داره.

•••

وتـــدحرج آخـــرون، أو تحـــولوا من مواقعهم العسكرية إلى أخرى مدنية .. فقد أُقيل مدير الأمن العام عشية الحرب ثم عُين محافظاً للنجف وأُختير عضواً في القيادة القطرية ثم أُبعد عنها ليمكث في منزله منذ 1994، وتفرغ عاصم الجعفري آخر سفير في الكويت للتجارة بعد أن نقل منها ثروة كبيره، وعُزل أرشد ياسين المرافق الأقدم لرئيس الجمهورية وزوج شقيقته وتفرغ لأعماله الخاصة بعد إفتضاح تورطه في تهريب الآثار العراقية إلى الخارج، وأُعدم صدام كامل مسؤول أمن رئيس الدولة بعد إنشقاقه عن العائلة، وطُرد حسين زبن(مدير طيران الجيش حتى صبيحة الثاني من آب 1990) من الخدمة بعد أنْ أمضى شهوراً عدة في السجن، وصار الحيكيم حسن علي التكريتي (الذي تولى بعده إدارة طيران الجيش) محافظاً لبابل، وعُين أحمد حماش قائد إحدى فرق الحرس الجمهوري محافظاً لديإلى وصار صلاح عبود قائد الفيلق الثالث محافظاً لذي قار وعُين إياد خليل زكي قائد الفيلق الرابع محافظاً للسماوة. وعُين محمد عبد القادر معاون رئيس أركان الجيش محافظــاً لنينوى ..

أما أبرز من تبقى في الخط الأمامي من أولئك الذين شاركوا في وضع خطط عملية الكويت أو تولوا مسؤوليات إدارة الأزمة والحرب، فمنهم أعضاء مجلس قيادة الثورة (عزة إبراهيم وطه رمضان وطارق عزيز وعلي حسن المجيد) وأحمد حسين رئيس ديوان الرئاسة وعزيز صالح نومان عضو القيادة القطرية ومحمد مهدي صالح وزير التجارة ورئيس لجنة نقل الممتلكات الكويتية إلى العراق.

•••

يعتمل هاجس البقـــاء في نفس الرئيس صدام حسين كلما تناقص عدد الأشخاص القريبين منه يوماً بعد آخر ، غير أنه لا يجد في تفسير هذه الظاهرة إلا بكون الذين يتخلون عنه أشخاصاً أقل ثباتاً في المواقف الصعبة ..فقد تطلع –بعد ثماني سنوات من معركة تحرير (الفاو)– في وجوه من بقي حياً من المشاركين في تلك المعركة فوجد أن كثيرين قد غابوا بمن فيهم وزير الدفاع ورئيس الأركان وصهـــره وعدد من القادة العسكريين فخاطب من تبقى منهم حياً أو داخل العراق و قال : (لو نظرنا إليكم من خلال الصورة التي أخذناها قبل سنة وقارناها مع الصورة التي نأخذها الآن لوجدنا أن هناك نقصاً في أشكال أناس غابوا عن الصورة، ولم يغيبهم أحد وإنما هم الذين غيّبوا أنفسهم بأنفسهم).

مينڒ سيبقى حتى النهاية في اللقطة الأخيرة المنتظرة .. ؟ .. وأيهم سيسبق الآخر إلى الإنشقاق .. أم الى مقصلة الموت .. ؟..ومن سيبقى إلى جانب الرئيس في ســاعة الإحتفال الأخيرة..؟

المشهد الأخير ..

منذ انتهـــت الحــــــرب صار الرئيس صدام حسين يلوذ بخلواته .. فيذهب إلى أكواخ بُنيت من الطين في مزارع معزولة أو تراه يركن في مسكن عادي لا يستجلب الأنظار من مساكن بغـــداد وضواحيها .. تماما كان آية الله الخميني يفعل بين الحين والآخر خلال الحرب مع العراق .. وهي العادة التي طالما تندر عليها الرئيس صدام نفسه، واتهم خصمه بأنه كان يلوذ إليها في كل مرة تمنى فيها القوات الإيرانية بهزيمة أمام القوات العراقية.

لقد كانت خلوات الرئيس إحدى المناسبات التي تتبلور عنده فيها رؤية خاصة لما حدث .. أو لما ينبغي أن يقدم عليه من أعمال، وفي أجواء تلك الخلوات إتخذ كثيراً من القرارات الحاسمة .. كما انه خرج من بعضها بشعور نادراً ما كان يحدث ليلوم نفسه ويتعامل معها بعدم الرضا.

فهل شعر الرئيس صدام بالخطأ فعلا .. وهل إعترف به .. وكيف حدث ذلك .. ومتى .. ؟

.. هنا أقتطع حواراً خافتاً يعود إلى سنة 1993، لم يكن معداً للنشر، قال فيه الرئيس لبعض زواره من أصدقائه القدامى بعد إحدى خلواته :

– لقد كبّروها علينا .. كنت أريد أن أجرّ آذانهم .. وأنسحب .. لقد أخذنـــا التيــــار بعد أن (سويناها) في ساعة عصبية .. ولم يكن لأحد أن يتوقع أن تتضخم الأمور إلى المستوى الذي جرت فيه .. كبّروها علينا إلى حد لم يعد فينا أن نحتمله بعد الآن ..

لكن المؤلم، أن مثل هذا الإعتراف كان يجيء في لحظة يشعر فيها الرئيس أنه قد تراجع أكثر مما يستطيع، فلا يلبث أن يعاود في الصباح التالي تقديم عرض مناقض للحظة الإعتراف في الليلة السابقة، وكأنه يشعر بذنب مضاف، لأنه لم يصب أولاً .. ثم لأنه إعترف بعدم الصواب في لحظة مـا ، فيسعى إلى إحتواء آثار ما يخلفه الموقفان من إنطباع لدى الآخرين، وربما كان ذلك من سوء حظ الذين يستمعون إليه من خارج الدائرة العائلية الضيقة، فكأنهم يشهدون على أمر كان ينبغي أن لا يحصل أمامهم .. مع أنّ الإعتراف إزاء الكارثة هو في النهاية نـمـط من الأعمال التي ينبغي أن تُـؤدى في العـلـن وبالفــم الملآن وأمام الضحايــا والمتضررين وشهود التاريخ .. فلعل لـمثل هذا الإعـــتراف أن يقلل من فداحة الخطــأ .. وفـداحـــة الهزيمـــة.

إن هناك ازدواجية بيّنـة تعبر عن إنقسام على الذات في رؤية الموقف، إذڒ ثمة ساعات شعور بالندم والتقصير، تقابلها ساعات إعتزاز بالخطأ وتمسك به .. وقد يستمر هذان الخطان متوازيين لزمن طويل آخر ..

.. ســـاعة الشعور بالندم تعبر عنها لحظات الإعتراف السرية بأن الأحداث قد كبرت على صانع قرار الثاني من آب .. أما ساعة الإعتزاز بالخطأ فتعبر عنها سيـاسات القسوة في الداخل و محاولات إخراج أزمة الداخل على شكل صراع جديد مع العالم الخارجي ..

كم كان كبــــيراً لو اعترف النادمـــون بأخطائهم أمام أهلهم .. لكن .. منڒ سيعترف .. ومتـــى .. ولـمـــــن ؟

•••

لقد تخلى الرئيس نفسه عن سيارات المرسيدس المصفحة، وصار يتنقل بسيارات الحمل الصغيرة التي إعتاد الفلاحون على إستخدامها لنقل محاصيلهم الزراعية من الأرياف إلى المدن، كما طلب مجموعة من سيارات التاكسي لتكون هي الأخرى وسيلة في التنقل خفية داخل بغداد وخارجها، واعتاد أن يلثّم معظم وجهه بيشماغ أحمر

كما يفعل البدو عادة فلا يظهر من ملامحهم عندئذٌ غير العينين، ولطالما طرق أبواب منازل صغيرة ليبيت عند نزلائها في الساعات الأخيرة من الليل ثم ليغادرها في ساعات الفجر الأول بعد أن يكون الحراس قد قطعوا الإتصالات بين نزلاء الدار والعالم الخارجي طوال ساعات مبيته لديهم .. حتى أن عدد هؤلاء الحراس لم يعد كبيراً كما كان في السابق .. إذٌ بات من المعتاد أن يصرف الرئيس حراسه على دفعات وهو يتوجه إلى أحد أماكن إختفائه، خلال الحرب، وحتى بعد مضي خمس سنوات عليها وهو يبحث عن مبيت له في أماكن مختلفة بما فيها مقبرة تكريت التي أغلقت منافذها ولم يبق منها غير باب رئيس واحد، بعد أن أُودع فيها سكن خشبي متنقل (كارفان) ليكون مهجعــاً لرئيس الدولة في غير ما مرة.

لطالما، تحدث الرئيس عن أولئك الذي ينهزمون في دواخلهم، وعرّضهم للنقد والتجريح، لكنه هذه المرة لا يشعر بالإطمئنان داخل قصوره ومنازله وفي مسقط رأسه، ولا يأمن إلى سياراته وحراسه ومساعديه .. فكأنه ارتضى لنفسه التخفي الذي كان يراه عند الآخرين مؤشراً على الإنحسار والعزلة والضعف ..

ليس أمراً عابراً أن يضيق العـــــراق على رئيس الدولة فيه .. فلا يجد مهجعـــاً يبيت فيه غــير مقبـــــرة ؟ ...

أكانت هذه كل الأسئلة .. وكانت تلك كل الإجابات .. ؟ .. إن من المستحيل الظن بأن كل الأسئلة قد أثيرت وأن الأجوبة قد بلغت نهاياتها .. وسيرضيني القول بأن كل ما كتبناه حتى الآن هو مدخل يفضي إلى إتجاه صحيح لرواية ما حدث .. وستكون تلك هي بداية المشهد أما نهايته فلا شك أنها ما تزال مفتوحة وحبلى بكثير من التفاعلات والآثار .. والمفاجآت، فكأنك تقرأ كتاباً ثم يتعين عليك كتــابة فصول لم يضعها مؤلفه، وتحت هذا الهاجس تولدت فكرة وضع كتــــاب آخر يتعاطى مع أسئلة ما تزال محرمـــة حتى الآن .. من نمط : مين الذي شـجّع صدام حسين على المجيئ إلى الكويت .. ؟ .. ومن الذي أعطاه الإحســـاس بأنه مقبل على مهمة يســـــيرة .. ؟ .. وماالذي تبقى من تحالفـــــاته القديمة في الكويت نفسها .. ؟ .. لا بل لماذا قامت تلك التحالفات .. ولمصلحة من جرى إغلاق ملفاتها .. ؟..

أما السؤال الأهم الذي سيظل يبحث عن إجابة موثقه فهو : هل سيتكرر دخول الكويت .. بوجود صدام أو غيابة .. وما الذي يمنع وقوع الكارثة من جديد ؟

.. و هل غدت فكرة العودة إلى الكويت إحدى الخيارات المقبولة في العقل السياسي العراقي .. ؟ ..

قد تكون الفكرة مترسبة في أجزاء من هذا العقل خاصة تحت وطأة الشعور بالعزلة التي يمكن أن تنتج ردود أفعال ذا طابع إنتحاري وتدميري ضد الذات والآخرين على حد سواء، غير أن هذا المنحى المضطرب في إلتقاط الخيارات يصطدم تلقائياً بحقيقة أكبر، هي أن ما وقع في آب 1990 ما زال يمثل كنموذج للإنتحار وإرتضاء تدمير الذات، ولذلك يصعب على صدام حسين أن يجد من يبرر قراره بسبب الكلفة الباهظة التي ترتبت عليه ، فهو قرار يخلو من الحكمة بما إبتدعه من معركة غير مسبوقة إستجلبت الكوارث على حاضر العراق ومستقبله وتطبيقاً على هذا التصور، ومن زاويته العراقية تحديداً، يمكن إنشاء الفكرة القائلة بأنّ من الأولويات الوطنية للعراق تحاشي الإقدام على مثل هذا العمل إحتراماً للمصالح العراقية قبل أن يكون إحتراماً لمصالح الآخرين.

وعليه فإن مقاومة نزعة الاحتراب هي إمتثال للمصلحة الوطنية العراقيـــــة، والتزام بمستلزمات الحفاظ على وحــدة العراق وإستقلاله ودوره .. إننا إزاء ضرورة عراقيـــــــة أكثر منها ضرورة إقليمية أو دولية.. وسنحتاج في الوقت نفسه إلى كثير من المصارحة التي تتأسس على المعلومات الصحيحة والتحليل الجرئ لكل ما يحدث أمام نواظرنا اليوم ويمكن له أن يتــورم بعد حين ليصبح مصدر تهـــديد لإستقلال الدولتين وسيادتهما .. فرفض الإحتراب ومقاومة أي نزعة للعودة إليه يتوافق مع البحث المضني عن مستقبل يخلو من فرض شروط الإذعان وإشاعة مناخ الإنتقــام والشــماتة على حساب شعب العراق وكرامته ووحدة دولته ودوره في الإقليم والعـــالم ..

إن ثمة حاجة نفسية ومعنوية ملحة لإعادة تأهيل الجموع التي إشتبكت في لجة الصراع على الكويت،لأن هذه الجموع لم تكن صاحبة قرار بل كانت ضحيةً له، وستحتاج إلى عمل مركب وطويل المدى لتخليصها مما أصابهـــــا وأستوطن فيها من شوائب وترسبات وتداخل مفاهيم .. ويمكن أن يتم ذلك تحت منطوق : ماذا حدث .. ولماذا حدث .. وما الذي ينبغي أن لا يتكرر مرة أخرى .. وما شكل العلاقة بين الضحايا من مواطني العراق والكويت .. ؟.. وكيف تعود العلاقة ســـويةً بين هذين الشـــعبين .. لا بل هل سيكون ذلك ممكنـــاً متاحـــاً .. ؟ ..

لقد مضت حتى الآن ست سنوات على الواقعة دون أن يتحقق الكثير من العمل لــردم الفجوات وإنقاذ الضحايا من آثار الكراهية، بعد أن تساقط غبار الكراهية والحذر والتوجس على الجمهور المنتشر على إمتداد خطي الـــمرور المتقاطــعــين ..

أول المشهد..آخر المشهد

.. قبل أن أطوي صفحات هذا الكتاب عدت إلى أوراق قديمة كنتُ أدون فيها ملاحظات منقولة من محاضر إجتماعات قديمة تعود إلى ربيع 1990 عندما أستقبل الرئيس صدام حسين مسؤولاً عربياً كبيراً ولوح أمامه للمرة الأولى بأن الصراع على الخليج ونفطه سينفجر على خلفية التباين بين العراق والكويت ..

وأقتطع هنا بعضا مما قاله لذلك الزائر العربي الكبير :

– (على الدوام ثمــة (بابــــل) يبحث عنها الحالمون بحكم العالم .. ففي العالم القديم لم يكن بمقدور أحد أن يحكم الدنيا دون السيطرة على أعز وأكبر مدائنه وأقصد بها مدينة (بابل) .. أما اليوم فإن(بابل) هي النفــط وليس لأحد أن يحكم العالم دون السيطرة عليه .. والنفط هنا ..إنه في الخليج حيث ستدور معركة كبرى في زمن لم يعد بعيدا عن هذه اللحظة).

منذ يومهـــــــا أمضى صدام حسين الكثير من أوقاته بين آثار مدينة بابـــــــــل التاريخية وما خلّفه فيها بانيهــــا الملك القديم (نبوخذ نصـــر).. وبين الإعداد لإكتســــاح الكويت.